مسكين عالم الذكور

للأذكياء فقط

دكتور عبد المحسن صالح



مسكين عالم الذكور .. !!

الطبعة الثالثة

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

الطبعة الرابعة

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني هاتف : ٥١٢١٤ برقيا : شروق القاهرة
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ برقيا : داشروق .

دكتور عبد المحسن صالح

مسكين عالم الذكور

للأذكياء فقط

دار الشروق

الغلاف بريشة الفنان مصطفى حسين

مقدمة

نكد أو ذكر !

المخلوق الذكر ـ بالنسبة للحياة ـ « كالفقر الذكر .. كاللبان الذكر .. كالحظ الذكر » .. ومن السخرية والغرابة حقا أن تكون كل هذه التشبيهات « النكد » التى تجرى على ألسنة البشر ، قد أصبح القاسم المشترك الاعظم بينها « ذكر » ، ولم تلصق بالانثى واحدة من هذه الصفات السيئة التى الصقت لصقا بالذكر .

فمن وجهة نظرنا نحن ـ النابعة أصلا من وجهة نظر الحياة ـ نستطيع أن نهتف ونقول : محظوظ عالم الاناث ومسكين عالم الذكور .. ثمين عالم الاناث ، ورخيص عالم الذكور !

لكن قبل أن نسترسل فى هذه المقدمة « النكد أو الذكر » وقبل أن نندب حظنا نحن معشر الذكور ، وقبل أن تموع نفوس القراء ـ ذكورا أم اناثا ـ وقبل أن يضربوا أخماسا فى أسداس ، ثم قد ينحاز الذكر الى بنى جلدته ، والانثى الى بنات جنسها ، فتعقب احداهن على هذه المقدمة بقولها : « ياعينى علينا وعلى بختنا .. قطيعة تقطعهم وتقطع أيامهم السودة » .. وقد تستطرد اخرى لتكمل حكم زميلتها التى ربما تجهش بالبكاء ـ فتقول : « ان الرجال هم الاقوياء المتجبرون ، ونحن الضعيفات المكسورات الخاطر .. ربنا يكسر خاطرهم » ثم قد تقلد

صاحبتها ، وتنهمر من عينيها عدة دموع على الوجنــات ، ربما لأن حظ هذه أو تلك فى الخياة مع من أحبت أو تزوجت كــان نكــدا ، الا انــه يجب علينــا أن نشــير الى أن هــذا الكتــاب سيتنــاول العموميات ، ولا شأن لــه بالحالات الفردية ./. ذلك أن الموضوع الذى سنناقشه هنا موضوع علمى .. والعلــم دائمــا دراســات هادفة ، كمــا انــه لا يستمد استنتاجاتــه الا عن طريق تجميــع اكبــر عدد ممكن من الظواهر والحقائق الطبيعية ، ثم يجــرى عليها دراسـات احصائية تحليلية ، ليخرج من ذلك بنتيجة واضحــة ، نرتكــز عليهــا فى حكمنا وتقديــرنا للامــور ، وبــدون تحيــز .. فالعلــم لا يقبــل المداهنــة أو الافتراء أو الخداع .

فاذا تناولنا هذا الموضوع من وجهة نظرنا ، وقصرنــاه على أنفسنا ــ رجــالا كنا أم اناثــا ــ فلا شك أننــا نتحيــز لنوعنــا الانسانى دون اعتبار للخلائق الأخرى التى تشاركنــا الحيــاة على ذلك الكوكب .. ففيها أيضــا الذكر والانثى ، ولهذا كــان لابد أن ندخلها معنا فى الحلقــة ، فلسنا عنها بمفصولين ، بــل سيتضح لنا فيمــا بعد ــ أن الكثير من عاداتنا وتقاليدنــا متوارثــة عن تلك الكائنــات التى سبقتنا فى الظهــور على الارض بعشرات ومئــات الملايين من السنين .

اذن ، فلتكن نظرتنا لهذا الموضوع نظرة شاملة جامعة ، فمن الخطــأ ان يقيمه احد على هــواه ، أو يتخــذه مقياســا للحيــاة الفرديــة ، بل عليه أن يرقب المسرحيــة العريضــة التى تقدمهــا الحياة على خشبة مسرح هذا الكوكب ، وعندمــا تنتهى فصــول التمثيلية ــ التى يلعب فيها الذكر والانثى الدور الرئيسى ــ فعليه أن يحكم الحكــم الصحيح ، وسيتضح لــه أن الحيــاة تتحيــز لاناثهــا ، وتضحى بذكورها ، أو كأنما هى تتعامــل معنا على مبــدا « الخيار والفقوس » .. فالخيار يعنى الاناث ، أما الذكور عندهــا فبمثابة « الفقوس » ، أو البضاعة الرخيصة !

كأنما طعمنـا نحن معشر الذكـور فى « فـم » الحياة قـد أصبح مثل طعم اللبان« الذكر » فى أفواهنا ، فهـو ـ أى اللبـان الذكـر ـ لا يعمر بين أضراسنا طويلا ، لانه هش ، وبـه مرارة ، وما أسرع أن نبصقه أو نحرقه فى خلطـة البخور لنستمتع برائحته التى لا يظهرهـا الا « الحرق بالنـار » .. هـذا بعكس اللبـان « النتايـة » ، فلـه بين الأسنان طراوة ، وفى المضـغ حلاوة .. ومن أجـل هـذا كان فى الاسواق أغلى سعرا ، وفى الافـواه أطول عمـرا !

كذلك يكون المخلوق الذكر فى سوق الحياة .. انه أرخص من الانثى ثمنـا ، واقصر عمرا .. فالانثى مرغوبـة ، أمـا الذكـر فى حياتها فليس الا بمثابـة عابر سبيل ، يضع البذرة، ويترك لهـا الباقى ، ولهـذا فان الانثى بالنسبة للحياة أثمن وأهـم بيولوجيا من الذكـر !

وقد تثير هذه الحقيقة بعض الاصدقاء من عالـم الذكـور ، فتراهم يفتلون شواربهم (ان كانت موجودة) ، ويمسكون بذقونهم، وينفخون أوداجهم ، ويبرزون عضلاتهم ، وبصوت جهورى أجش فيـه نبرة رجولة فياضة قـد يقولون : كيف ذلك يـكون ، وقـد جعلنا الله قوامين على النساء ؟ .. ثـم قد يستطردون ويقولون : أن الرجل من قديم الزمن هو سيد هذا الكوكب ، وهو الذى صنع الحضارة ، ووضـع القوانين ، وطور العلـوم ، وأقـام الدنيـا وأقعدهـا .. وبالاختصـار فهـو ـ لا شـك ـ أهـم من الانثى وأحسن !

صحيح ! .. صحيح أن الرجل صانع الحضارة ، لكن المـرأة صانعـة الاجيـال ، وشتان مـا بين هـذا وذاك ، فالرجـل قـد يبيـد حضارته نتيجة لتهوره ، فى حين أن المراة لا تبيد ما تحمـل

وتضع وتصنع ، ثم أننا فى تقديمنا لهذا الموضوع لم نتعرض للذكر والانثى من وجهة نظر العلم والحضارة والسيادة ، ولكننا نتعرض لها من وجهة نظر الحياة .. فاستمرار الحياة أهم بيولوجيا من استمرار اى شيء آخر ، ولهذا كانت الانثى اغلى ، لانها هى الحاضنة الحقيقية للاجيال .. وفيها وفى الاجيال صفة الاستمرار .

لكن .. لماذا تسرعنا فى حكمنا قبل أن نقدم فصول هذا الكتاب ؟

لسنا ندرى .. فالكلام « يجر بعضه » كما يقولون ، والذى جرنا الى كتابة هذا الكتاب حوادث عدة تمر بنا فى كل آن وحين .. فلقد مررت ذات يوم على رجل ، وهو يمسك بيده فأسا ، وبه يهوى على جذع نخلة فى ضربات قاسية متلاحقة .. لم يكن فى النخلة عاهة ولا شذوذ ، بل تبدو فى منتهى الصحة والعافية ، وبدافع الفضول تقدمت وقلت : على وسلك يا صاح .. لماذا تجز نخلتك هكذا جزا ، وكأنما هى قد جاءت شيئا نكرا ؟ .. عندئذ مسح عرقه ، ونحى فأسه ، ونظر الى بألم وحسرة وقال : فقرى دكر .. حظى دكر .. النخلة دكر ، وليس لدكر النخل من فائدة تذكر ، ونحن أولى بجذعه والليافه وجريده ، ولابد ان اقطعه من جذوره ، لأزرع مكانه نخلة أخرى .. وياليته جاء انثى ، عندئذ كنت أصونها وأرعاها ، لانها ستمدنى بما أهوى !

قلت وانا اجتر مرارتى وحزنى : لكن لولا الذكور ما كانت الاناث ، فهذه مكملة لتلك .. قال أعلم ذلك ، لكن ذكرا واحدا يكفى لعدد كبير من الاناث ، ولابد أن نتخلص من الذكور الزائدة لنفسح مكانا لمزيد من الاناث .. ففيها خير كثير .. دعنى وفقرى الدكر !

وتركته وانطلقت الى حال سبيلى وانا أتمتم بمرارة : مسكين عـالم الذكور .. رخيص عالم الذكور !

وتكرر المشهد امامنا مرة أخرى فى عالم الحيوان ، كمـا تكرر قبل ذلك فى عالم النبات ، ففى حظـيرة الدجـاج حلت المأسـاة بديك شاب كان يتبختر ويتباهى مع رفيقين آخرين بين عدد كبـير من الاناث ، وجىء بالسكين ، ووقع الاختيار على المسكين ، وبعـد لحظات كان الديك مضرجا فى دمائـه ، وأخـذ يرفرف ويرتعش الى أن همد جسده ، وأسلم الروح الى بارئهـا ، وسألت وقتهـا بغيظ : لمـاذا الديك بالذات والفراخ كثيرة ؟ !

وجاء الجواب كصفعة لعالمى الذى أنتمى اليه ــ عالم الذكور عمومـا ، والرجال خصوصا ــ وقيل لى : ديك واحد يكفى لكـل الفراخ .. فالدجاجـة احسن من الديك ، وحتى لحمهـا أطعم من لحـم الديك (تماما كاللبان الذكر واللبـان النتايـة) . . ثـم أن الدجاجـة هى واضعة البيض ، والبيضة بخمسة وثلاثين مليما .. وهى التى تحضنه ليفقس ويعطى كتاكيت ، والكتكوت يسـاوى خمسين مليما .. وهـذا يعنى أن الدجاجـة من ورائهـا الخـير والنعمة ، أمـا الـديك فعليـه اللعنـة ، ونحن أولى بلحمـه .. وليحيا الدجاج ، ولتذبح الديوك !

وانطلق فى داخلى هاتف حزين : بائس حقا عالم الذكور !

ثم يجىء الانسان فى النهاية ، ويضع القوانين الوضعيـة على نفس المنوال الذى سارت به القوانين الطبيعية .. ولقد كان القانون الوضعى فى صالح الانثى ، وضد الذكر على خط مستقيم ، فباسم القانون الوضعى « ممنوع ذبح الانـاث ، ولتـذبح الـذكور » ..

والقانون بطبيعة الحال وضع للمواشي ، ولـم يوضع للبشر (١) . .
يعنى فليذبح العجل أو الثور وتبقى البقـرة .. نـذبح الارنب ،
ونحافظ على الارنبة .. نضحى بالكبش ، وتحيا النعجة ، والغريب
أيضا ان الله ارسل كبشا ليفدى به اسماعيل ولم يرسل نعجة ! (٢)
وكأنما فى التضحية بالذكر حكمة ، وتبقى الانثى معززة مكرمة !

لكن هناك قانونا طبيعيا يتمشى تماما مع قانوننا الوضعى ..
فباسم القانون الطبيعى « على الذكور أن تتصارع فيما بينهـا ،
ولتقتل ــ ان أمكن ــ بعضها بعضـا فى حضرة الانثى ــ فمن تغلب
ملكها ، ومن استسلم وجبن وضعف فالى الجحيم » !

قانون قاس ذلك الذى يضحى بالذكور ، ويعرضها لما لا تحب
وترضى .. ولتبق الاناث فى مرتبة اعلى ، ودرجـة أغلى ، وهـكذا
شاءت الحكمة الالهية من قديم الـزمن .. لكن رغـم أن فى ظاهـر
هذا القانون قسوة ، الا أن فى باطنه حكمة ، وحكمتـه أن يتقـدم
للانثى أقوى الذكور وأشدها ، وهكذا تختار الحياة لانائهـا أفضل
ما أنتجت ، أما الباقى فعليه اللعنة .. وسوف تتعرض فيما بعـد
لصور غريبـة من هـذا الصراع ، ليتبين لنـا أن عالـم الذكـور

---

(١) بعد أن انتهينا من كتابة هذه المقدمة ، سمعنا وقرأنا عن احتمال إصدار عدة قوانين جديدة تحدد علاقة الرجل بالمرأة ، والمرأة بالرجل ، وفيها ــ كما يقولون ــ مزيد من القيود والاغلال لنا معشر الذكور ، صحيح أننى لا أهتم بمثل هذه القيود ، لأننى لم أدخل إليها أصلا ، إلا أننى أرثى لحال بنى جنسى حينما أسمع أن الذكر العاصى سـوف يذبح ذبحاً ، أو أنه سيمشى « على العجين مايلخبطوش » .. ولهذا فلا بد أن يؤدبوه ويحسنوا تأديبه ، فن مفاخر الزواج أنه تأديب وتهذيب وإصلاح .. ولا بد أن يسير الذكر فى هذا الطريق القويم إلى أن يسلم الروح إلى بارئها ! .

(٢) كما سمعنا ذلك من أحد خطباء المساجد .. بارك الله لنا فى علمهم ، ونفعنا به ! .

« بريالة » .. أى أن لعابها يسيل على الانثى ، وقد تهون الحياة فى سبيلها .

لكن يبدو أننا نحن معشر ذكور البشر لسنا معزولين عما يجرى فى الطبيعة الحية من حولنا .. فصراع الذكور ــ أو الرجال ــ فى هذا العالم أشد وطأة ، وأعظم قسوة من صراع الاناث . كما أن تعرض الرجال من قديم الزمن لشدائد الحياة واخطارها أكبر مما تتعرض له النساء .. فعلى الرجل دائما أن يحمى الانثى ، فاذا لم يفعل كان فى عرفنا غير جدير بما وهبته الحياة من صفات ليكون كفؤا لمجابهة كل الاحتمالات ، وفى مقدمتها حماية الدار من الاخطار .. كما أن الحروب لا يثيرها الا الرجال ، والجيوش المقاتلة كان حطبها ووقودها شبابا ورجالا .. ويبدو أن نعرة الرجولة هى التى تدفعنا دفعا لكى نتطاحن ونتقاتل ويبيد بعضنا بعضا ، ربما لسبب أو لغير سبب ، أو قد تكون من وراء ذلك أنثى .. المهم أن الرجال تروح ، وتبقى النساء ، وعندئذ قد تختل النسبة بين عدد الاناث والذكور ، وقد يؤدى ذلك الى نوع من الانهيار الاخلاقى .. لكن الشريعة قد سمحت فى هذه الحالة للرجل المقتدر أن يتزوج من النساء مثنى وثلاث ورباع ، وفى هذا حكمة باطنة .. هى المحافظة على النساء وكرامة النساء حتى لا يتعرضن لما لا يحمد عقباه ، وفى ذلك تكريم لهن على أية حال ، « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » !

لكن المآسى الحقيقية التى قد تحل بالذكور من جراء الانثى ، والتى سنتعرض لها فى هذا الكتاب ، سنراها أكثر فى عالم الحيوان ، ومن الحقائق التى سنسوقها سيظهر لنا أن الذى « اخترع » هذه التعبيرات الطريفة ــ أى الفقر الدكر واللبان الدكر .. الخ ، ونطق بها لأول مرة فى التاريخ كان على حق ، وربما كان حكيما من الحكماء أو عالما من العلماء ، أو ربما كان مجنونا ، فأحيانا ما تأتى الحكمة من افواه المجانين ، وربما يكون جنونه قد أثمر وأينع على يدى انثى ــ وما دمنا قد تعرضنا للجنون ، فلابد أن نشير

هنا الى أن نسبة المجانين بين الذكور اكثر منها بين الاناث ـ فأعصاب الذكر ـ رغم قوته الجسدية ـ قد تنهار وتتحطم أمام أعصاب الانثى القوية ـ رغم ضعفها الجسدى الظاهرى .. فمن ضعفها تبزغ القوة ، وبدموعها الحقيقية والصناعية ـ التى تنهمر أحيانا كالمطر الطبيعى والصناعى ـ قد تحول قوتنا الى ضعف ، وشموخنا الى خنوع ، فنستجيب للانثى بما تحب وتهوى .. فهى تعرف تماما كيف تستخدم الدمعة المناسبة ، وفى الوقت المناسب ، للموقف المناسب .. وهذا ذكاء لا نقدر عليه نحن معشر ذكور البشر ـ كما أن دموع الانثى قد يحل بها السلام ، وقد يأتى منها الخراب ، ورحم الله آبانا آدم وقصته مع أمنا حواء ـ فلقد أخرجته من الجنة بمطلب ودمعة ، وفى قول آخر ضحكت عليه بدمعتين ـ ويقال انهما دمعتان صناعيتان .. لكن ليس ذلك هاما بقدر ما يهمنا أن نعرف انه ضعف أمامها ، فلم يستمع لكلمات ربه ، وسمع كلامها ، وأطاع رغبتها ، وخرج وخرجت وخرجنا والسلام. ولازالت الدموع متوارثةفى بنات أمنا الاولى حواء حتى يومنا هذا ، أو بعد يومنا هذا بملايين الايام .

والدموع ـ لا شك ـ رحمة ، ولقدأصابت رحمة الله الانثى دون الذكر ، فهيأ لها طريق الدموع ، ويسر لها سبيل البكاء .. فى حين أن الذكر منا قد خلق عصى الدمع ، « محبوس » الدم .. فان تمرد اوبكى قيل له « اكتم أمال . . خليك دكر » . .ولابد أن ينكتم ، وقد ينفجر .. وما انفجاره الا سكتة قلبية ، أو نزيفا فى مخه أو جلطة فى شريانه ، أو ضغطا فى دمه .. وكل هذه الامراض تظهر بين الذكور اكثر من ظهورها بين الاناث ـ كما سيتبين لنا ذلك فيما بعد .

ولقد كان الانسان هو المخلوق الوحيد الذى يستطيع أن يضحك ويبكى .. ولهذا عرف باسم « الضاحك الباكى » .. ولقد ظهرت فيه هذه الصفة نتيجة لتطور المراكز العليا للعاطفة فى مخه .. فاذا أثير الانسان ، ووقع فى ضنك عضوى ، واجهاد

نفسى ، فان ذلك ينشأ من سلسلة من الاحداث الكيميائية الحيوية التى تؤدى فى النهاية الى افراز هرمون الادرينالين من الغدة الكظرية أو الغدة فوق الكلى ، ثم صبه فى الدم ، ليقوم بعمليات فسيولوجية كثيرة من بينها احتقان الغدد الدمعية فى عيوننا ، فتسيل الدموع على خدودنا ، أو قد تندفع الدماء الى وجوهنا ، أو قد نجهش بالبكاء .. كل هذا يتوقف على نوع الضنك والاثارة التى يتعرض لها الانسان أو الحيوان .

لكن الحيوان اذا تعرض للاثارة ، فانه لا يبكى ولا يدمع ، ولا تندفع الدماء الى وجهه ، بل يقف شعره ، أو « ينتفش » ريشه (كما فى القطط والكلاب والطيور) ، والذى فعل ذلك هو هرمون الادرينالين العجيب . . وهو يفعل أيضا فى أجسامنا الكثير ومنها اثارة الدم والدمع والحض على البكاء ، فاذا بكى الانسان ارتاح ، ولهذا كانت الدمعة أو البكاء بمثابة صمام الامان الذى يريحنا من الازمات النفسية .. ولقد استخدمت الانثى ذلك الصمام أعظم استخدام بحيث أصبح من « التكتيكات » الهامة فى حياتها ، ولهذا أصابت بدمعتها عصفورين فى وقت واحد : عصفور ينفرج به كربها ، وتستريح أعصابها ، وتهدأ نفسها ، وعصفورها الثانى ذكر يضعف أمام دمعتها ، ويجيب لها مطالبها ـ تماما كما فعل من قبل الذكر آدم ، فعرفنا الحلال والحرام ، والفضيلة والرذيلة ، والقبح والجمال .. الخ ، اى اننا أدركنا كثيرا من المتناقضات بعقولنا المتطورة .

اذن فالدمعة أيضا سلاح ذو حدين : حد تذبح به الانثى ضنكها ، وتنفرج أزمتها ، وحد لتذبح به ذكرا ، أو تضعف ارادة رجل ، أو تستعدى ذكرا على ذكر ، أو تأخذ ما ليس لها بحق .. الى آخر هذه « التكنولوجيا » الدمعية التى قد تفعل أكثر مما تفعله الاسلحة الفتاكة .. ومع دلك فالانثى فتاكة بدموعها ، فتاكة بعيونها .. على شرط ان تكون ساحرة الطرف ، جميلة الوجه .. والا فلا !

والواقع أن الذكر ليس هاما فى حياة الانثى الا بقدر ما يجلب ، فان لم يفعل فعليه اللعنة ، أو ان شئتم تعبيرا أدق من عالمكم — عالم العقل والحكمة ، فعليكم بهذا القول العظيم المأثور عن عالم الحريم « الراجل عيبه جيبه » .. يعنى ان الذكر منا ليس مرغوبا فيه من أجل أنه رجل فقط ، ولكن بما يستطيع أن يقدم ، فاذا كان غير ذلك .. فالى الجحيم !

لكن مما لا شك فيه أن الانثى بها شيء من ذكاء ، وأن الذكر به بعض غباء ، ونسبة الذكاء والغباء فى الحقيقة متروكة لتقديرك ، وغباء الذكور عموما يقودهم رغما عنهم الى الدخول برؤوسهم راضين فى المصيدة ، وكأنما هناك طعم لذيذ فى « سنارة » ، وعندما « يشبك » الذكر فى الشص ، وتقع الفاس فى الرأس ، تراه يقول بمرارة أن هذا « شر لا بد منه » . أو هكذا أخبرنى من قضم الطعم وشبك فى السنارة ، ثم لا يستطيع منها فكاكا ، ولا من براثنها انطلاقا ، ولابد أن يدور فى فلكها وملكوتها الصغير ، فاذا أهمل أو تمرد أو اظهر العصيان ، وهرب من الميدان .. ميدانها ، فالى المحكمة .. فلقد حفظت للانثى هناك حقوقها .. فمن دخل راضيا سالما ، فانه فى أغلب الاحيان — لا نخرج غانما ، فليست الامور فوضى ، ولابد للذكر أن يتحمل المسئولية مع انثاه حتى نهايتها .. وليشارك بعبء محمود أو غير محمود .. لسنا ندرى !

ولا شك أن الحياة حكيمة ، والطبيعة ماكرة .. فلقد ضحكت علينا نحن معشر ذكور الانسان والحيوان ، وزودتنا بمادة كيميائية يطلقون عليها اسم « تستستيرون » ، وبهذه المادة العجيبة ينقلب كياننا راسا على عقب ، فتبدو الانثى امامنا وكأنما هى الفردوس المقيم ، فاذا دخلناه من بعد حرمان ، انتهى التأثير وضاعت المباهج ، وانطفأت الشعلة المتوقدة ،

ليكون من ورائها اجيال واجيال من سائر المخلوقات ، ومن هنا برزت الحكمة .. حكمة أن يعمر هذا الكوكب بطوفان دافق من سائر افراد البشر والحيوان !

ولولا هذا التستستيرون العجيب ، أو الهرمون الجنسى الفريد ، لما سعت الذكور الى اناثها ، ولا توددت اليها ، ولا دخلت فى شراكها ، ولا حدث الصراع والتنافس بينها لتفوز بها .. وتتضح لنا هذه الحقيقة تماما فى ذكور الانسان والحيوان قبل أن يبلغوا مبلغ الرجال أو قبل أن يحل هذا الهرمون فى اجسامهم كضيف عزيز ، ففى هذه الحالة يعيش الذكر الصغير مع الانثى الصغيرة ، دون أن يفكر أحدهما فى الاخر كما يفكر فى ذلك البالغون من الجنسين ، أو لو أننا أزلنا الغدد الجنسية من الذكور قبل سن البلوغ ، وتركناها حتى تبلغ ؛ فلن تظهر عليها أية مظاهر للرجولة ، بل سيصبح الفتى أقرب الى الفتاة صوتا وبشرة وسلوكا ، وفوق كل هذا يبدو له الجنس الاخر كشىء عادى لا يستحق الاهتمام أو الاثارة ، حتى ولو برزت امامه كل مفاتنه !

لكن أن يظهر هذا الهرمون فى الذكور ، ثم يسرى فى دمائهم .. فهذا أعظم « تكتيك أو تكنولوجيا » بيولوجية على درجة هائلة من الكفاءة والضحك على الذقون .. ذقوننا نحن معشر الذكور ، فما أن تظهر مفاتن الانثى امام أعيننا ، حتى يسيل لعابنا ، كما سال لعاب ابينا آدم من قديم الزمان ، فعصى امر ربه واتبع هوى حواء (وهوى كل حواء جاءت بعدها بطبيعة الحال) .. فهى بذكائها تعرف مكامن الضعف فينا ، ولا شك أن هذا الهرمون اللعين يلعب نفس اللعبة ، حتى نقع فى المصيدة .. يقول البعض انها مصيدة لذيذة ، والبعض الاخر يقول « يا ريت اللى جرى ما كان » .. ولا ندرى أيهما على حق فيما يفتى ويقول !

كأنما نحن معشر الرجال نجيء الى الحياة أول ما نجيء من المرأة لتحضننا بأمومتها وحنانها ونحن صغار ، ثم نترعرع ، ونصبح شبابا يتدفق قوة وحيوية وجنسا ، فاذا بها تحتوينا في أحضانها مرة أخرى ، وبطريقة أخرى ، وكأنما ندخل برؤوسنا في حلقة ضيقة نصبتها لنا الطبيعة على هيئة شباك سندسية ، وفي داخلها صيد لذيذ ، أو تكوين أنثوي بديع ، ليجذبنا كما يجذب « الطعم » في السنارة سمكة جائعة ، و كما يجذب الفخ بما حوى حيوانا ، فاذا بهذا السحر الانثوي أو « الطعام » اللذيذ الذي يتراقص أمام أعيننا على هيئة « وجبة جنسية » يسيل لها اللعاب .. اذ به جميعا يطير من الشباك بالزواج .. حقيقة علمية نفسية معروفة ـ فالحرمان من الاشياء هو الذي يجعلها مرغوبة (١) ، فاذا امتلكناها زهدنا فيها ـ ولولا تلك الروابط الاجتماعية المقدسة ، لتغيرت الامور ولتبدل الحال !

أن غرورنا نحن معشر الرجال بقوتنا ورجولتنا هو الذي يوحي الينا بأننا نحن الذين نصطاد ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، فالجوع الجنسي ، أو ذلك الهرمون السحري العجيب هو الذي يحركنا .. كما يحرك الذكور في عالم الحيوان ، وهو الدافع الاول الذي يدفعنا دفعا الى دخول هذا العش أو تلك المصيدة المنصوبة ، فاذا بنا نصبح صيدا ؛ ويسخر الصياد الحقيقي ـ المرأة ـ بما اصطاد ، ولهذا فكثيرا ما نسمع همسا من الصياد تلك العبارة المكررة « لقد أوقعته في حبالي من أول نظرة » .. وبعدها تسير على تلك الحكمة « الحوائية » ـ نسبة الى حواء ـ

---

(١) والرمز المستتر فى قصة آدم وحواء يشير أيضاً إلى أن الشجرة الوحيدة فى الجنة التى كانت لها جاذبية لا تقاوم من بين كل الأشجار ، هى الشجرة التى حرمت عليهما أن يقرباها .. وعندما كشفا عن سرها ضاعت مباهج الجنة وعاشا فى الواقع .

الشهيرة « قصقصى طيرك ، ليلوف بغيرك » .. والقصقصة تعنى هنا أشياء كثيرة تعرفها حواء ، وتحتفظ بها وكأنما هى أسرار عسكرية ، وتاكتيكات حربية لا يصح افشاؤها .. ولا حول ولا قوة الا بالله .

انا لست فى هذا ضد المراة ، فالمرأة ولا شك تستهوينى .. انها حقا فردوس رائع (البعض يفضلها جحيم مقيم) ، لكننى لا اريد أن امتلكه أو يمتلكنى ، حتى لا يزهد فى ، ولا ازهد فيه .. وليكن هذا الفردوس أمام عينى كطعم لذيذ فى سنارة ، أحيانا أقضم الطعم ، ولا أقرب السنارة .. نوع من الحرص ليس الا .. فاذا دخل الزواج من الباب ، طار الحب من الشباك .. أو اذا أردت تعبيرا أدق لقلنا : طار السحر والجنس والجمال من الشباك ، او هكذا أخبرنى من قضموا الطعم والسنارة ، « فشبكوا » فيها وكثير منهم نادمون كندم أبينا آدم .. أو هو « شر لابد منه » .. وكذلك يقولون !

لكن .. هكذا شاءت الحياة وقدرت من قديم الزمان ، وسالف العصر والأوان ، ليكون من وراء ذلك صفة الاستمرار فى الافراد والانواع ، وعلى جميع مستويات المخلوقات .. فحيث يذهب جيل ، يحل محله جيل جديد ؛ والمرأة أو الانثى عموما هى صانعة الاجيال .. وهى الاساس .. وهى الاثمن والابقى بالنسبة للحياة ، ولهذا فقد وهبتها من المكرمات والمزايا والصفات، ما يجعلها هى الجنس الاقوى ؛ ونحن الجنس الاضعف .. حتى ولو كره الرجال !

كيف ذلك يكون ، وقد قال الله فى كتابه العزيز « الرجال قوامون على النساء » ؟

هذا صحيح .. لكن عليك أن تكمل الآية .. تجدها تقول « بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما انفقوا من أموالهم » !

والتفضيـــل هنا متروك لتقديرك وتعمقك فى بواطن الأمور ..
لكن من وجهة نظر العلم نستطيع ان نقول ان المراة افضـــل واثمن بيولوجيـــا من الرجـــل !

وعلينا أن نترك هذه المقدمـــة « النكـــد أو الذكـــر » لنـــوضح وجهة نظرنا فى فصل وفصول آتيـــة ، ليتبين لنـــا أننا التعســـاء ، وهن المحظوظـــات !

دكتور عبد المحسن صالح
أستاذ الكائنات الدقيقة
كليـــة الهندسة . جامعة الاسكندريـــة

هن أطول عمراً من الرجال

لا شيء فى هذا العالم يساوي الحياة

فلو أن انسانا خير بين ماله وحياته .. لتخلى عن المال والجاه والسلطان وكل ما يملك لكى توهب له الحياة .. حتى ولو لبضع سنين تعد على أصابع اليد الواحدة !

ولقد نالت المرأة خاصة ، والانثى عامة هذه المكرمة .. اذ وهبتها الحياة من المهد الى اللحد حياة أطول من حياة الذكور !

الاحصائيات البيولوجية تؤكد هذه الحقيقة ، فحيث يكون متوسط عمر الرجل فى مصر ٥١٫٦ سنة ، نجد عمر المرأة يصل الى ٥٣٫٨ عاما .. وفى فنلندا ٦٣٫٤ عاما للذكور و ٦٩٫٨ عاما للاناث .. وفى انجلترا ٦٨ عاما للذكور و ٧٣٫٣ للاناث ، وفى الولايات المتحدة ٦٧ و ٧٣٫٦ عاما للذكور والاناث على الترتيب ، والشىء نفسه فى الاتحاد السوفييتى .. للمرأة من سنى الحياة ٧١٫٩ عاما ، وللرجل منها ٦٤٫٤ عاما ، وهكذا منحت المرأة فى جميع دول العالم عددا من سنى الحياة اطول من سنى الرجل .. عدا دولتين اثنتين : هما الجزائر وكمبوديا .. لنساء الجزائر من العمر فى المتوسط ٥٢٫١ عاما ، وللرجال ٥٤٫٣ عاما ، ولنساء كمبوديا ٤٣٫٣ عاما ولرجالها ٤٤٫٢ عاما .. وفى هاتين الدولتين شذوذ على القاعدة ، ولا حكم على الأمور الشاذة !

فماذا يعنى هذا بحق السماء ؟

قد يقفز هنا فصيح ويقول معللا دون الاستناد الى دليل مدروس : أن عمر الرجال أقصر ، لانهم معرضون لمسئوليات الحياة واخطارها أكبر .. وهم الذين تقع عليهم اعباء الحروب ، وتشييد الدول ، وبالاختصار فهم بناة الحياة ، وهم عمدها .. أما النساء فليس لهن من كل ذلك نصيب محمود ، ولهذا طالت أعمارهن أكثر من الرجال

وذلك ـ فى الواقع ـ استنتاج غير صحيح ، ومردود عليه باحصائيات علمية شتى .. فالنساء والرجال الذين يقومون بالاعمال نفسها ، أو حتى هؤلاء الذين لا يقومون بأعمال تذكر من كلا الجنسين . وفى الاعمار ذاتها ، نجد أن الحياة تتحيز للانثى وتمنحها عمرا أطول من عمر الرجال !

ولكى نوضح ذلك ، دعنا نقدم دراسة واحدة من هذه الدراسات .. فلقد قام الاب الراهب فرانسيس ماديجان بدراسة على متوسط اعمار الراهبات والرهبان ، وهؤلاء ـ بطبيعة حياتهم ـ متساوون فى سلوك الحياة ، ولقد تناولت الدراسة حوالى ٣٠ الف راهبة ، وأكثر من عشرة آلاف راهب ، ثم تقدم ببحثه هذا الى جامعة نورث كارولينا وفيه من الاحصائيات ما يؤكد أن متوسط عمر الانثى أكبر من متوسط عمر الذكر بحوالى ست سنوات

تتضح الحقيقة أكثر وأكثر عندما نتناول فرص الحياة بين الذكور والاناث فى بدايات حياة الانسان ، أي وهو لا يزال جنينا فى بطن أمه

يذكر دكتور آشلى مونتاجو فى كتابه « الوراثة والبشر » اشياء مثيرة واحصاءات غريبة عن الفرق بين الرجل والمراة من المهد حتى اللحد .. فعند مجيء الذرية الى الحياة نجد أن كل مائة مولود

انثى يقابله ١٠٥ مواليد ذكور . . وهذا يعنى ان عدد الذكور الذبن يفدون على هذا الكوكب أكثر من عدد الاناث الوافدات . . ومع ذلك فان الآية تنعكس عندما يصل هؤلاءوهؤلاء الى سنىالشيخوخة فمن سن الستين حتى الرابعة والستين نجد أن عدد النساء أكبر من عدد الرجال بحوالى ٢٣ ٪ .. وفى سن الخامسة والسبعين فما فوق ترتفع النسبة ويصبح عدد النساء أكبر من عدد الرجال مرتين .. اى أن كل حيتين منهما يقابلهما حى واحد منا !

لكن مأساتنا نحن معشر الذكور تتضح اكثر عندما تبدأ بدايتنا الحقيقية فى الحياة ؛ والبداية ليست من يوم الولادة ، ولكنها من يوم اخصاب بويضة بحيوان منوى ، ولهذا فان الصينيين هنا على حق عندما يضيفون اشهرا تسعة الى عمر المولود هى الفترةالتى يمكثها الجنين فى الرحم من يوم الاخصاب حتى الولادة .

المفروض أن تكون فرص مجىء الذكور والاناث الى الحياة فرصا متساوية .. بمعنى أن يكون عدد المواليد من البنات مساويا لعدد المواليد من الاولاد . . لكل منها نسبة ٥٠٪ . . فالذى يحدد نوع المولود هو الرجل لا المراة . . ذلك أن ٥٠٪ من حيواناتنا المنوية « حريمى » ، و ٥٠٪ منها رجالى . . اى أن تكويننا الوراثى نحن معشر الرجال ليس « رجالى » صرفا .. ففى كل خلية من خلايانا الجسدية « أشرطة » ميكروسكوبية دقيقة يطلقون عليه اسم « كروموسومات » .. والكروموسوم بمثابة خريطة كيميائية وراثية ، وفيه تتراص مواقع حيوية استراتيجية نعرفها باسم المورثات أو الجينات . . والمورثات هى خطة العمل التى تترجمها الخلية الى مخلوق أيا كان شكله وحجمه ونوعه وجنسه

لكن موضوع الكروموسومات والمورثات موضوع متشعب وطويل ، وهو يفرض هنا نفسه مادمنا قد ذكرنا أن جزءا من مكوناتنا الوراثية نحن معشر الذكور حريمى ، وجزءا آخر رجالى .. ولكى نوضح هذا الامر لغير المتخصصين — وهم غالبية عظمى —

يكفى أن نذكر باختصار أن فى كل خلية من خلايانا الجسدية نواة .. وفى النواة ٤٦ كروموسوما .. أو ٢٣ زوجا من الكروموسومات .. ٢٢ زوجا منها متشابهة ومكررة .. لكن الزوج الاخير — أى رقم ٢٣ يختلف عن الازواج الأخرى .. هذا الزوج من الكروموسومات يتكون من كروموسوم حريمى يسمونه « س » (أو اكس X) . وكروموسوم رجالى يسمونه ص (أو واى Y) .. فى غددنا الجنسية (الخصى) نحن معشر الذكور تنفصل الازواج بالتساوى ، ويرحل نصفها الى قطب الخلية الجنسية ، والنصف الاخر الى القطب الاخر ، ثم يقام بينهما جدار حى رقيق ، وبعد هذا ينفصلان ليصبحا حيوانين منويين .. حيوان منوى منهما يحمل الكروموسوم س (حريمى) ، والاخر يحمل الكروموسوم ص (رجالى) !

فى عملية الاخصاب ينساب من الرجل حوالى ٢٠٠ مليون حيوان منوى — ينقص هذا العدد أو يزيد على حسب فحولة كر وعمره وتكوينه الجسمانى — لكن ليس ذلك مهما الآن قدر ما يهمنا ان نعرف أن نصف الحيوانات المنوية فى السائل المنوى تحمل الكروموسوم س ، ونصفها الاخر يحمل الكروموسوم ص — فلو كان فى المقذوف ٢٠٠ مليون حيوان منوى ، نجد أن مائة مليون منها حريمى ، ومائة مليون رجالى !

ومن هذا يتضح أن فرصة المواليد الاناث كفرصة المواليد الذكور .. فاذا سبق الحيوان المنوى السينى ولقح البويضة ، كانت المولودة أنثى ، واذ سبق « ص » ودخل ، جاء المولود ذكرا .. وعلى حسب قوانين الاحتمالات ، وما دام نصف الحيوانات المنوية تحمل معها الصفات الوراثية الحريمى ، ونصفها الثانى يحمل الصفات الرجالى ، فانه من المتوقع أن يكون عدد حالات الاخصاب التى تؤدى الى مجىء بنات مساوية لعدد حالات الاخصاب التى تؤدى الى مجىء صبيان !

وقد يبرز هنا تساؤل : ولكن هناك حالات تلد فيها النساء ذكورا صرفا ، أو اناثا صرفا .. والجواب ان العلم لا ينظر الى الحالات الفردية ، ولو اتخذها مقياسا لكان ذلك مدعاة الى الخطأ ، ولكنه فى تحليله لأى أمر من الامور يرتكز على احصائيات تتناول قطاعات كبيرة من السكان ، أو حتى دولا بأكملها .. تماما كما يحدث فى الميزانيات والدخل والمنصرف وانتاج الثروات الزراعية والحيوانية والصناعية .. فدائما ما نذكر أن متوسط الدخل كذا جنيها ومتوسط محصول الفدان كذا أردبا أو قنطارا .. الخ

دعنا نعود الى تحليل موضوعنا الذى يهمنا لنقول : أن التقديرات الحسابية والرياضية توضح أن عمليات الاخصاب التى تتم ستؤدى الى تكوين أجنة من الذكور والاناث بالتساوى !

لكن الانثى قد لعبت بحساباتنا وتقديراتنا ، كما لعبت من قبل بعقولنا .. فالحيوان المنوى الذى يحمل الكروموسوم الرجالى أو الصادى يؤدى الى اخصاب أكثر (١) ، وسيقود ذلك حتما الى انتاج عدد من الذكور أكبر .. ولهذا تشير الاحصائيات البيولوجية الى أن عدد البويضات المخصبة التى ستؤدى الى مجىء مواليد من الذكور تقع فى حدود ١٢٠ ــ ١٥٠ بويضة ، يقابلها مائة بويضة مخصبة بالحيوان المنوى الحريمى لتأتى منها البنات

ولماذا كانت هذه التفرقة من البداية ؟

الواقع أن أحدا من العلماء لم يستطع أن يقدم تعليلا مقبولا

---

(١) يعتقد العلماء أن السبب فى ذلك يرجع إلى أن الحيوان المنوى ص . أخف قليلا من الحيوان المنوى س (الأنثوى) ، لهذا كان السينى أبطأ فى الحركة نسبياً من الصادى ، ولا بد والحال كذلك أن تكون فرصة الاخصاب بالذكرى أكبر ؛ وعلى أساس ذلك ، فإن فرصة تكوين أجنة من الذكور أكبر من نسبة تكوين أجنة من الإناث بنسبة تتراوح ما بين ٢٠ ــ ٥٠ ٪ .

لمثــل هذه الظاهرة الغريبـــة .. لكن ذلك سيتضح من مجريـــات الاحداث التى تنــم بعد الاخصاب ، وسيتبين لنا أن الجنين الذكر هو الأضعف من ناحية التكوين الوراثى ، ولابد أن يعـوض هــذا الضعف بزيادة فى عدد حالات الاخصاب ، لتصبح الأجنة الذكــور أكثر من الاجنـــة الاناث ، حتى اذا مــا تعــرضت الاولى لعوامـــل ومصائب ليست فى الحسبان ، فان عددها الزائد عن الاناث ، سوف يتوازن عند الولادة وما بعدهـــا !

ولكي نوضح ذلك بالارقام نقول : فى سجلات المواليـــد يتبين ان كل مائـــة مولـــودة انثى يقابهـــا ١٠٥ مواليـــد ذكـــور . . ولو قارنا هذين الرقمين مع عدد حالات الاخصاب التى ستـــؤدى الى صبيان وبنات ، لوجدنـــا أن عددا من الاجنة الذكور يتراوح ما بين ١٥ و ٤٥ جنينا قد اختصروا الطريق الى الحيـــاة الاخـــرة وهـــم لا يزالون فى الارحام .. ذلك أن عدد البويضـــات المخصبـــة التى ستؤدى الى ذكور يترواح ما بين ١٢٠ ـــ ١٥٠ حالة ، مقابـــل مائة بويضة فقط تؤدى الى اناث .. فأين ذهبت البقية ؟ .. الجواب : ماتت قبل أن تخرج الى الحياة .. لكن هذا لا يعنى أن كل الاجنة البناتي تعيش ، فلا شك أن هناك نسبة منها ستختصر الطريق الى الآخرة وهى لازالت فى الارحام .. لكن الاحصائيات تشـــير الى أن ما يموت من الاجنة الذكور أعلى من الاجنة البنات !

يؤكـــد مونتاجو ذلك فى كتابـــه فيقول « فى كـــل مرحلـــة من مراحل تكوين الجنين ، وفى كل مرحلة من مراحل الطفولـــة ، يكون معدل الوفيات فى الذكور أكبر من الاناث .. والشيء نفسه صحيح بالنسبة لمراحل العمر المختلفة » !

ثم يسوق بعد ذلك أرقامـــا ، فيذكر :

* أن ما يموت من الاجنة الذكور أعلى مما يموت من الاجنـــة الانـــاث بحوالى ٥٠ ٪ !

* فى الشهر الاول من عمر الطفل ترتفع معـدلات الوفيـات بين الذكور عنها فى الاناث بنسبة تصل الى ٤٠ ٪ !

* عندما يصل المواليـد الى مرحلة من العمر تقـدر بسنـة واحدة ، نجد أن ما مات من الذكور اكبر بحوالى ٣٣ ٪ مما مـات من الانـاث !

* ما بين سن الخامسة الى التاسعة من مراحـل الطفولـة ترتفع نسبة الوفيات بين الذكور عنها فى الانـاث ، فالذين يموتون فى هذه المرحلة من الذكور أكثر بنسبة ٤٤ ٪ من الاناث !

* ترتفع نسبة الوفيات مرة أخرى فيمـا بين سن العاشرة والرابعة عشرة ، ليصبح ما مات من الصبيان اكثر بحوالى ٧٠ ٪ مما مـات من البنات !

* ترتفع النسبة بشكل يدعو للفزع فيما بين سن ١٥ ــ ١٩ عامـا ، فتصبح نسبة عدد الضحايـا من الذكور ١٧٠ ٪ منهـا فى الانـاث ، ثم تنخفض النسبة قليلا الى ١٣٠ ٪ حتى سن الواحدة والعشرين !

* تنقص نسبة الوفيـات تدريجيـا بين الجنسـين حتي يحدث التوازن بينهما عند سن ٣٠ ــ ٣٤ عامـا ، وبعدهـا يقصف من أعمار الرجـال أكثر مما يقصف من أعمار النساء .. وفى نهايـة رحلة الحياة يزيد عدد الحيـات عن عـدد الأحيـاء بضعفين .. واحد منا لكل اثنتين منهن .. ويـا قلب لا تحـزن ، فهن أهـم منـا واثمن !

هل يعنى هذا أن الحياة تتحيـز للانثى ، وتحافظ عليهـا ، فى حين أنها تضحى بنسبة معينة من الذكور ؟ .. وما هو السر الكامن فى ذلك ؟ .

الاناث بلا شك اغلى وارفع منزلة من الذكور .
الحقيقة ستضح لنا اكثر فى عالم الحيوان والنبات
نتعرض لذلك فيما بعد .

ان موت الذكور من البشر بهذه النسبة المحزنة
تدق لها الحياة طبول الخطر ، ولكن الكارثة الحقيقي
الاناث ، خصوصا عندما كانت الحياة تشق طريقها با
العصور البالغة القدم .. فلكى يترعرع النوع الانس
اعداده من بعد اضمحلال ، كان اعتماد الحياة على
من اعتمادها على الذكور .. فذكرواحديكفى لقبيلةمن ال
بقاء انثى واحدة يشكل أمام الحياة مشكلة خطيرة
ولو كثر الذكور ! .

ولكى نوضح ذلك لابد أن نشير الى أن غريزة ا
المسئولة عن استمرار الحياة ، ولهذا فهى اهم من غريزة
صحيح أن الغريزتين هامتان وأساسيتان لاستمرار الطو
لكن غريزة الطعام فيها استمرار لحياة الأفراد ، وغري
فيها استمرار للانواع ، والنوع بالنسبة للطبيعة أهم بيوا
الفرد .. فالفرد قد يموت ، ولابد أن يظهر غيره عن طري
لكن أن يموت النوع ، فان ذلك يعنى انقراض كل أفراد
الكوكب .. والمسئول الأول عن انتاج « بضاعة » الحياة
الجنس التى أصبحت بمثابة العملة البيولوجية المتداو
انواع الخلق .

أن الجنس بالنسبة للانثى بداية ـ أعظم بداية ، وب
نحن معشر الذكور نهاية .. أبسط نهاية .. !

يعنى ان عملية الاتصال الجنسى لا تعمر الا
تعد على أصابع اليد الواحدة ، أو اذا أردت ،
أصابع اليدين والرجلين .. ولقد كان هدف الذكو

اساسا أن تحصل على لـذة عارمة ودت انها تدوم ، لكن ليس هذا هو هدف الحياة ، بل اتخذت من اللذة وسيلة فعالة لكى يقذف الذكر بالملايين من خلاياه الجنسية ليحدث التلقيح ، وهذا ــ فى الواقع ــ هو الهدف الحقيقى الهام .. وكأنما الطبيعة قد ضحكت علينا ضحكة أزلية ، وصورت لنا الجنس الآخر كجنة نتغنى بجمالها وسحرها وحبهـا .. وما اكثر الاغانى والآهات وكلمات الغرام والهيام التى نسمعها ليل نهار ، وكأنما هذا الكـوكب قـد خلق لذلك ، وهو فعلا كذلك ، فالنتيجة الوحيدة لذلك أن يحصل المحب على من يحب أو لا يحصل ، فاذا بالحب يتحول الى عيـال ومسئوليات جســام ، وهكذا تأتى الأجيال ، وتسـتمر الحياة بمخلوقاتها .

وعندما ينتهى الذكر من لذته بعد دقائق ثم يخمد وينام ، نرى البداية العظيمة لهذا التاكتيك الهرمونى الجنسى وهى تبدأ فى الانثى بعد أن يحدث الاخصاب ، وعندئذ تنقسم البويضـة الملقحة الى عشرات ومئات وآلاف الملايين من الخلايا التى تتشكل فى جنين لن يأتى الى الحياة الا اذا عاشت من تحمله فى بطنها على الاقـل أشهر تسعة ، ومن هنا كانت حياتها اهم من حياة الذكر .

بمعنى آخر نقول : ان دور الرجل فى انجاب الذرية لا يستغرق وقتا مذكورا ، فى حين أن الدور الرئيسى يقع على عاتق المرأة ، ولا بد أن تحافظ الحياة عليها غالبا حتى تضع مولودها ، ثم لا بد أن تقف بجوارها لترضعه وتحميه وتحتضنه لسنوات قادمـة .. وموتها فى هذه الفترة سيكون كارثة على الحياة ، لكن أن يموت الذكر بعد عمليات الاخصاب ، فلن يقدم ولن يؤخر ، وتتضـح هذه الحقيقة اكثر فى عالم الحيوان ، فمعظم ذكورها تقوم بتلقيحها ثم تذهب الى حال سبيلها ، وعلى الانثى تقع كل المسـئولية ، اذ لابد أن تسعى لاطعام نفسها واطعام ما فى بطنها من دمها ، وبعد الولادة ترعاها وترضعها وتقف بجوارها حتى يعتمد أولادها على

أنفسهم ، ويذهبون الى حال سبيلهم ، والذكر عن كل ذلك لاه عن رسالة كبرى حملتها الانثى ، وبها شقت طريقها .

ولو فرضنا أن هذا الذكر كان الوحيد فى قبيلة من النساء ، فانه يستطيع أن يقوم باخصابهن جميعا فى شهور قليلة ، ولو مات بعد هذه الشهور فلن تحدث المأساة ، ذلك أن الذرية القادمة من هؤلاء النساء ستؤدى الى جيل جديد من الاولاد والبنات ، وعندما يبلغون ، فسوف يتناكحون ويتناسلون ، وبهذا تستمر الحياة ، لكن أن تكون هناك امرأة وحيدة بين قبيلة من الرجال ، فليس لهؤلاء الذكور من فائدة ، ولاشك أن الانثى هنا بالنسبة لاستمرار الحياة — اغلى بكثير من كل الذكور اذ لو ماتت بعد التلقيح أو قبل الولادة ، لتوقفت الحياة فى القبيلة ، ولانقرضت من الوجود .

طبيعى أن ذلك لا يحدث الآن ، فلقد طفح الكيل من كثرة الذرية والتناسل ، لكن أهمية الانثى قد بزغت منذ بزوغ النوع الانسانى فى فجر التاريخ .. ولكى تكثر الذرية — أى نوع تشاء من أى مخلوق تشاء — كان لابد من الاعتماد على الانثى أولا ، ثم يأتى الذكر فى المرتبة الثانية .. ومن اجل هذا فقد ضحت الحياة بذكورها ، وحافظت على اناثها .. ويكفى أن نشير هنا مثلا الى تلك القصة الرمزية أو الحقيقية التى سجلها قدماء المصريين على قبورهم ، فلقد خرج جميع الشبان والرجال الى الحرب ، وغابوا لعدة سنوات عن نسائهم ، ولم يعد منهم الا عدد جد قليل ، وكانت دهشتهم بالغة عندما وجدوا أن انتاج الذرية لم يتوقف فى النساء ، رغم غياب الرجال ، فلقد كان هناك رجل لا يصلح للحرب ولهذا تركوه وراءهم ، فاذا به يخصب معظم الاناث ، فأعاد للدولة مجدها من بعد اضمحلال فى عدد الذرية ، وهكذا يتبين لنا أن من لا يصلح فى الابادة والقتل والحرب ، يصلح فى أمور أخرى تقوم عليها اعمدة الحياة .. ليكون استمرار الاجيال .

لكن ليس ذلك كل ما فى الموضوع .. فلا زالت للقصة بقية .

فمن الحقائق المعروفة أن الفترة الخصيبة فى المرأة أقصر من الرجل ــ فحيث تبدأ فى الجنسين عند سن ١٤ ــ ١٦ عاما فى المتوسط عند البلوغ ، نراها تمتد فى المرأة الى سن الخمسين فى المتوسط .. حيث ينقطع الطمث الشهرى ، وهذا يعنى أن المبيضين قد توقفا عن افراز البويضات لاصابتهما بالشيخوخة المبكرة نسبيا ، وفى ذلك دليل على أن المرأة قد أحيلت الى « المعاش» اخصابيا ، مع أنها لازالت تمارس كل حقوقها فى الحياة بما فى ذلك الجنس طبعا ، ولكن بدون ذرية ! .

والواقع أن ذلك ليس حال الذكور . . اذ قد تمتد فترة الاخصاب فينا الى أكثر من ٦٠ عاما .. وهذا يعنى أن الذكر منا قد يحال الى المعاش وظيفيا ، ولكن يبقى خصيبا بعد هذه السن جنسيا .. فهناك حالات من الرجال المسنين جدا (ربما فى الثمانين أو أكثر) قد تزوجوا من نساء صغيرات نسبيا ، واستطاعوا أن ينجبوا منهن ذرية فى هذه السن المتأخرة .. وبمعنى آخر نقول : ان الفترة الخصيبة فينا نحن معشر الذكور قد تمتد الى ٦٠ أو ٧٠ عاما ، فى حين أنها فى النساء قد لا تزيد عن ٣٥ عاما ! .

وهذا أيضا كان فى صالح الجنس البشرى عند بداية ظهوره على هذا الكوكب .. فلقد كانت النساء وقتها تلوذ بالكهوف ، ولا يتعرضن بذلك للاخطار التى يتعرض لها الرجال الذين يخرجون للقنص والصيد بطرق بدائية ، فلا تنفعهم عضلاتهم أمام الوحوش المفترسة ، وكانوا ينقرضون واحدا بعد الآخر ، ولا شك أن وجود بعض المسنين فى القبائل البدائية القديمة مع النساء الشابات كان بمثابة تعويض لما يضيع ويموت من الشباب والرجال ، والمسن يستطيع أن ينجب ذرية من امرأة أو شابة مات زوجها .. فلا زالت غدده الجنسية صالحة لافراز حيوانات منوية خصيبة ،

حتى ولو امتد به العمر .. فمن مفارقات الحياة الغريبة أن كل خلايانا الجسدية يحل بها الضعف ، وتزحف عليها الشيخوخة كلما تقدم بنا السن ، ولكننا لا نرى ذلك فى الخلايا الجنسية .. فهى دائما أبدا تمتاز بالحيوية والنشاط حتى ولو كان الذى أفرزها قد وصل الى أرذل العمر .

ويذكر بعض العلماء ان المراة فى العصور القديمة جدا كانت تختلف عن المراة فى العصور الحديثة .. فمنذ مائة الف عام تقريبا كانت الانثى تتميز بفترات اخصاب أطول ، بمعنى انها كانت تستطيع أن تنجب اطفالا وهى فوق سن الخمسين أو الستين، وفى ذلك تعويض عن عددهن القليل جدا فى بداية نشوء النوع الانسانى .. فلكى تكثر الذرية وتنتشر ، كان لابد من الاعتماد أساسا على المراة .. وعندما اشتد عضد النوع الانسانى ونشا وترعرع وبدأ ينتشر على الأرض ، بدات الفترات الخصيبة للمراة تتناقص تدريجيا بمرور عشرات الالوف من السنين .. وربما كانت هناك علاقة بين عدد سكان الارض من البشر وبين الفترات الخصيبة للنساء .. فكلما زاد تكدس السكان ، تناقص لديهن معدل الاخصاب .. لكن ذلك لا يظهر بوضوح فى الانسان ، ولا نستطيع أن نلحظه فى فترات تقدر بالوف السنين .. كما اننا لا نستطيع أن نجرى التجارب المعملية على النساء والفتيات لسبب بسيط .. ذلك انهن لسن بحيوانات تجارب ، ولكن التجارب التى أجراها العلماء على اناث الحيوان تؤكد هذه الحقيقة الغريبة .. ولنذكر هنا تجربة واحدة اجريت على « حريم » الفئران ! .

عندما تتكدس اناث الفئران فى أقفاص لفترات طويلة ، تظهر عليها العصبية وتوتر الامزجة ، وهذا بدوره ينعكس على درجات اخصابها .. فأحيانا ما تصاب بعقم كاذب ، وأحيانا أخرى لا ترغب فى الجنس ، وقد يحدث لديها اجهاض ، وقد تتكاسل مبايضها عن افراز البويضات .. الخ ، المهم فى الموضوع ان اناث

الفئران المزدحمة فى اقفاصها أو جحورها تحدد نسلها بطريقة طبيعية .. لكن المسئول عن ذلك مادة كيميائية خاصة اسمها « فيرومون » ، وهذه تنتشر منها كما تنتشر العطور من نسائنا ، وكلما زادت أعداد اناث الفئران ، كلما زاد تركيز الفيرومون .. وهذا بدوره يؤثر تأثيرا فعالا على اخصاب الفأرة ، ويصيبها بالعقم الموقت ، وربما يؤدى ذلك الى اختصار فترة حياتها الخصيبة ، وكأنما الفئران قد حلت مشاكلها ، وتغلبت على تحديد نسلها قبل أن يظهر البشر على هذا الكوكب بعشرات الملايين من السنين .

الى هنا يبرز سؤال هام : هل سيؤدى ازدحام البشر على هذا الكوكب الى اختصار الفترات الخصيبة لنسائنا اكثر واكثر ؟

ربما يحدث ذلك ، وربما لا يحدث .. فعلم ذلك عند ربى ، فالامر يحتاج الى الوف من السنين قادمة !

واذا كانت الاحصائيات البيولوجية تؤكد أن المرأة أطول عمرا من الرجل لاسباب سنوردها فى حينها ، الا أن هذه الحقيقة تتأكد اكثر اذا نظرنا الى طوفان الحياة ككل ، بداية من الميكروب الى النبات الى الحشرة الى الضفدعة الى الطير الى كل ما يدب على هذا الكوكب من مخلوقات شتى .. بما فى ذلك الانسان .

ونحن لا نستطيع أن نتعرض هنا لكل الوسائل والأساليب التى سارت عليها الحياة لتضع فيها مخلوقاتها تحت اختبارات قاسية لتنتقى الصالح الصامد ، وتقضى على الطالح المتواكل .. الا أن قسوة الحياة قد انصبت أساسا على ذكورها .. وكأنما هى تقدم الذكر قربانا للانثى بوسائل شتى ، ومن أجل هذا نقصت أعداد الذكور ، وزادت الاناث .. أو لو وضعنا ذلك فى احصائية علمية ، لتبين لنا أن الانثى فى عالم النبات والحيوان أطول عمرا من الذكر .. ربما بأضعاف مضاعفة .

الى فصل قادم اذن ، لنعرض مأساتنا نحن معشر الذكور .

الأنثى أولا .. من فضلك !

الحياة لا تهتم كثيرا بالذكر قدر اهتمامها بالانثى !

حقيقة يعرفها العلماء جيدا من خلال دراساتهم الطويلة من بداية الخلق حتى نهايته . . تعنى من الميكروب والأميبا ، الى الشمبانزى والانسان .

وكثيرا ما أسقطت الطبيعة الذكر من حسابها ، وأحيانا ما قدمته لنا بصورة ممسوخة تدعو الى الازدراء والاحتقار . . وكأنما هى تؤكد أن الانثى هى الاساس ، وانها هى التى نشأت أولا ، ومنها اشتق الذكر بعد ذلك وظهر !

ولو تعمقنا فى جوهر الحياة ، وأسس البيولوجيا لوجدنا أن المخلوقات جميعا ليست الا بمثابة مواعين حية لتحتفظ بسر خلود النوع وانتشاره فى الزمان والمكان .. والماعون أو الكائن الحى يأتى الى الحياة ضعيفا ، ثم يقوى ويشتد عوده ، ولابد أن يستهلك بعد ذلك ويبلى ويموت . . يستثنى من ذلك الخلايا الجنسية . . فهى دائما تترك مواعينها الفانيةلتتقابل فى عمليات النكاح أو التزاوج أو التلقيح ، وبعدها تندمج ليأتى من ورائها مواعين او مخلوقات جديدة . . وهكذا تظهر اجيال ، وتروح اخرى !

لكن الماعون الاساسى للحياة يتركز فى الأنثى .. فهى التى تستقبل الخلايا الجنسية الذكرية ، وهى المسئولة عن تنشئة الأجنة وحملها وولادتها ورضاعتها ورعايتها ، ولهذا كانت اهم بيولوجيا من الذكر !

وقد يبدو لنا الذكر احيانا وكأنما هو ليس الا أداة حية من أدوات التلقيح ، وبعد أن يؤدى رسالته نحو الحياة ، فلا فائدة من وجوده بعد ذلك ، وقد يتحلل ويموت ، فى حين أن الانثى تبدأ حياتها الحقيقية بعد موت الذكر .

ولقد قدمت لنا الطبيعة أمثلة كثيرة ، وكأنما هى تضع النقط فوق الحروف ، وكأنما لسان حالها يقول : فلنشطب الذكر من سجلات الحياة ، ولنبرز الاناث ، ولنهىء لها السبيل فى انتاج ذرية من وراء ذرية دون أن يشارك فيها الذكر بخلية من خلاياه الجنسية ، وكيف يشارك وهو ليس موجودا أساسا فى هذا العالم الغريب الذى ينطوى على مجتمعات كلها حريم فى حريم ؟!

نعم .. أن الانثى تستطيع أن تحمل وترزق بذرية دون أن يمسها ذكر .. أى انها تتوالد عذريا .. بمعنى انها تنجب وهى عذراء ! . ومن هنا أطلق العلماء على مثل هذه الحالات اسم « التوالد العذرى » .. Parthenogenesis (وهذه الكلمة من شقين يونانيين « بارثينوس » بمعنى عذراء وجينيسيس بمعنى توالد .. وهناك معبد البارثينون اى معبد العذارى فى أثينا القديمة .. وقد انشىء فى القرن الخامس قبل الميلاد) !

والتوالد العذرى واسع الانتشار فى رتب كثيرة من مملكة الحيوان ، وخصوصا فى الحيوانات الدنيا مثل براغيث الماء (الدافنيا والسيكلوبس Daphnia & Cyclops) ، وبعض أنواع من الديدان والحشرات مثل المن والتربس والنمل والنحل والدبابير .. الخ ، لكن هذا موضوع متشعب وطويل ، ولا يهمنا منه الا أن نعرف أن للذكر دورا ثانويا مع الانثى ، أو قد لا يكون له دور على الاطلاق !

فمنذ اكثر من قرنين وربع قرن من الزمان ، وبالتحديد فى عام ١٧٤٠ ، اكتشف هذه الظاهرة المثيرة شاب سويسرى — لم

يتجاوز العشرين من عمره ـ يدعى تشارلز بونيه .. فلقد أخذ انثى من اناث المن الحديثة الولادة وعزلها عن كل ما حولها من أبناء أو بنات جنسها ، وبعد عشرة أيام اكتشف ـ لدهشته ـ أن الانثى قد ولدت « طفلا » .. وفى غضون الواحد والعشرين يوما التى تبعت ذلك وضعت الانثى نفسها أكثر من ٩٥ من ذريتها وكتب يصف مولدها « وكلها جاءت حية ، وظهرت الى الوجود امام عينى التى فى رأسى » !

ولقد أثار هذا الاكتشاف نوعا من النقاش والامتعاض وعدم التصديق .. فالأجيال لا تأتى ـ كما هو دائما معروف ـ الا اذا اجتمع ذكر بأنثى .. دودة كان ذلك أو حشرة أو سمكة أو فأرا وارنبا وكلبا وخنزيرا وثعبانا وانسانا .. الخ ، لكن بونيه استمر فى بحوثه ، واستطاع ان يتوصل الى انتاج عشرة أجيال متتابعة دون أن تحدث بينها عملية تلقيح واحدة ، وهنا يقول بونيه « من الصعب حقا أن نبلع هذه الحقيقة .. حقيقة أن هذا الخلف قد تم تلقيحه من أجداد أجداد سلفه » ! .. وهو يعنى بذلك أن الذكر لم يكن موجودا أساسا فى الذرية ومن بدايتها !

والواقع أن الاناث قد تتعطف وتنتج بعض الذكور بطريقة التوالد العذرى ، لكن ذلك يحدث بتوقيت معلوم .. ففى فصلى الربيع والصيف تتوالد الاناث عذريا ، لتعطى أجيالا كلها اناث فى اناث .. ودون أن يظهر بينها مخلوق ذكرى واحد .. واخيرا ـ وبحلول فصل الخريف ـ تنتج ذرية من الاناث والذكور ، ويحدث التزاوج بين هذه وتلك ، وبعدها تضع الاناث بويضاتها على اغصان النبات وبراعمها وتبقى البويضات نائمة حتى حلول الربيع لتفقس وتنتج اناثا تعرف باسم ـ المؤسسة ـ اى التى تؤسس المستعمرات الجديدة بمزيد من الاجيال ، وبعدها تعود الامور سيرتها الاولى .. أى انها تلد أجيالا متتابعة من ذرية كلها اناث فى اناث !

وهذا يعنى أن الاناث لا تضع ذكورها الا اذا حلت بها الازمات، وقست عليها الظروف الطبيعية والجوية .. ففى أواخر الخريف ومع مقدم الشتاء ، تجف النباتات وتتساقط الاوراق ، وتحل البرودة ، وتنهمر الامطار ، ولن تتخطى الاناث هذه الازمة الا بانتاج الذكور ، لتتزاوج معها ، وتضع بويضاتها ، وفيها تكمن الاجنة وتنام فى « لفتها » الطبيعية لتصحو مع مقدم الربيع على هيئة اناث تلد أجنة ولا تضع بيضا .. فالبيض لا يأتى الا بالذكور .

وقد تستغنى الاناث كلية عن الذكور لأجيال طويلة متعاقبة اذا ما هيأنا لها الظروف المناسبة ، أو قد نجعلها تسرع بانتاج الذكور اذا ما عرضناها لظروف قاسية .. مثل البرودة أو الجفاف أو الظلام أو بعض مواد كيميائية خاصة « تقرفها » ، ومن هذا « القرف » الصناعى تنتج الذكور .. صفعة جديدة لنا نحن معشر الذكور !

وتعنى هذه الامور أكثر أن الذكر فى تلك المخلوقات هو ابن امه ، لا ابن أبيه .. فليس له أب بالمعنى المتوارث فى العقول .. وهذا يؤكد أن الانثى هى الاصل ، وهى الاساس ، وأن الذكر مشتق منها تحت ظروف سيئة ، وأحوال غير مواتية !

تتضح هذه الحقيقة أكثر فى ممالك النمل والنحل .. فالملكة الخصيبة تضع بويضات ملقحة وغير ملقحة .. الملقحة منها تنتج ملكات وشغالة (يتوقف ذلك على نوع الغذاء) .. وغير الملقحة تنتج ذكورا .. أى أن الذكر هنا ابن امه بالتأكيد ، اما الانثى (الملكة والشغالة) فهى « بنت » أبيها وأمها على السواء (بويضة من الانثى تخصب بحيوان منوى من الذكر) .. اضف الى ذلك دليلا قويا نحصل عليه من حالة ملكة عذراء لم يمسها ذكر ، وعندئذ تضع بويضات لا تنتج الا ذكورا .. كما أن الملكة فى أخريات أيامها لا تنتج الا ذرية من الذكور ، والتعليل الوحيد لذ

هذه الظاهرة أن الملكة قد استنفدت كل ما لديها من أرصدة الحيوانات المنوية التى حصلت عليها من الذكور .. وعندئذ تضع بويضات غير مخصبة ، لتعطى ذكورا ..

ومع ذلك فهناك أنواع قليلة من الحشرات لا تعرف عن انتاج الذكور شيئا مذكورا .. من ذلك مثلا الحشرة المعروفة باسم العصا أو الغصن الجاف Stick Insect .. فعندما تقف الانثى على نبات جاف ، يصعب تمييزها بالنظرة العابرة ولقد قام العلماء بتربية نوع من الانواع فى معاملهم . وحصلوا منها على مئات الالوف من الاناث التى جاءت فى أجيال متتابعة ، ونادرا ما كانوا يحصلون على ذكر ، وحتى فى هذه الحالات القليلة التى ظهر فيها شبح الذكر ، لم يكن له من فائدة تذكر ، فلا هو يستطيع أن يقوم بعمليات التلقيح ، ولا هو أساسا يمتلك أعضاء جنسية خصيبة .. والظن السائد أن « أشباه » الذكور هذه ليست الاناثا « مسخوطة » على هيئة ذكرية .. ولا فائدة فيها ولا مأرب ! .. وهذا يعنى أن النوع يستطيع أن يشق طريقه فى الحياة لملايين السنين دون ما حاجة الى ذكر !

لكن دعنا من كل ذلك ، لنطرح سؤالا هاما : هل من الممكن أن تظهر حالات التوالد العذرى فى الحيوانات العليا ومنها الانسان ؟

الواقع أن الاجابة على هذا السؤال قد يطول شرحها ، وليس هذا مجالها ، ولكن يكفى أن نذكر باختصار بضع حالات غريبة ذكرتها المراجع العلمية .. ولنبدأ بحالة أنثى الديك الرومى (أو الرومية اذا أردت) ، فهذه تستطيع أن تنتج بعض الكتاكيت الرومى دون أن يتدخل الذكر أو الديك فى ذلك !

لقد أوضح لنا العالمان أولسين ومارسدين أن نسبة صغيرة من البيض غير المخصب للفراخ الرومى بامكانها أن تفقس وتنتج

كتاكيت تواصل الحيـاة ، ثـم تبعا ذلك بعدة تجارب عزلا فيهـا عددا من الاناث الصغار عن الذكور ، وبوقت كاف قبل سن البلوغ، وعندما بلغت الاناث التى لم يمسسها ذكر ، وضعت بيضها غـير المخصب ، وتبين بالفحص انـه يحتوى على آثـار أجنة دقيقـة ، وأن ٢٧ من ٢٧٨ بيضة موضوعـة فى حضانـة بدأت بالفعـل فى تكوين اجنة عاديـة أو شبه عاديـة ، ولكنها لـم تستطع أن تكمل المشوار وتفقس ، ومع ذلك فقد تخطى جنينان من آلاف الاجنـة كل العقبات ، وظهرا الى الوجود على هيئة كتكوتين ، ثـم واصـلا نموهما الى أن صارا ديكين يافعين يتمتعان بالحياة كما تتمتع بهـا الديوك الاخرى المنسبة الى آبـاء ، مع فـرق واحـد ، ذلك إن الديكين اللذين ظهرا الى الوجود بدون أب كانـا أصغر قليـلا من الديـوك المنسبة الى آبائهـا !

وجذبت هذه الظاهرة الغريبة انتبـاه العلمـاء المهتمين بمثـل هذه الامور ، وبـدأوا فى اجـراء سلسلـة هائلـة من التجـارب الهادفـة ، وتوصلوا الى حقائق مثيرة .. من ذلك مثلا أن نسبـة التوالـد العذرى فى البيض الذى وضعتـه فراخ رومية معزولـة عن ديوكهـا جنسيـا تزيـد لوأنهـا سمعت كركـرة ذكرهـا ، ويبدو أن صوت الذكر يثير فيها اليـه حنينـا وقد يؤثـر ذلك على مراكزهـا العصبيـة ، وقد تتأثـر الغدد تبعا لذلك ، فتجـرى فى دمائهـا هرمونات شتى ، قد تحدث تغييرا فى كيمياء البيض ، وبهذا تزيد فيه نسبة التوالد العذرى !

وفى السنة الماضية فقط أعلن كل من دكتور ادوارد باس ، م . أولسين من جامعـة بنسلفانيـا بالولايات المتحـدة الامريكيـة أن هناك عاملا خارجيـا قد بـدأ فى التدخل فى اخصاب بيض الفـراخ الرومى اخصابـا كاذبـا ، ومع ذلك فـان الاخصاب الكـاذب أو التوالـد العذرى يـؤدى الى انتـاج أجنـة وكتاكيت تنمـو نمـوا عاديا حتى سن البلوغ .. لكن ما هـو ذلك العامل الخارجى ؟

ليس بالتأكيد حيوانا منويا ، بل قد يكون فيروسا .. ولقد عرفنا الفيروس فى أمراض كثيرة تصيب النبات والحيوان والانسان .. فمن شلل اطفال الى التهاب فى المخ الى حصبة الى تيفوس الى انفلونزا الى ربما سرطان .. الخ ، وفى حالة الخلايا السرطانية يحدث شيء غريب ، فالخلية العاقلة لا تنقسم الا بحساب، ولا تتكاثر الا بمقدار ، لكن احيانا قد يحل بها الجنون ، فتنقسم دون ما داع الى هذا الانقسام ، وتخرج بذلك على المجتمع الخلوى الذى فيه تعيش ، ولا تزال تنقسم وتنقسم حتى تنتج ملايين وبلايين الخلايا التى تظهر فى النهاية على هيئة ورم سرطانى مدمر .. ولقد اختلفت الآراء حول الاسباب الكامنة من وراء هذا الانقسام الغريب .. فمن قائل انها عوامل وراثية ، ومن قائل انها مواد كيميائية ، ومن قائل انها جرعات اشعاعية ، ومن قائل انها فيروسات .. الخ

والبويضة فى الطيور أو فى الحيوانات الثديية لا تنقسم الا اذا اندمج معها حيوان منوى وخصبها ، لكن أن تنقسم هكذا دون أن يأتيها نصفها الآخر ، فان ذلك يجعلنا ننظر اليها كما ننظر الى خلية سرطانية حل بها الجنون بعامل من العوامل التى ذكرناها او التى لم نذكرها .. لكن جنونها — على أية حال — لن يكون خطرا ، وسوف يؤدى الى تكوين جنين طبيعى أو ممسوخ

لكن يبدو أن اصابة البويضة بفيروس أو غيره قد يغنيها عن وجود الذكر أو وجود الحيوانات المنوية التى تفرزها الذكور لتخصبها ، ويقوم العالمان المذكوران بالبحث عن سر هذه الظاهرة — ظاهرة التوالد العذرى بين الطيور ، وعلى الاخص بين الفراخ الرومى ، فاذا ثبت أن انقسام البويضة من ورائه فيروس ، واذا ثبت أيضا أن هذا الانقسام يؤدى الى تكوين جنين كامل فكتكوت .. اذا ثبت هذا بالفعل ، فان ذلك سيكون بمثابة صفعة هائلة على قفا الذكور — نقصد الديوك الرومى .. وربما

صفعات أخرى تتقبلهـا الـذكور التى تنتمى الى انـواع أرقى فى التطور من الديوك الرومى !

والواقع أن ظاهرة التوالد العذرى تختفى تدريجيـا كلمـا اكتسب المخلوق أو النوع أجهزة أعقـد ، ومخا اكبـر ، ووظائف فسيولوجية أكثر تباينا من المخلوقات الدنيا .. فهى فى براغيث الماء والحشرات عاديـة ، وفى الاسمـاك محتملـة ، وفى البرمائيـات (كالضفادع) أقـل ، وفى الطيـور أقل وأقل ، وفى الحيوانـات الثديية نادرة ، وفى القرود والانسـان أكثـر من نـادرة أو قـد لا توجد على الاطـلاق !

هل هناك اذن سخرية أكثر من استغناء البويضة عن حيوانها المنوى ، واستغناء الانثى عن ذكرها ، ليحدث الاخصـاب بعامـل خارجى قد يكون فيروسـا لا نستطيـع ان نـراه ـ لضآلتـه ـ الا بالميكروسكوب الاليكترونى ؟ .. وهـل يمكن أن يـكون مقـام الذكـر « العظيـم » من مقام فيروس حقير ضئيل ليس من ورائـه الا المرض والموت والخراب ؟ .. وكيف يصل الهوان بالذكـر الى هذا الحـد ؟ .. لسنا فى الواقع ندرى ، ولا نستطيـع أن نجيب الا كما يجيب رجل الدين الذى يقف على المنبر ويردد بوعى أو بدون وعى قوله المشهور « اللهم هذا حالنا لا يخفى عليك ، وهذا ضعفنا ظاهر بين يديك ، فعاملنا بالاحسـان .. اذ الفضـل منك واليك » .. وهـو لا يدرى أن دعاءه هذا قد يذهب فى الهواء لاننا لو احسنا الى انفسنا ، لأحسن الله الينـا .. فالله يحب الاقويـاء .

وايا كانت الامور ، فبالامكان حث البويضات فى الانواع المختلفة على التكاثر والانقسام وتكوين الانسجة والأعضاء ثم الجنين المتكامل دون أن يكون للذكر أو خلاياه الجنسية دخل فى ذلك .. وطـرق الحث كثيرة ومتنوعـة .. فقد تكون طبيعية مثـل رفـع درجـة الحرارة (صدمة حراريـة توقظها من سباتها) أو انتزاع نسبـة من محتواهـا المـائى (تجفيف نسبى) ، أو بتعريضها لعمليـات

احتكاك حساسة ، أو معاملتها بجرعات اشعاعية مناسبة .. الخ .. وقد تكون كيميائية كوضعها فى أملاح خاصة ، أو أحماض معينة ، أو قلويات محددة التركيز .. الخ ، وقد تكون طرق الحث بعوامل بيولوجية عن طريق فيروسات أو مواد وراثية أو بروتينية .. الخ

لكن دعنا نختار نوعا من الحيوانات الثديية التى أجريت على بويضاتها غير الملقحة بعض هذه التجارب .. ولتكن بويضات أرنب أو خنزير ، ولنذكر تلك التجربة التى أجراها العالم بنكاس على عدد من بويضات أرنب حصل عليها من مبايضها مباشرة بواسطة عملية جراحية ، ثم وضعها فى محلول ملحى أو تعريضها لدرجة حرارة ٤٥ درجة مئوية ليحثها على النشاط والاستجابة ، واعادها الى رحم أرنب مهيأ لاستقبال هذه البويضات وحضنها وتغذيتها .. ولقد استخدم بنكاس فى هذه التجارب ٦١٥ بويضة غير ملقحة ، واستطاعت ثلاث بويضات فقط بطريق التوالد العذرى أن تنتج ثلاثة أجنة كاملة النمو ، ولقد وضعتها الانثى كمواليد عادية فى الوقت المحدد !

صحيح أن نسبة التوالد العذرى نسبة ضئيلة ، ولكنها بلا شك تفتح طريقا رحبا وعميقا فى ساحة البحث العلمى ، ثم أن مغزى هذه التجربة قد غير المفاهيم التى سيطرت على العقول ردحا طويلا من الزمان .. فلا ولادة بدون ذكر ـ أو على الاقل بدون خلايا جنسية ، خصوصا فى الحيوانات الثديية .. ولا تنس أننا نحن معشر البشر من الحيوانات الثديية .. أى أن هناك حملا فى الرحم ، ورضاعة لبن من الاثداء .. لا يختلف هذا فى الكلب عن الارنب عن الخنزير عن القرد والحصان والانسان .. فالاساس واحد ، وان اختلفت الاشكال والانواع .

والتجارب فى هذا المجال كثيرة ومتنوعة ، لكن ليس لذكرها هنا مجال ، وعلينا أن نترك الارانب والفئران والكلاب ،

ولنقفز تجاه الانسان ، ولنتساءل : هل يمكن أن يسرى على الانسان ما يسرى على الحيوان من أمور التوالد العذرى ؟

مع حساسية الاجابة بصراحة على هذا التساؤل ، كان لابد أن نعرض وجهة نظر العلم مجردة .. صحيح أن العلم لم يصل الى منتهاه فى هذا المجال ، لكن ألنتائج الاولية المبنية على أسس بيولوجية تشير الى أن بويضة أنثى الانسان قد لا تشذ على القاعدة .. بمعنى انها لو تعرضت للعوامل التى تتعرض لها بويضات الحيوانات الثديية الاخرى ، فانها قد تستجيب لها ، وتتأثر بها دون مشاكسة أو عناد أو مقاومة .. لكن الولوج فى هذه التجارب واجراءها على البشر لم يطرق بجدية الا فى خارج الرحم .. نعنى فى أنابيب الاختبار ، فالانسان ليس حيوان تجارب ، لكنه ليس مفصولا عنها فى الاسس الكيميائية والحيوية والفسيولوجية . ولهذا فان ما ينفع فى الحيوان قد ينفع مع الانسان !

الا أن هناك ثمة ظاهرة غريبة لا يعرفها الا العلماء المتخصصون ، وفيها قد تحدث الولادة العذرية عندما تلقح البويضة بحيوان منوى تلقيحا جزئيا أو ناقصا أو كاذبا (gynogenesis) .. وفى هذه الحالة يدخل الحيوان المنوى الى البويضة ، لكنه يموت دون أن يشارك مشاركة فعلية ـ بتكوينه الوراثى ـ فى التلقيح والاخصاب ، لكن مجرد ولوجه الى البويضة ثم موته وتخليه عن بعض مكوناته التى تتوزع فى المادة الحية ، يؤدى الى شحذ همة بويضته وحثها على الانقسام والتكاثر .. ولقد تعرض العالم البيولوجى ايفزد يليج لهذا الموضوع الحساس فى عام ١٩١٣ فى بحثه الذى تساءل فيه : « هل يمكن أن يحدث التوالد العذرى فى النوع الانسانى » ؟ .. ولقد بنى هذا التساؤل على عدة تجارب بين فيها انه بالامكان تدمير الحيوانات المنوية جزئيا بمواد كيميائية مثل الكحول أو المورفين أو الكوكايين أو ربما بميكروب

الزهرى .. فاذا دخلت الى البويضة لم تستطع اخصابها ، لكنها تؤدى الى انقسامها وتكاثرها عذريا !

ولقد جذب هذا البحث انتباه العامة والخاصة واثار ثائرتهم ، خصوصا عندما كتب ديليج معلقا « ولما كان احتمال التوالد العذرى فى انثى الانسان ليس مستحيلا ، فان بعض الناس الذين قد يمرون أمامنا فى الشارع دون أن نرتاب لحظة فى انهم قد جاءوا من ذكر وانثى ، وانما قد يكون احتمال مجيئهم عن طريق التوالد العذرى قائما دون أن تظهر عليهم أية سمات شاذة .. والطريق الوحيد لاكتشاف ذلك هو وضع تلك الحالات تحت الفحص العلمى فربما ينكشف السر ونصل الى نتيجة لحسم هذا الامر .. أن هذا الامر قد يكون ذات جاذبية خاصة وهو من الوجهة البيولوجية على قدر كبير من الاهمية والاثارة » !

ويضيف ديليج الى ذلك تلك الحالات النادرة للغاية التى يحدث فيها الاتصال الجنسى بين الانسان والحيوان .. والغريب أيضا أن هذه الظاهرة الاخيرة قد تعرض لها فيما بعد العالم البيولوجى ل . بونور وأشار فيها الى تلك الحالة الغريبة التى ولدت فيها فتاة من الغجر تبلغ من العمر ١٦ عاما طفلا مشوها وبدون رأس وغير مكتمل التكوين فى مستشفى فيشى للولادة بفرنسا .. ولقد كانت الفتاة تعيش فى خيمة واحدة مع والدها وبصحبة قرد من نوع الماكاك .. ومما يذكر أن الفتاة لم تتصل بأى انسان غريب ، ولقد انطلقت اشاعة بين العامة الذين يقطنون فى المنطقة التى عاشت فيها الفتاة بأن هناك علاقة آثمة بين البنت وأبيها ، ويستبعد بونور حدوث مثل هذه العلاقة التى قامت على اشاعة ليس لها أساس من الصحة ، وهو يميل الى احتمال حدوث علاقةبينالفتاة والقرد ، وعندما « تلوثت » بويضتها بمادة غريبةمن الحيوانات المنوية للقرد (اخصاب كاذب) ، بدأت البويضة

تنقسم وتتكاثر عذريا ، وانتهت بمسخة ميتة .. لا هي بشر ، ولا هي قرد !

لكن .. ماذا يعني كل ذلك ؟ .. وما هي الخلاصة ؟

يعني انه مادامت الانثى هي الاساس ، فان بويضاتها أو خليتها الجنسية هي أيضا الاساس .. بمعنى انها تستطيع أن تؤسس أجيالا ، دون الاعتماد على خلايا جنسية ذكرية ، في حين أن الذكر لا يستطيع ذلك على الاطلاق .. ونضيف الى ذلك تعليق جين روستاند وأندريه تيترى في كتابهما « علم الحياة » وفيه يذكران « انه لا يوجد مانع ـ نظريا على الاقل ـ في عدم امكان اخصاب المرأة وحملها دون تدخل من الرجل ، وبهذا تستطيع أن تصبح أما في يوم من الايام ، في حين أن الرجل لا يمكن أن يكون أبا الا اذا اعتمد على المرأة .. ان مبدأ عدم المساواة من الناحية البيولوجية (بين الذكر والانثى) ينبع أساسا من عدم المساواة بين حجم الخلية الجنسية الانثوية (البويضة) وحجم الخلية الذكرية (الحيوان المنوى) .. لكن مهما تقدم العلم في هذا المجال ، فسوف تستمر الذكور في انتاج خلايا جنسية أصغر ، وعندئذ لا تستطيع الاعتماد على نفسها كما تفعل البويضة في حياتها .. وهما بذلك يعنيان أن للبويضات امكانات بيولوجية شتى ، ولديها مخزون من الغذاء ، وتمتلك ميكانيكية حيوية وبها تستطيع أن تدوس على الزناد في الوقت المناسب ، لتنطلق فيها قذيفة الانقسام والتكاثر بهدف أو بغير هدف (أى تعطى أجنة سوية أو ممسوخة) لكن الخلية الجنسية الذكرية عاجزة عن مجاراتها في هذا المضمار ، ومن هنا كان لابد أن يعقد لو السيادة البيولوجية للأنثى وبويضاتها ، ولبأت الذكر وحيواناته المنوية بعد ذلك في المرتبة الثانية !

أضف الى ذلك أن بعض العلماء يذهبون في تصوراتهم الى

أبعد من هذا ، فهم يتوقعون مزيدا من الكشوفات فى المستقبل ، وهذه قد تميط اللثام عن مزيــد من الاسرار ، وعندما يتقن الانسان علومـــه ، ويصقـــل معلوماتـــه وأدواتـــه وأجهزتـــه ، فانـــه قـــد يتوصل فى المستقبل القريب أو البعيـــد الى معاملة بويضـــة أنثى الانسان بالطرق التى تعامل بها بويضات الحيوانات الاخرى لحثهـــا على الانقسام ، وبعدها تزرع فى رحم المرأة ، وتسحب غذاءها ، وتتكاثر وتنمو وتتشكل على هيئة جنين قد يشبه الانثى تماما أو قد لا يشبهها ، لسنا فى الواقع ندرى ، لكن الذى ندريـــه أن قوانـــين الوراثة قد تقف عائقـــا ضد هذه الذرية التى لم تأت عن الطـــريق الشرعى أو التقليـــدى .. وقد يتغلب العلمـــاء على العوائق بأفكـــار اخرى اكثـــر تطورا من أفكارنـــا الحاليـــة .. ومـــا اكثـــر مـــا فى جعبة العلماء من أفكار أو « سهـــام » علمية تنطلق فى كل آن وحين ، بعضها قد يصيب ، وبعضها قد يخيب ، كل ذلك مرهون بسعيهـــم الجـــاد فى هـــذه السبيـــل !

فاليوم لا شك ارنب ، وغدا انســـان .. بمعنى أن التجـــارب التى تجريهـــا الان على الارانب والخنازيـــر والفئـــران وتـــؤدى الى نسبة من النجاح (كأرنب بنكاس الذى سبق أن قدمناه واستطـــاع أن يحصل على ثلاثة أجنـــة بطريق التوالد العـــذرى) ، قـــد يمكن اجراؤها فى المستقبل على أنثى انسان ، ودون أن يتدخل الذكـــر فى ذلك على الاطلاق !

وفى زماننا هذا تستطيع المرأة (أو ربما الفتاة) أن تحمل وتلد دون أن يمسهـــا ذكر .. لكن حملهـــا لن يكون بالتأكيد عن طريق جن أو عفاريت أو « بساط الريح » أو غير ذلك من الخرافات التى تخرج بها علينا الصحف لتحدث نكسة فى الفكر ، وردة فى العلـــم ، بل يأتى حملهـــا عن طريق التلقيح الصناعى ، اذ يكفى ــ لو ارادته المـــرأة ــ أن تستقبل جرعة من الحيوانـــات المنويـــة فى الـــوقت المناسب ليتـــم التلقيح والحمل .. صحيح أنهـــا لم تتصل بذكر من

الذكور ، الا أن هـذا ليس هامـا .. ذلك أن عمليـة النكـاح أو الاتصال الجنسي ـ المباشر وغير المباشر ـ وسيلة لا غاية .. فالغاية أو المراد أن تتقابـل الخلايـا الجنسية وتتحد ، سواء كان ذلك فى انبوبة اختبار أو فى رحـم أنثى ، ولهذا فهو يختلف عن بيولوجيـة التوالد العذرى اختلافـا جوهريـا ـ فالتوالـد العذرى ـ كمـا سبق أن قدمنـا ـ يتم عن طريق بويضة لـم تتلقح ولـم تتقابـل بخليـة جنسية ذكريـة !

لكن التلقيح الصناعى ـ للاسف ـ قد ركن الذكر على الرف ، فمن الممكن « حلب » خلايـاه الجنسية وحفظهـا فى كبسـولات خاصة لتوزيعها على من يشئن من الاناث .. وقد تكون هذه الخلايا الجنسية لثور عظيـم فى أسوان ، أو حصان متين فى الشرقيـة ، أو كبش ذى صفات وراثية محمودة فى « زريبة » بأسيوط .. الخ ، ولكى نلقح بقرة فى لندن ، أو فرسة بباريس ، أو نعجة فى موسكو ، فان ذلك لا يستوجب شحن الذكور الى جميع انحاء العالم بالطائرات أو الصواريخ أو غير ذلك من سبل المواصلات .. بل يكفى أن نأخـذ عدة قطرات من الحيوانات المنويـة للذكور ، ونحتفظ بهـا تحت ظروف خاصة ، ونصدرها لمن يشاء ، ونبعث بها لمن يريد .. أو قد يحدث ذلك أيضا مع الانسان ، فقد ترفض الزوجـة السفـر الى زوجهـا فى بلاد « واق الواق » على سبيل المثـال ، لانهـا لا تحب أن تعيش معه فى هذه البلاد ، وهى تريد أن تـكون أمـا ، عندئـذ قد يرسل لها طردا صغيرا به بعض خلايـاه الجنسية ، وبه يتـ المراد ، وتأتى الذريـة ، لكن ليس من الممكن أن يحدث العكس بمعنى أن ترسل الانثى بويضتها الى ذكرهـا ليحملهـا ويرعاهـ ويلقحها ، لان الرجال لا يمكن أن يصـيروا حبـالى بالاجنة ، لكن أحيانا ما تراهـم كالحبالى ، وما هم بحبالى ، ولكن اذلال الانثى لشديـد !

من أنثى الى ذكـر .. وبالعكس !

على أن أغرب الصور التى اكتشفها العلمـاء حديثـا توضح لنـا جزءا هامـا من سلوك الحيـاة مع اناثهـا ، وتحيزهـا لهـا تحيزا مكشوفـا ، بحيث يصبح المخلوق الذكر بين يديهـا لعبـة « كلعبة الستات » فى عالمنـا .. أو ربما أكثر اثارة وشذوذا .. فالانثى التى سنقدمهـا هنا قد تتحول الى ذكر تارة ، ثـم قد تعود سيرتها الاولى وتتحول الى أنثى تارة أخرى .. كل هـذا يعتمـد على الظروف « النفسية » التى تتعرض لها فى حياتها .. صحيـح انـه لا يوجد فى عالمهـا طبيب نفسانى ، أو جـراح ليجـرى لهـا عمليـة جراحية ، وبها يتحول جنسهـا من أنثى الى ذكر ، الا ان الصحيح يبدو لنا فى تلك الميكانيكيـة الحيويـة التى زودتهـا بهـا الحياة ، فتدوس على « الزرار » ، ويكون لها ما تريـد ، والى هنا تتضح لنا الحقيقة دون لف أو غلبة أو دوران .. فالانثى هى الاساس ، والذكر يأتى بعد ذلك ، ومنها يخرج ، وليؤكد لنا أن تحت جلد كل ذكر أنثى كامنة .. وربمـا ظهر هذا الكمون الانثوى بعد ملايـين السنين تحت جلد بعض فتيان هذا الزمان ، فتراهـم وقـد فضلوا التحلى ببعض صفات الانثى .. لكن دعنا من هذا الآن ، وسنعود اليه فيما بعـد لنوفيه حقه ، وان كان موضوعنا الذى سنقدمـه هنـا يلقى الضـوء على بعض ما يجرى عند فتياننـا ، ولكن بطريقـة معكوسـة !

يذكر دكتور روس روبرتسون من جامعة كوينزلاند بأستراليا ، حقائق غريبة عن بعض أنواع الاسماك التى تعيش فى مجموعـات صغيرة ، فلقد خرج منها بنتائج مثيرة بعد أن ظل يرقب ويـدرس ويتأمل سلوكهـا الذى يـؤدى أحيانـا الى تحويـل الانثى الى ذكـر !

ولناخــذ منها النوع المعروف باسم سمك الراس The wrasse أو اللبروس .. وأحيانا ما يطلق عليهــا اسم سمكــة النظافــة أو المنظفة ، لانهــا تنظف جلود الاسماك الاخرى الكبــيرة ، وتدخــل الى أفواهها ، وتتجول بين خياشيمهــا ، وتلتقط منهــا الحيوانــات الطفيلية الصغيرة او بقايــا الطعــام ، أو بعض الانسجــة الميتة ، وتتغذى عليهــا ، ومن هنا نشأت بين سمكة النظافــة الصغــيرة وبين بعض الاسماك الكبيرة علاقة منفعة متبادلة ، فالصغيرة اذا دخلت فم الكبيرة ، فان الكبيرة تحافظ عليها ، أو قد تحميها من مطاردة عدو أكبر منها وأقوى ، مقابل أن تقوم الصغيرة بدور « الماشطة » أو الممرضة أو المنظفة !

وسمكة النظافة رقيقة الحجم جميلة الالوان ، ولا يزيد طولها عن عشرة سنتيمترات ، وتعيش فى مجموعات يتراوح عددها ما بين ٨ ــ ١٠ أسماك ، ويصحبها دائما ذكر وحيد مشاكس ، وقد تؤدى مشاكسته الى قصف عمره . . فحياة البحار خطرة ، ولا بد لكل مخلوق أن يأخذ حذره ، فالكبير هناك يأكل الصغير . . وصاحبنا الذكر يريد أن يحمى « حريمه » الثمانى أو التسع أو العشر ، وعليه أن يقوم بالدفاع عنها ، ولهذا تراه يدور حولها ليثبت لها انه نعم الذكر حامى الحمى ، وقد تقوم المعارك بينه وبين الذكور الاخرى ، أو بينه وبين أكبر أنثى . . وهذه تتصرف كما تتصرف « المعلمة » من النساء التى تتشبه بخصال الرجال ، وسوف يتضح لنــا ذلك فيما بعد !

لكن الظاهرة الغريبة حقا فى هذه المجموعات الصغيرة تتركز فى « المركز الاجتماعى » الذى تحتله كل أنثى . . فهناك تدرج فى الحجم والعمر بين الانــاث . . فالحجم الصغير دليل على حداثــة السن ، والمتوسط على وسطه ، والكبير على الكبر . . ولكل سن احترامها ، وقد تضحكون أو تمتعضون من هــذا التعبير ، أو قــد تتساءلون : هل يمكن أن يحدث ذلك فى مجتمعات سمكية لا تدرك ولا تعقــل ، فيحترم صغيرها كبيرها ؟

وتلك هى عقدتنا نحن معشر البشر .. فلقـد نظمت الامـور بين مخلوقات هذا الكوكب أعظـم تنظيـم ، حتى قبـل أن نظهـر نحن بعشرات الملايين من السنين ، والواقـع أن الانثى الكبـيرة فى المجموعـة ـ اى أكبرها حجما وسنا ـ هى سيدة الموقف ، لكنهـا قد توحى بطريقة غامضة للذكـر بانـه مخـلوق مهـم وشجـاع « وراجل » فى المواقف التى تسحق التضحية ، وعلى هذا الذكـر تقع مسئولية حماية الحريـم ، فاذا تعـرضت حياتـه للخطـر أو مات ، فالى الجحيم .. فمن ورائه ذكر فى أنثى ، أو أنثى فى ذكر .. لسنا فى الواقع نـدرى ، لكن الـذى ندريـه أن أكبـر الانـاث سنا وحجمـا تصبح الحاكمـة والمسيطـرة والحاميـة لمجموعـة الاناث .. ولكى تعقد لها السيادة الحقيقية ، فلابد أن تتحـول الى ذكر .. وللذكر مهام جديدة تختلف عن مهـام الانثى .. أى عليـه أن يدافع ويحمى ويصول ويجول ويظهر عضلاتـه أمـام الـذكور الاخرى التى قد تسول لها نفسها أن تعتدى على حريمه ، وهـو ـ اى الذكر ـ يفضل الموت أو التحول الى انثى على أن يحنى راسـه لذكر آخر يعيش معه فى أرضه ومع اناثـه .. كرامة نادرة لذكـر سمك لا يدرك ولا يعقل ، وما أكثر ما تمتهن كرامات البشر !

لكن .. من الذى سيقوم بتلقيح الاناث فى غياب الذكر ؟

لا تحمل لذلك همـا .. فالأنثى التى تحـولت الى ذكـر ستتكفل بالعملية .. وبما أفضل من الذكر الذى جاءتـه مصيبـة فانتقل الى رحمة مولاه !

كيف ذلك يـكون ؟

أن الذكر هنا يشبه فى الشكل والحجم واللـون أكبر الانـاث واضخمها حجما ، بحيث يصعب عليك أن تميز الذكر من الانثى ، اللهم الا اذا لاحظت سلوك هذا أو تلك ، وعندئـذ سترى الذكـر

وقد خلـع على نفسه مظهر الشقاوة ، وسمات الاقدام والجسارة، وحبه للسيادة .. اما بين حريمه ، واما على الذكور الاخرى التى قـد تدخل فى مجالـه .. أى انـه يظهر عضلاتـه كمـا يظهرهـا ذكور الحيوان والبشر !

لكن هذا الذكر ، الذى كان من قبل أنثى وتحول الى ذكر ، قد يأتيه من هو أقوى منه وأشد ، فيخلعه من كرسى الرياسة ، وينتزع منه السيادة ، وعندئـذ لابد أن يتخلى عن ثوب « الرجولة » الكاذب ، ويدخل من جديد فى عالم الحريـم ، ويعود الى أنوثتـه ، فيحمـل البيض ، وبضع الذريـة .. وكما بـدأ عاد !

والواقع أن سلوك هذه المجتمعات معقدة أشد التعقيد ، ولقد وضعت العلماء المهتمين فى حيص بيص ، فما هو الهـدف الحقيقى من هذا التغيير والتبديـل ؟ .. وكيف يتـم بمثل هـذه البساطـة دون جراحـة وتخدير ومستشفيات ودواء وأتعاب ؟

الاجابة على السؤال الاخير قد اتضحت من تشريح الاعضـاء الجنسية لهذه الاسماك ، اذ تبين أن الانـاث تحمـل فى تكوينهـا غددا جنسية ذكرية ضامرة ، أى انهـا أسماك خنثى ، لكن أنوثتها هى السائدة بدليـل انهـا تحمل مبايض كاملة التكـوين ، ولهـا جهـاز لوضع البيض وتلقيحـه ، كما انهـا تدخـل مع الذكـر فى عمليات اخصاب جنسية .. وكلما تقدمت الانثى فى العمر ، كلمـا ظهرت عليها علامات الذكورة ظاهرا .. لا باطنا ، بمعنى انها تسلك سلوك الذكر فى حركاتـه وشقاوتـه وحبه للسيادة ، وقـد تنافسه فى الرياسة ، ويحـاول « السيـد » أن يصـد « السيـدة » عن تطلعاتهـا « البرجوازية » ، فتظهر العنـاد ، وتدخل معه فى عمليات نزال .. وقد تخسر الانثى المحنكـة المعركة ، فتبقى على حالها ، وقد تكسبها ، ويخسرها الذكر .. وعندئـذ يتحـول من خسر الى أنثى ، ومن كسب الى ذكر ، أى انـه فى الوقت نفسه تتحول الانثى

الى ذكـر ، والذكر الى أنثى .. وسرعان مـا تتـولى الانثى التى أصبحت ذكرا أمـور الحريـم والدفـاع عن حرمـات البيت من الفضوليين فى غضون ساعات قليلة .. والواقـع انها مارست تلك السيادة ، وعركتها عندما كانت تدخل فى صراع مع الذكر الذى كان يحكم ، ولهذا لن تجد صعوبـة فى ادارة دفة مجتمعهـا الصغير ، ولها من قوتهـا خير سنـد ومعين ، وليوفقهـا الله فى ادارة عالـم الحريـم .. فكل من فيه يتطلع الى منصب الذكورة والسيادة .. « ولا أحد خير من أحـد » .

فاذا تركنا عالـم السيـادة ، ودخلنـا الى عالـم الجنس ، لوجدنـا أن الغدد الجنسية الذكرية الضامرة التى كانت فى الانثى قد بدأت تنمو ، فى حين أن الغدد الجنسية الانثويـة التى كـانت ذات يوم خصيبة قد أخذت تضمر بالتدريج .. وبعـد حـوالى اسبوعين أو ثلاثة تبدأ فى افراز حيواناتها المنويـة ، وتـكون بهـذا ذكرا كامل التكوين ، قادرا على الاخصاب !

وقد يموت هذا الذكر الذى كان أنثى ، أو قد تاكله سمكة أخرى ، وعندئـذ يخلو الميدان لأكبر الاناث وأقواهـا ، وتتولى بهذه أمـور الزعامـة ، فتضمر غددهـا الانثوية ، وتزدهـر الذكريـة وتصبح ذكرا قادرا على التلقيح والاخصاب ، وقد يأتيـه ذكـر متشرد من خارج أرضـه ، فيستولى على حريمه ، وعندئـذ يعـود الذكـر الذى كان أنثى .. الى أنثى ، فهذا خير وأبقى !

أرأيت اذن مجتمعات اغرب من هذه المجتمعات ؟!

لكن الشيء المثير هنا أن تعريفنا للذكر هنا تعريف نسبى .. اذ لو تعمقت فى النظرة الى مثل هذه الامور لوجـدت أن الانثى هى الاساس ، وأن الذكر يأتى فى مرحلة متأخرة ، أو كما يعبـر عنهـا روبرتسون فيقول « يبدو أن كل الذكور مشتقة من الاناث » .. أو بمعنى أوضح نقول : أن الذرية الناتجة كانت كلهـا ــ فى البداية

اناثـا فى اناث ، ولابـد أن تمـارس أنوثتها أولا ، وتضيف الى هذه المجتمعـات مزيـدا من الذريـة (أى ذرية الاناث) ، وعندما ترتفع درجاتها فى المجموعة ، وتحس بقوتها وسلطانها ، فلا مانـع من السماح لها بالدخول الى عالـم الذكور .. وقد يـكون فى ذلك حتفها ، فتأتيهـا مصيبة تقصف عمرهـا أثناء الدفاع عن أرضهـا وحريمهـا !

ويبدو أن هذا الصراع الطبقى الجنسى ليس الا مظهـرا من مظاهر الاختيارالطبيعى .. فالقوى هو الذى يسود ، ولابد أن يتحول الى ذكر ، ليورث قوتـه وعناده الى الاجيال القادمـة ، فتقـوى شوكتها ، ويشتد عود نوعها .. « ولكن أكثر الناس لا يفقهون »

ومع أن أسمـاك الـرأس أو النظافـة قـد حلت مشاكلهـا الجنسية ، الا أن المشكلة الحقيقية ــ أو ربما لا تكون مشكلة على الاطلاق ــ هى التى تجابـه نوعين من الاسماك يعيشـان بالقـرب من سواحل المكسيك ، ولقد ظـل جاك شلتز من جامعة كونيكتيكات يرقب سلوك هذه الاسماك ، ويدرس تحركاتهـا ، ويعيش سنوات طويلة مع مجتمعاتها ، حتى توصل الى سر غـريب نشره فى العـام الماضى فقط ، وفيه يذكر أن النوعين (وهما المولى وبيسيليوبسيس) لا يعرفان شيئا عن عالم الذكور ، ولا ينجبـان فى ذرياتهمـا ذكـرا واحدا ، واذا أراداالخصابـا ، فانهما يسطوان على ذكور جماعـات أخرى من الاسماك قريبة الشبه بنوعهما ، ويخطفان ذكرا أو أكثر ، ويحتجزانـه ، ليلقح بويضاتهـا ، ثـم يخليان سبيله بعد أن ينـالا مـا يحقق رغبتهمـا فى ذريـة تأتى كلها اناثـا فى اناث !

صحيح أن اتصال الذكر بالانثى يؤدى غالبا الى ذرية من ذكـو واناث ، لكن هذين النوعين قد ضربـا بقوانين الوراثة التى نعرفهـ عرض الحائط .. الا أننـا لو عرفنا السبب ، لبطـل العجب .. أو ربما زاد عجبنا ونحن نكتشف كل عـام اسرارا ما كانت لتخطر لنا على بال ، ثم انها قد تنير لنا الطريق لبحوث أكثر عمقـا !

لماذا اذن حلت لعنة هذين النوعين من الاناث بالذكر ؟ .. هل هما عدوان للذكور كارهان لهــا ، فشطبا خلفتها من ذرياتهما ؟ .. ثــم اذا كانا فى حاجة الى ذكر لاخصاب بويضاتهما ، فلماذا لا ينتجانه بدلا من السطــو على ذكور الأنواع الاخرى وخطفهــا ؟

الواقع أن السر اعمق من ذلك بكثير . فالاخصاب هنا اخصاب كاذب .. بمعنى أن الخلايــا الجنسية لهــذه الذكــور لا تشــارك مشاركة فعالة فى عمليات التلقيح ، اذ لو شاركت ، لأنتجت ذريــة من الذكــور والاناث !

كأنما السر يزداد غموضــا ، وما هو ــ فى الواقع ــ كــذلك ، فلقد سبق أن ذكرنــا أن التوالد العذرى قــد ينشأ فى البويضات غير الملقحــة عندمــا تتعرض لعوامل طبيعية وكيميائيــة وبيولوجية لتحثها على التكاثر ، وعندئذ تبــدأ فى الانقسام والتكاثــر دون تدخل الذكور فى ذلك ، والشىء نفسه يحدث مع بويضات هذين النوعين من الأسماك ، فالحيوان المنوى للذكر المخطوف لا يقــوم بالتلقيح التقليدى ، ولكنه يدخل البويضة كعامــل بيــولوجى ليطلق فيهــا القذيفة الحيوية ويستحثها على التكاثر ، وفعلا تبدأ فى الانقســام والتكاثر لتتكون منها الاجنة والمواليــد التى تحمل صفات الانثى ، ولا تحمل شيئا من صفات الذكــر .. أى انهــا بالتأكيد بنــات أمهاتهــا ، وليس للذكر فى ذلك نصيب ، ومن هنا كان لابد أن تــأتى الذريــة كلهــا اناثــا فى اناث !

وهكذا يتبين لنا أن ما كان يقــوم بــه العلمــاء فى معاملهــم لحث البويضات على التوالد العذرى ، قد أصبح لــه فى الطبيعة قرين ، ولقد أعطتنا الاسماك هذا الدليــل العظيــم ، ولا جــديد تحت الشمس ــ كما يقولون .

الانثى أولا من فضلك ، وليأت الذكر بعد ذلك أو فليذهب الى الجحيــم !

مأساة الذكور

فليسقط الذكر .. ولتحيا الانثى !

شعار جديد من الشعارات التى رفعت الحياة لواءها ، لتقدم لنا صورا غريبة من المآسى التى تتعرض لها الذكور ، ولتجعلها سخرية أمام اناث العالمين !

ولكى نوضح معنى ذلك ، دعنا نبدأ أولا بأنفسنا .. ليس على مستوى الفتى والفتاة ، أو المرأة والرجل ، أو الذكر والانثى عموما .. لكن على مستوى خلايانا الجنسية !

فاذا كان عالم الذكور « برىالة » .. فان عالمها الصغير بذيول !

فما أن تظهر مفاتن الانثى أمامنا ، حتى يسيل لها لعابنا ، فتشتغل الغدد ، ويشتعل الجنس ، وغالبا ما نضعف ونستجيب « الا من رحم ربى » .. وهنا تبدو لنا المرأة كمخلوق جميل وبديع وجذاب ، أو كأنما هى جنة الحب ، وفردوس السعادة ، فاذا ما دخلناها ، زهدنا فيها ، ولكن بعد أن تنساب منا خلايانا الجنسية ، فيتحول كل شىء فى لحظات .. الرغبة القوية الى جمود ، والحب الى خمود ، والايجابية الى سلبية ، وقد نلعن أنفسنا على « هبالتنا » ، وقد نرثى لحالنا ، ونتعجب كيف سالت « ريالتنا » ، وجرى لعابنا .. لكن هكذا شاءت الحياة وقدرت ومن وراء ذلك هرمون عجيب يقلب كياننا ، ويجعل الانثى حلوة أعيننا ، ولهدف عظيم يتركز فى لقاء بين خلايانا وخلاياها الجنسية، وليكون فى ذلك استمرار النوع وازدهاره عن طريق انجاب مزيد من الذرية !

لكن يبدو أن فى الامر « خيارا وفقوسا » حتى لو كان ذلك على مستوى الخلايا الجنسية .. فالخيار هو بويضة الانثى ، والفقوس هى خلايانا الجنسية الذكرية ، أو حيواناتنا المنوية التى نطلقها بمئات الملايين ، فتموت دون حس أو خبر ، فى حين أن بويضة الانثى اذا ماتت دون تلقيح ، أقيم لموتها مهرجان دموى حزين ، قد يستمر لأيام أربعة أو خمسة ، أو ما فوق ذلك أو دون ذلك ، وهذا ما نعرفه بالطمث أو الدورة الشهرية عند الانثى .

كأنما خلايانا الجنسية رخيصة ، وخلايا الاناث ثمينة .. نحن نسرف ، وهن المقتصدات (ربما كان هذا هو الشىء الوحيد الذى تقتصد فيه الانثى وتقتر) .. ذلك أن الانثى تفرز ــ فى أغلب الاحيان ــ بويضة واحدة فى الشهر الواحد يقابلها عشرات البلايين من الخلايا الذكرية شهريا .. ذلك أن الذكر منا يقذف فى المرة الواحدة حوالى ٢٥٠ مليون خلية جنسية .. قدرها بعد ذلك فى شهر كامل ، تخرج بأرقام هائلة تزيد كلما زادت فحولة الذكر، وهذا يعنى أن الاسراف قد كتب علينا ، وكان التقتير من نصيبهن .

لكن الاحداث التى تجرى فى عالمنا الكبير ــ عالم الافراد ، هى نفس الاحداث التى تجرى بين بويضة وحيوان منوى فى عالمها الصغير .. وان اختلفت بعض التفاصيل !

فالذكر منا هو الذى يسعى غالبا الى الانثى ، وهو الذى يبحث عنها بوسائله الخاصة ، وهو الذى يتودد اليها ، ويسيل لعابه عليها .. وكذلك يفعل الذكر الصغير ــ اى الحيوان المنوى الذى جاء الى الحياة برأس وذيل .. وغريب أن تكون بداياتنا نحن معشر الذكور بذيول .. فالحيوان المنوى هو ممثلنا الشخصى ، وهو الذى يحمل صفاتنا الوراثية فى رأسه ، أما الذنب أو الذيل فهو الذى يحركه ، ليبحث بدوره عن أنثاه

الصغيرة .. عن بويضته الكامنة فى خدرهـا او عشهـا الصغير .. وهى لا تخرج من بيتهـا (أى من المبيض) هكذا اعتباطـا كما هـو الحال فى خلايانا الجنسية نحن معشر الذكور ، بل نراهـا وكأنمـا هى تخرج على استحياء ، ثـم تحاط بعـد ذلك بصويحباتها التى تتمثل لنا فى خلايـا أخرى صغيرة يطلق عليهـا اسم خلايا التـاج أو التتويج ، ويعنى هذا انهـا قد جاءت الى الحياة معززة مكرمة ، تمامـا كما تخرج العروس من بيت أهلهـا أيضا معززة مكرمة ، ثـم نراهـا ترفل بين صويحباتها فى ثياب زفافهـا !

وتبدأ رحلـة عروسنا الصغيرة من مبيضها بطيئة للغايـة .. فهى لا تجرى ولا تتهافت على عريسها أو عرسانهـا ـ كما يفعـل ملايين المهابيـل من ذوى الذيـول .. فعلى هـؤلاء أن يضربـوا بذيولهـم ، وأن يجروا فى سباق مريـر ، وكل حيوان منوى يمنى نفسه بلقـاء الحبيبة ، ولينطلق فى رحلته ليكون أول الواصلين ، وكأنما هو الاخر « بريالة » كأى فرد فى عالم الذكـور الكبار !

ويبدو أن الحياة قـد وضعت قانونـا أزليـا للتنافس بـين المخلوقات ، حتى ولو كـان ذلك على مستوى الخلايـا الجنسية ، وكأنما قصة ملكة النحل تتكرر مرة أخرى ؛ فلقـد قدمت لها الحياة مئات الذكور ، ولن يصيبهـا منهـم الا واحد ، أمـا البقية فالى الموت والجحيم .. وكذلك تكون بويضة أنثى الانسان والحيوان ، فمن أجل خاطرهـا انسابت مئات الملايين من خلايانا الجنسية ، وهى تنتظر منها حيوانـا منويـا واحدا ، فاذا وصل وسمحت لـه بالدخول ، أسرعت بغلق الابواب فى وجه الملايين ، وليذهبوا أيضـا الى الجحيـم ، فلا شك أن الذى وصل أولا هو أقواها وأشدها ، وهو الذى عرف الطريق الى قلبهـا ، ولهـذا فهى حلال عليه ، وحرام على الآخرين وجميل جدا الا تقبل بويضاتنا الا ذكرا واحـدا ففيه الكفايـة ، والا كانت الفوضى ، وما أكثر الفوضى التى يعيش فيهـا اصحاب العقـول !

لكن .. لماذا هذا الاسراف فى خلايانـا نحن معشر الذكور ؟

لأن هناك متاهات كثيرة فى الداخـل .. فحجم رحـم الانثى بالنسبة لحجم الحيوان المنوى كحجم انسـان بالنسبـة لمدينـة كبيرة .. وقد تكون فى هذه المدينة أنثى وحيدة مختبئة فى مـكان أمـين ، وهى لا تريـد أن تظهر على الرجال ، وكلما كثـر عددهم، وانتشروا فى المدينة طولا وعرضا ، كلما كانت الفرصـة متاحة فى العثور عليها فى وقت قصير .. وكذلك تكون البويضة فى داخل الانثى .. فعمرهـا لا يتجـاوز ٤٨ سـاعـة ، ولابـد أن تنطلق الملايـين من خلايانـا الجنسية لتبحث عنها فى تلك المتاهات ، حتى تهتدى اليها قبل أن تموت .. وكلما كثر العدد ، كان الاخصاب أكثر احتمالا .. ومن هنا كانت الحكمة فى افـراز أعداد هائلـة من خلايانـا .. اذ لو اطلعت عليها وهى تسبح بذيولها ، لوجدت مهرجانا راقصا يندفع هنـا وهناك ، وكأنمـا الدنيا قد دانت لهم ، أو كأنمـا قد خرجوا من ضيق الى فـرج ، وانطلقوا نحو هدف محدد .. فاما موت ، واما حياة !

وحول البويضة تطوف حيواناتنـا المنويـة ، والكل يتنافس ليقبل « أعتابهـا » ، علها تسمح له بالدخول ، ولكنهـا لا تـرق ولا تحن ، وكأنمـا هى وضعت على جدارهـا اعلانـا غـير مكتوب يقـول « ممنوع الدخول » .. فلقد قبلت أول الواصلين ، وغلقت دون غـيره الابـواب !

لكن دخول عريسنا الصغير بعروسه البويضة ليس بالسهولة و السذاجة التى يدخل بها البشر على عرائسهم .. فهناك سلسلة ن الاحداث البيولوجية الهامة التى يجب أن تتـم بين البويضـة الحيوان المنوى .. اهمهـا ـ بطبيعة الحال ـ أن يبرز حيوانـنـا لمنـوى « بطاقتـه الشخصيـة » التى يحملهـا على عمامته أو قلنسوتـه أو « لبدته » أو طاقيته .. تعددت الاسمـاء ، والشىء واحـد !

لكن .. أيــة عمامة او طاقيــة تلك التى يلبسهــا حيواننــا المنوى ؟ .. ومن أين يحصل على بطاقته التى يثبت بها شخصيتــه لعروسه حتى تتكرم وتسمح له بالدخول ؟

الواقع أننا لسنا وحدنــا على هــذا الكــوكب .. فالــذين يدرسون ويتعمقون فى أصول الخلق ، تتجلى لهــم العظمة الحقيقية فيمــا خلق الله فأبدع ، وفيما سوى فأتقن ، ليجيء كــل شيء الى الحيــاة على حسب خطط موضوعة ، وأسس موزونة ، فلا نــرى فيها خللا ولا فروجــا .. وهكذا يتبين لنا ولكــم « انا كــل شيء خلقناه بقــدر »

فالبطاقات الشخصيــة التى تمتلكهــا الخلايــا الجنسيــة ليست مكتوبة بحبر ، ولا مخطوطة على ورق ، ولكنهــا معلومــات مسجلة بمركبات كيميائية خاصة لتتداخــل مع بعضهــا بطريقــة فذة ، فتؤدى الى نسيج كيميائى بديــع ودقيق تتفاوت طبيعته، ويختلف تنظيمــه على حسب نوع المخلوق الذى يفرز من خلايــاه الجنسية ما يشاء ، ليطلقهــا فى الهــواء أو المــاء أو الطين أو فى رحــم أنثى ، كما هو الحــال فى الحيوانات الثدييــة التى ننتمى اليهــا !

صحيح اننــا نحن معشر البشر نعرف تمامــا كيف نفــرق بين الذكر والأنثى فى عالمنــا ، فمجرد همسة تلتقطهــا الاذن من بعيــد توضح لنا ان كان صاحبهــا ذكرا أو أنثى .. كذلك يعرف القــرد قردتــه ، والحمار حمارته ، والكبش نعجته ، والحصان فرسته والخنزيــر خنزيرتــه .. الخ ، لكن هناك عالمــا آخــر لا يــر ولا يسمع ولا يتلكــم ثــم هو ايضا يطلق خلاياه الجنسية فى المــ أو الطــين ، لتهيم على وجههــا ، باحثــة عن بويضاتهــا .. لكن البويضة قد تستقبل حيوانــا منويــا شــاردا لا ينتمى لنوعهــا (كما يحدث مثلا فى الكائنات البحرية والمائيــة التى تطلق خلاياها الجنسية فى المــاء) فتصده وتمنعه من الدخول ، فى حــين انهــا

تتعرف على « عريسها » من خلال بصماتـــه الكيميائية المنسوجـــة على جداره ، والتى تتوافق تماما مع بصماتها ، وهنا يحدث التفاهم والانسجام والدخول دون ضجة أو غلبة أو ضوضاء .. وهكذا نظم الخالق الأمور العظيمة لكل المخلوقات ـ صغيرها وكبيرهـــا ، وجعل بينها لغـــة كيميائية تتفاهـــم بهـــا ، وكأنما هى شفـــرات سريـــة لا نعرف من مضمونهـــا الا أقل القليـــل .. فالظاهـــر غير الباطن ، « ولكن أكثر الناس لا يعلمـــون » !

فلو أن الحيوان المنوى لانسان ، قد تقابل فى أنبوبـــة اختبار مع بويضة أنثى قرد أو حمـــار ، لما سمحت له بالولوج وكأنما لسان حالهـــا يقول « لست أنت من نوعى ، ولا أنا من نوعك ، وخـــير لك أن تنطلق لتبحث لك عن بويضة من نفس ملتك .. قضى الامـــر ، وأوصدت الابواب فى وجهك » هذا يحدث بالرغـــم أن ذلك العالـــم الصغير من الخلايـــا الجنسية (الممثلة للذكور والانـــاث فى عالمهـــا الكبير) لا تعـــرف شيئـــا عن معنى « نظـــرة .. فابتسامـــة .. فسلام .. فكلام .. فحب .. فمأذون * . فزواج .. فانسجام أو خصام » .. الخ ، ومع ذلك فهى المسئولـــة أولا وأخيرا عن انتاج « سبيكة » جديدة من الذرية ، بعملية خلط بين صفات وراثيـــة مسجلة فى داخلهـــا بشفرات كيميائية !

وعندما يحدث اللقـــاء بين الخلية الذكرية والانثوية فى عالم الانســـان والحيوان ، تبـــدأ سلسلة من الأحداث الهامة .. فلقـــد جاءت العروس الصغير أو البويضة العذراء الى الحياة وهى تدثر نفسها برداء من فوق رداء من فوق رداء .. اردية ثلاثة تحافظ بها

(*) المأذون هنا ليس عنصراً بيولوجيا هاماً .. فن الميسور جداً أن يتحد الحيوان المنوى بالبويضة فى الرحم أو فى أنبوبة الاختبار دون أن يستأذنا المأذون أو القس أو الحبر فى ذلك . فمهمة المأذون هنا أن يشهر النكاح على الملأ على حسب الشريعة .. وكل جماعة وشريعتها فى ذلك .

على مكوناتهـا الداخليـة .. وكـل رداء مطرز بجزيئات كيميائية مختلفة ، وكأنمـا بويضتنا كحواء الكبيرة ، تهوى الملبس ، وتحب الاقتناء ، الا أن الأردية الثلاثـة لبويضتنا تبدو للعقل البشرى بمثابة ظلمات ثلاث .. لأن حياكتها وتطريزهـا بجزيئات كيميائية تتخـذ انماطا لا تستطيع عيوننا أو عيون ميكروسكوباتنـا أن تراهـا على حقيقتهـا .. صحيح أننا نعرف أنواع الجزيئات بطرق التحليـل الكيميائى ، لكننا لا ندرك كيف بنيت وانتظمت فنظامهـا يقع فيما وراء حدود الميكروسكوبات الاليكترونية .. لكن الذى يهمنـا هنـا أن بويضة كل نوع من أنواع المخلوقات قد قامت بتطريـز جدرهـا أو أرديتهـا الرقيقة جدا على هواهـا ، لتكون بمثابـة علامـات مميزة لتهتدى اليها الحيوانات المنوية ومن خلالها تتفاهم !

ولقد جاءت الخلايـا الذكرية هى الاخرى وهى تلبس طواقى على رؤوسها ، لكن الطواقى تختلف باختلاف أنواع المخلوقات .. هى فى الحيوان المنوى للانسان مثل « لبدة » الصعيدى (طاقيـة مستطيلة قليلا وبيضاوية من أعلى) وفى الفئـران كالمنجـل ، وفى الديوك كالقرطاس أو الطرطور ، وفى قنافـد البحـر « الرتسـا » كالـرمح ، وفى الصراصـير كالمخـروط .. الـخ ، وهكـذا صممت الحياة لكـل عريس طاقيته ، لا ليتعاجب بها ، أو لتتغنى بهـا عروسه كما نسمع ذلك فى أغانينا السـاذجـة التى لا طعـم لها ولا معنى ، ولكن لتؤدى مهمتهـا فى التعـارف ، ولتـكون بمثابـة البصمات الكيميائيـة التى تشتغـل كلغـة سريـة لهـا معناهـا ومغزاهـا !

وعندما تقترب الحيوانات المنوية من بويضاتها ، نراها وقد استبدت بها موجة من النشاط والحيوية ، وكأنما هناك شىء قد لعب برؤوسها فأثارها ، واشعل فيها ثورة عارمة ، كالتى تحـدث لنـا نحن معشر الذكور الكبار عندما نجتمع باناثنا ، ويعتقـد العلمـاء أن المسئول عن ذلك هى بويضتنا الصغـيرة ، لانهـا عندمـا تحس

بمقدم عرسانها ، تطلق مادة أو عـدة مواد كيميائيـة بتركيـزات ضئيلة للغايـة ، وكأنما هذه المواد بمثابة العطر الحريمى الـذى يسيل له لعاب الرجـال ـ مع فارق واحـد ـ ذلك أننا نحن معشر الذكور ندفع ثمن العطور .. لكن عطر البويضة طبيعى ، وبه تشعل الثورة فى حيواناتنـا المنويـة ، لترقص حولهـا كالمهبولـة (نفس هذا المنظر قد يحدث فى صالات الرقص والدافع له انثى لعوب) .. وهكذا يكون حال عالـم الذكور على مستواه الصغـير والكبـير ، ولتسعد الانثى بما خططت ، ولتلعب بعقولنـا تـارة ، كمـا تلعب بويضتهـا بحيواناتنـا المنوية تارة أخـرى .. ومسكـين عالـم الـذكور !

ولكى يدخل العريس ذو الطاقية بعروسه أو بويضته ، كـان لابـد أن يخلع لباس رأسه أو « عمامته » .. ليس ذلك ـ بطبيعة الحـال ـ نوعـا من الذوق أو « الايتيكيت » كالذى نراه مثـلا فى عالمنـا الكبير ، ولكن الحقيقة أن العروس الصغير هى التى تقـوم بتمزيق الطاقية وهلهلتهـا واذابتهـا لكى يدخـل صاحبنـا الى دنياه حاسر الرأس .. وهو لا يستطيع أن يدخل برأسه فى عروسه الا اذا تحطمت الطاقية لتتحرر من تحتهـا « المفاتيح » الكيميائية (أو الانزيمات أو الخمائر) التى تبـدأ فى فتح أو تمزيق أرديـة العروس فى الموضع المهيـأ للدخول ، وهنـا تستجيب البويضـة لحيوانـنـا المنوى ببروز صغير يطلقـون عليه اسـم « مخـروط التلقيح » ، ويستجيب هو لها أيضا ببروز ، وكأنمـا البـروزان بمثابة الشفاه التى تمتد وتتقابل فى قبلة طويلة ، والى هنا تظهر على مكونات بويضتنا رعشة نشوانة تستمر حوالى ٢٠ ثانية ، وكأنما اللقاء قـد زلزل زلزالهـا !

وحيث يتقابل البروزان ويلتحمـان ، يتمزق الغشـاءان ، ليصبح لكـل غشاء طرفان متحرران ، ثـم نلحظ بعد فترة لا تتعدى دقيقة واحدة ترابط اطراف الاغشية الممزقـة .. الطرفان الممزقان

لغشاء البويضة يلتحمان بالطرفين الممزقين لغشاء الحيوان المنوى ، وكأنما الرداءان قد حيكا فى رداء واحد ، فيصبح هذا لباسا لتلك ، وهنا تكون البداية فى التحام الكيانين فى كيان واحد ، واندماج الجسدين الصغيرين فى جسد واحد ، مصداقا لقوله تعالى « هن لباس لكم ، وأنتم لباس لهن » ، وكأنما ما يجرى فى عالم البشر له جذور أعمق وأروع فى عالم الخلايا الجنسية، لتكون بمثابة أزواج توفق بينها خطة عمل ما أعظم أسرارها ، وما أعمق ألغازها !

والذكر منا نحن معشر البشر يعتبر حرا طليقا ، الى أن تحتوته الزوجة فى بيتها ، فيستقر ويستكين ، ويحمد الله على ما آتاه ، ولابد للزوجة أن تسير على حكمة مدهشة ومثيرة للمخ والاعصاب حتى لا يفلت منها طيرها (أى زوجها) .. وذلك مصداقا لقولهن « قصقصى طيرك ، ليلوف * بغيرك » .. بمعنى آخر «تنحل وبره » أن كان له وبر .. فبئست الافكار .. افكار البشر !

لكن .. ما الذى دعانا الى ذلك ونحن نتحدث عن مصير خلايا جنسية ؟

لان بويضتنا ــ أو حواءنا الميكروسكوبية ــ تسير على المنوال نفسه .. فهى تقوم بقطع رقبة عريسها ، وتفصل ذيله عن رأسه ، أى انها « تقصقصه » بطريقتها الخاصة ، ثم تسحب رأسه ، وتحتويه فى داخلها .. أضف الى ذلك انها جاءت الى الحياة بحجم يفوق حيواننا المنوى بمئات المرات ، وهى لا يهمها منه الا الرأس ، وفى الراس تتكدس خطة العمل ، وفيها كل الخير .. لانها بمثابة مخزن كيميائى يحتوى على الشفرات الوراثية التى

(*) أى يتآلف بغيرها فيهجرها .. وهذه أمثال عامية أو بلدية .. وعليك أن تهملها أو تستطعمها .. انت حر طبعا ؛

تضمنت بلايين المعلومات ، وهذه تندمج مع معلوماتهـا ، وعندئـذ يحدث الاخصاب ، وتترجم الشفرات الى مخلوق أيا كـان نوعـه وصنفه وحجمه .. ثـم يأتى الى الحيـاة ليلعب نفس اللعبـة من جديـد !

لقـد امتلكت البويضـة حيوانـنا المنـوى ، واحتوتـه فى عشهـا ، تماما كما تمتلك الاناث ذكورهـا فى عش الزوجية .. ولقد ذاب صاحبنا فى كيانهـا ، وما عـاد له من أثر يذكـر ، وبقيت هى لتواصل الحياة بعد أن حصلت على نصفهـا الآخر ، وليكـون من وراء ذلك بعث لحيـاة جديدة قادمـة !

وهكذا يسعى ذكرنا الصغير الى نهايته ، لتبدأ بهـا بدايـة العروس فى الحيـاة ، فاذا لم يصلهـا العريس فى غضون يومين ، ماتت كخلية بكر لـم يمسسهـا ذكـر ، وعندئـذ تصبح أرديتهـا الثلاثـة بمثابة كفنهـا ، وتقـام المراسم الدمويـة لعدة أيـام ، ثـم تخرج مع دمـاء الحيض ، فى حين أن مئات الملايين من حيواناتنا المنوية تتبعثر هنا وهناك كشىء رخيص لا ثمن ولا تسعيرة !

واذا كان ذلك يحدث فى الانسان الـذى يعتبـر نفسه قمـة التطور والخلق على هذا الكوكب ، فان مأساة أخرى قد حلت بذكور الميكروبات التى ظهرت على الارض قبل أن نظهر نحن عليهـا بمئات الملايـين من السنـين .

ففى بعض انواع الميكروبات (البكتيريـا) تتواجـد خلايـا ـيدة .. الخلية بمثابة كائن حى مستقل ، فهى تتغـذى وتتنفس مو وتنقسم وتخلفهـا ذريـة من خلايـا .. صحيح انهـا ضئيلة ـة الضآلـة ، ولا يمكن رؤيتهـا الا بواسطة الميكروسكوبات ، انـه يجب علينـا الا ننسى أن بدايتنا الحقيقيـة كانت أيضـا من ا ميكروسكوبية تتمثل لنا فى حيوانات منوية وبويضات تسبح ـحرك كالميكروبات ، وعندمـا تنقسم البويضة بعد التلقيح ، فان

الخلايــا الناتجــة من انقسامهــا لا تنفصل كما هو الحال فى الخلايا الميكروبية ، بل تتجمع فى كتلة صغيرة ، ثم تكبر الكتلــة بمزيــد من الانقسام ، وتتميز الى خلايــا مختلفــة ، لتؤدى الى تكوين أنسجة فأعضاء فمخلوقات متكاملة .. منها الذكر ، ومنها الانثى .. وكذلك يكون الحال فى بعض الميكروبات ، فمنها الميكروب الذكــر ، ومنهــا الميكروب الانثى ، الا أننــا لا نستطيع أن نميز الخليــة الميكروبيــة الذكريــة عن الخليــة الانثويــة الا اذا حــدث بينهمــا الاتصــال والتزاوج .. فعندما ننظــر تحت عدســات الميكروسكــوب نلحظ خليتين متصلتين .. احداهمــا فارغــة ، والاخــرى مشحونــة ، فأمــا الفارغــة فلابــد أن تكون ذكرا (فالذكر هو الذى يعطى ويقدم دائمــا ، وهو الذى يجب أن يفــرغ من حياته ويموت أولا) ، وأمــا التى امتلأت واكتنزت فهى الانثى طبعــا .. فلقد أعطاهــا الميكروب الذكر كل شىء فى جسيده الدقيق ، وأصبح خالى الوفاض ، محروما من الحياة .. اذ كيف يحيــا بعد أن منحهــا كــل مــا يملك من مادة حياتــه ؟

والى هنا يتجلى لنا تحيز الحياة للانثى بأعظم معانيه .. فلقد شطبت حياة الذكر ، لتكون كلمة فى حيــاة الانثى .. وبهــذا اختفى هــو ، وبقيت هى !

فاذا تركنــا عالم الميكروبات ، وصعدنــا فى سلم المخلوقــات ، لقابلتنــا مجموعــة أخرى من الكائنــات تعــرف باســم الطحالب الخضراء ، وهى تعيش أساسا فى الماء ، وقد تتكاثــر مجموعــات دقيقة منهــا تكاثرا سريعــا ، بحيث تكسب المــاء لونــا أخضر ، وقد نلحظ منها بالعين المجردة نوعــا خيطيا محددا يعــرف باســم طحلب « سبيروجيرا » Spirogyra .. وهــذا الطحلب يظهــر فى المــاء كخيوط خضراء تتماوج معه كما تتماوج شعور الشقــراوات عندما تداعبهــا النسمــات .. المهــم أن طحلبنــا الخيطى الأخضر هذا بسيط التركيب ، فهو يتكون من خلايــا متراصة كما تتراص

« كعوب » القصب أو عقله فى أعوادهـا .. ورغـم أن هذه الخيوط الطحلبية فيها ايضا الذكر ، وفيها الانثى ، الا أننـا لا نستطيع أن نميز بينهمـا الا اذا حدث التزاوج

فأحيانـا ما نرقب تحت عدسات الميكروسكوب خيطين وقـد امتـد أحدهما بجوار الآخر ، واستكان بجانبـه ، وتبـدأ الخلايـا المتراصة فى تكوين بروزات صغيرة كالحلمـة ، ثم تمتد البـروزات الى الخارج وتبرز حتى تتقابـل مع البروزات التى كونتهـا خلايـا الخيط الآخـر ، وبعد أن يذوب الحد الفاصل بين هـذا البـروز وذاك يحدث شيء غريب ، ومنه ستعـرف من هو الذكـر ومن هى الانثى

فاذا فحصت ورأيت خيطا شفافا ليس به من مكونات الحيـاة شيئـا مذكـورا ، فاعلـم انـه ذكـر ، واذا رأيت الآخـر حيـا ومكدسـا بمـادة الحيـاة ، فاعلـم أنـه أنثى .. فلقـد انتقـل السيتوبلازم بما حوى من الذكر ليصب فى الانثى ، كما ينتقـل مثلا كـد الرجل وخيره ليصب فى بيتـه .. بيت الانثى ، مـع الاختلاف طبعا بين سلوك طحلب وانسـان !

كأنما جسم الذكر قد تحول كله الى خلايـا جنسية لتنتقـل الى جسم الانثى ، ويبقى هو على هيئة خاويـة كجلد ثعبان فارغ بعد انسلاخه ، وقد يعتـرض البعض على ذلك ويقـول ، ولمـاذا لا نفترض العكس ؟ .. بمعنى أن مكونـات الخيط الانثوى هى التى تنتقل الى الخيط الذكرى ، فيحيا هو ، وتنتهى هى ؟ .. والجواب لا يحتاج الى فراسة ، ففى الطبيعة ـ كما نراهـا وندرسهـا على مستواهـا الصغير والكبير ـ نلحظ دائمـا أن الذكـور هى التى تعطى ، والاناث هى التى تأخـذ ، ولـم يحدث أن انتقلت الخلايـا الجنسية من الانثى الى الذكر ، والا لكانت الكارثة ، ولأصبحنـا نحن معشر الذكور حبالى !

ثـم نـرتفع فى سلم المخلوقـات درجة فدرجـة ، فتقابلنـا

كائنات اعقد فأعقد ، وفى حياتها امور يجب أن نحزن لها نحن معشر الذكور .. فعندما يبلغ الذكر ويصبح يافعا ، يبدأ فى تكوين أكياس صغيرة مكدسة بخلاياه الجنسية ، وهذا يعنى أن اجله قد دنا ، فبمجرد أن تنطلق خلاياه المنوية فى الماء بالملايين والبلايين ، نراه يضعف ويتهاوى ويموت ، وتسبح الملايين التى خرجت هنا وهناك ، حيث تبحث عن أنثى من نفس نوعها لتلقحها ، وطبيعى أن يتوه من الخلايا الذكرية الكثير ويضل الطريق ، ومن ضل ، فعليه اللعنة .. وما أكثر الضالين ! تماما كما يحدث ذلك ايضا مع خلايانا الجنسية الذكرية .. لا فرق هنا بين ذكر وأنثى يسكنان بركة من ماء وطين ، أو غيرهما ممن ينام على فراش وثير .. المهم أن تعيش الانثى بعد موت الذكر ، لتحتضن الأجنة وترعاها ، ما لم تأتها كارثة تأخذها بما حملت !

وعلينا بعد هذا أن ندرس حالة وردة او زهرة فى عالم النبات ، فالزهرة بمثابة عش الزوجية الذى يجتمع فيه الذكر بالانثى — تعنى الاعضاءالذكرية والانثوية .. فلو فحصنا زهرة فحصا دقيقالوجدناها تتركب من تخت وفوق التخت يتواجد الكأس ، ومن داخل الكأس وريقات زاهية الالوان ، بديعة التنسيق والجمال اسمها البتلات ، وهذه تحيط بالذكر والانثى وكأنهما فى « كوشة » كالتى يصنعها البشر .. صحيح أن « الكوشة » فى حياة البشر لن تقدم ولن تؤخر ، ولكنها فى حياة الزهرة قد تلعب دورا هاما .. ثم نرى من داخل البتلات أو « الكوشة » محاور صغيرة كالخيوط ، وفى نهايتها العليا تتواجد أكياس ، وفى داخل الاكياس ملايين من حبوب اللقاح ، وعندما تنضج الاكياس تتفتح ، وتنطلق منها الخلايا الذكرية (حبوب اللقاح) .. فتذروها الرياح ، لتلتصق بالحشرات التى تزور الزهور ، لتنقلها من زهرة الى زهرة ليكون التلقيح المختلط الذى تباركه الطبيعة (وهذا يعنى أن أعضاء الزهرة الواحدة لا تلقح نفسها) ، ولقد صممت الامور بمواقيت معلومة حتى لا يحدث التلقيح الذاتى .. لكن كل هذا

لا يهمنا بقدر ما يهمنا أن نعرف أن زواج الاقارب غير مستحب .. وسلوك الزهور خير شاهد على ما نقول !

لكن .. أين توجد الاعضاء الانثوية ؟

انها لا تكاد تظهر أو تبين ، فهى هناك فى مكان أمين .. فى قاع الزهرة ، حيث تختبىء بعيداً عن الانظار ، وحولها تتوزع أعضاء الذكور ، وتحيط بها كاحاطة السوار بالمعصم ـ تكريم جديد وغريب لمبيض زهرة فهى لا شك فى الحياة غالية ، كما انها لا تترك مكانها ، بل تبقى فيه مصونة ، وعلى حبوب اللقاح أن تتوزع وتنتشر وتطير بالملايين والبلايين .. رخيصة جداً .. كثيرها يخيب ، وقليلها يصيب ، فاذا أصابت ، كان للمبيض ما يهوى ، دون أن يكلف نفسه مشقة أو نصباً ، وبعدها يكون الاخصاب ، وتلقح البويضات بحبوب اللقاح ، ويتحول المبيض الى ثمرة ، والبويضات الى بذور .. البذور أجنة نائمة كأهل الكهف ، وحولها مخزون من الغذاء الذى تعتمد عليه اذا ما انطلقت البذور من ثمارها لتنبت ، فتعيد الكرة من جديد .

بقى ان نعرف أن الذى يرث عش الزوجية هى الانثى دائما .. نعنى مبيض الزهرة بما حمل ، اما ذكورنا فقد راحت فى خبر كان منذ فترة طويلة ، فلقد ادت مهمتها ، وانتهت رسالتها ، وضاع منها ما ضاع ، وعلى الانثى أن تواصل الحياة لتعطى البذور .

وتلك حقيقة تفرح لها الاناث ، ويحزن لها الذكور .. فمن المعروف أيضا فى اناث البشر ـ كما سبق أن ذكرنا ـ انهن اطول من الرجال عمرا ، كما أن وارثات الرجال (الأرامل) أكثر عددا من وارثى النساء (أن كان من ورائهن ارث) كما أن الشريعة قد أوضحت أن اثاث بيت الزوجية من حق الزوجة لا الذكر .. تماما كما كانت شريعة الحياة مع زهرة !

تسخر الحياة بذكورها اكثر ، عندما تقدم لنا أمثلة أخرى تجعلنا نتوارى منها خزيا ، وكأنما هى بأمثلتها هذه تضع لنا النقط فوق الحروف ، لتشير الينا من طرف خفى بأن الذكر فى حياة أنثاه بمثابة تابع أو طفيلى أو « دلدول » !

ففى مجموعة من الكائنات التى تعيش فى اعماق البحار والمحيطات حيث البرودة شديدة ، والهدوء قاتل ، والظلام حالك ، والمسافات التىتفصل كائنات الأعماق كبيرة وواسعة، نجد أن البحث عن الجنس يشكل امامها مسألة خطيرة وعويصة . . ومن هذه المخلوقات انواع من الأسماك شكلها قبيح وغريب ، ولهذا اطلقوا عليها أسماك الشيطان . . وهو اسم فى الواقع على مسمى .

طبيعى ان الذكر فى هذه الانواع لا ينتظر حتى يبلغ مبلغ الرجال ، ثم يبحث عن أنثاه ، بل عليه أن يطلبها بمجرد أن يفقس من بويضته ، ويعرف كيف يسبح ويعوم ، فربما يأخذ وقتا طويلا حتى يهتدى الى فتاة أحلامه ، أو لا يهتدى على الاطلاق ، خصوصا فى مثل هذه المتاهات الواسعة . . المهم أن الحظ يلعب هنا دورا كبيرا ، فذكورنا دائما تحت رحمة الاقدار ، وهى التى قدر عليها أن تشقى وتبحث وتكد حتى تلتقى بالانثى ، أو يكتب عليها التيه والتشرد حتى الموت !

وقد يصادف ذكر من هذه الذكور انثاه ، عندئذ ينطلق اليها كالسهم المارق ، وحيث يلتقى فمه الصغير بجسدها نر يعضها عضة واحدة . . العضة الاولى والاخيرة فى حياته وبعدها يصبح عبدها واسيرها الى أن يؤدى مهمته ، وينتقل الى رحمة الله غير مأسوف على شبابه !

والى هنا يبرز أمامنا تساؤل هام : لماذا يعض الذكر أنثاه بدلا من أن يطبع قبلة على جسدها العظيم ؟ . . هل يفعل ذلك

بدافع من الانتقـام بعد طول كده وتعبه ونصبـه ؟ .. أم لانهـا قبيحـة ومنفـرة ؟

ليس هناك فى الواقع قبح أو جمـال يمكن أن تـراه العـين لشدة الظلام ، كما ان هذه المخلوقـات لا تعرف معنى الجمال أو القبح او الانتقـام .. لكننـا بلا شك نقف أمام مشهد مثير وحقير، لنقـدم أعجب قصة بين ذكـر وأنثـاه .. فالانثى ــ كما ترى ــ أكبـر مـن الذكـر بمئـات المـرات ، وهـى تستطيـع أن تبتلع منـه فى جوفهـا العشرات لو أرادت ، ولكن العضة الذكريـة دليـل ملموس على أن « مقصوف الرقبة » قد وصـل ، ولا جناح عليـه أن يعضهـا ، ويغرز أنيابه الصغيرة فى لحمها !

وبعد هذه العضـة الغريبـة تلتحـم شفتا الـذكر بجسـم الانثى ، ويتصل نسيجه الحى بنسيجها ، وطبيعى انـه لا يستطيع أن يأكـل بعد هذه العمليـة ، بـل نـراه يعتمـد على أنثـاه فى طعامـه وشرابـه وتنفسه ، وكأنمـا هـو طفيلى من الطفيليـات الحقيرة .. ذلك أن دورتـه الدمويـة تتصل بدورتها ، وعن طريق هذا الاتصال ينساب دمهـا اليـه ليجرى فى عروقـه . فيتغـذى ويتنفس ، ثـم يلقى بنفايـات عملياتـه الكيميائيـة الحيويـة الى دمائهـا .. وبهـذا يضحى الذكر بشخصيته وكيانه ، وتضمحـل فكوكـه وأسنانـه وخياشيمه وزعانفـه وامعاؤه .. الخ ، وكأنمـا هـو قد أصبح بمثابـة نسيج حى أو مجرد جهـاز تلقيح ترعـاه لانثى وتغذيـه حتى ينتج لها الحيوانات المنوية فى الوقت المناسب ، م يقذفهـا فى الماء عندمـا تطلق هى فيـه بويضاتهـا ليحـدث قيح .. لكن الغريب أن ذكرنـا ليس له فى الامر ارادة ، بمعنى لا يستطيع أن يتحكم فى افراز حيواناتـه المنوية على هواه .. على هواهـا هى .. ذلك انهـا وليـة نعمته ، ودماؤهـا هى ، تتحكـم فى غدده الجنسية .. فلا تنضج الا بأمرهـا ، ولا تفرز واناتهـا المنويـة الا برغبتهـا .. ويا قلب لا تحزن على مصـير ـر من الـذكور !

لكن ذكرنـا هـذا الطفيلى أحسن حظـا من ذكـور أخـرى قدمتهـا الطبيعـة قربانا على مسرح الجنس ، لتؤكـد لنـا مرة ثانية أن الحيـاة للانثى ، والموت للذكـر ، وأن التضحية به واجبة الأداء * ، ويكفى أن نـذكر هنـا حالة واحدة من حالات كثيرة ، ليتبـين لنـا القسـوة ، وعظم المأسـاة !

عندما تطير ملكـة نحـل شابة عـذراء الى طبقـات الجـو العليـا فى رحلة « شهر العسـل » ، تنطلق وراءهـا مئات الذكور فى سباق مريـر ، وكل ذكـر يمنى نفسه بشرف جمـاع الملكـة ، ولهـذا يبذل قصـارى جهـده فى اللحاق بهـا قبل غيره ، وهو لا يـدرى أن الموت سيكون له بالمرصـاد !

والواقع أن الحياة قد وضعت ذكورها تحت اختبار عويص ، وكأنمـا فكرة الطيران وراء الملكـة لا تخـرج عن كونهـا مسابقـة شريفة بين هذا المهرجان الطائر من العرسـان .. اذ ممـا لا شك فيـه أن الذى يلحق بالملكـة وينالهـا فى عليائهـا لابـد أن يـكون هـو أقوى الفتيان ، وبهـذه الطريقة تقدم الطبيعـة للانثى أكفـأ واحسن ما أنتجت من العرسان لتورث الاجيـال القادمـة قوتـه وصحتـه وخلوه من العاهـات والامراض .. وهذا أمـر لا غبـار عليه ، بل هـو مستحسـن وفعـال فى أمور الاختيار الطبيعى الذى تسعى اليـه الحيـاة بين مخلوقاتهـا !

ويلحق اقـوى الذكور بملكته ويحتضنها بعد كد وتعب ، لكن عريسنا الفائـز لا يسعـد بالوصال الا للحظـات قصار ، فبمجرد أن يحدث الاتصال الجنسى ، تنتزع الملكـة اعضاء العريس التناسلية

(*) انظر فى هذا الصدد كتابنا « زوجات مفترسات » .. كتاب الهلال — الناشر دار الهلال القاهرة .

وتستولى عليهـا ، وتدخلهـا الى تجويفهـا .. هذا ولقـد كـان الظن السائـد الى وقت قريب أن الملكـة لا تتقبل الا فتى واحدا ، ولكن بعض علمـاء البيولوجيـا السـوفييت قـد أوضحـوا أن الملكـة تستقبل عدة عرسان أقويـاء ، وتفعـل بهم مثلمـا فعلت بأولهـم .. المهم أن الملكـة بعد هذه الرحلة تعود وقـد أصبحت أنثى فى الظاهـر ، وفى الباطن تحمـل أعضاء الذكر وأعضاء الانثى ، لتبقى خصيبة طيلـة حياتهـا ، فلا تحتـاج الى ذكـر آخـر بعـد ذلك أبـدا !

وتنتهى مراسـم الـزواج ، وتستقبـل الرعيـة ملكتهـا استقبالا لائقـا ، وقـد تعود الذكـور التى فشلت فى مهمتهـا ، فلا تجد من الرعية الا الاهمـال والاحتقـار ، كما أنها لا تطعمها ، فلا فائـدة الان منهـا ، وبهـذا يموت الذكـور جوعـا وكمدا ، وتحيـا الانـاث !

لكن المأسـاة الحقيقيـة قـد حلت بعريسنـا الـذى حـاز شرف جماع الملكـة ، فمع خروج أعضائـه التناسلية التى نزعتهـا الملكـة فى داخلهـا نزعـا ، خرجت أيضـا أحشـاؤه من شـدة النزعـة ، لتظهـر معلقـة فى رحلة العودة كراية صغيرة ترفـرف وراءهـا ، رمـزا للتضحيـة بالذكـر ، وعلامـة على انتصـار الانثى .. أطـال الله فى عمرهـا !

وعندما يحس العريس الشاب أن أكياسه الجنسية وأحشاءه خليـة قد سلبت منه سلبـا ، يحس أيضا أن « روحـه » قد جت ، فتتهـاوى قبضتـه على أنثـاه ، ويتبـدل كـل شىء فى ات .. القـوة الى ضعف ، والحب الى مـوت ، والمـوت الى ـاة .. حياة أجيال أخـرى قادمة كان الذكر فيها هو الضحية ، ـذا يسقط البطـل من عليائه بعد أن وهب حياته لغيره !

مات الذكـر .. تحيـا الانثى !

وهن أرقى منا وراثيا

المرأة اضعف من الرجل ظاهرا .. لكنها أرقى منه واقوى باطنا !

والظاهر عادة فيه خداع ، حتى ولو اعجبتنا مفاتنه .. لكن الباطن هو الجوهر ، وهو الاهم والاعمق من الظاهر .. وباطن المرأة يختلف عن ظاهرها ، اذا لو اطلعنا على بواطن الامور فيها ، لسلمنا لها بالسيادة ، وعقدنا لها لواء الامارة .. أيضا باطنا لا ظاهرا !

وقد يبدو هذا لنا — نحن معشر الذكور — افكا وبهتانا مبينا ، اذ كيف نتجرأ وننادى بالسيادة والامارة للمرأة ، ونخرج بذلك على التقاليد المتوارثة من قديم الزمن ، والتى وضعت الرجل فى مركز أقوى من مركز المرأة ؟

والواقع أن الحقيقة قد تكون أحيانا قاسية ومريرة .. فلقد فضحت البحوث العلمية الامور ، وكشفت المحظور ووضعت لنا النقط فوق الحروف لتقول لنا اننا جميعا ابناء آبائنا وأمهاتنا .. لكننا نحن معشر الذكور منتسبون الى أمهاتنا اكثر مما نحن منتسبون لآبائنا .. بمعنى آخر نقول : نحن أبناء أمهاتنا فى المقام الاول ، ثم يأتى الآباء فى المرتبة الثانية !

كلام — لا شك — غريب ، ولابد له من برهان ودليل !

فالرجل — فى الظاهر — أقوى .. حقيقة قديمة ومعروفة ، فهو يتميز عن المرأة بقوة جسدية ، وعضلات قوية ، وخشونة واضحة ، ولهذا يتغلب عادة على المرأة لو دخل معها فى معركة بالايدى أو فى جولة داخل حلبة المصارعة (وقد يحدث العكس فى البيت أحيانا ، لكن هذه حالات — والحمد لله — شاذة ونادرة ، ولا حكم على الشواذ) ومن اجل هذه القوة الظاهرة فى الرجل ، كان لابد أن تكون الأرقام القياسية فى الالعاب الرياضية من نصيبه دون الانثى ، لكن ذلك ليس مفخرة يباهى بها الرجل ويعتز ، لان عضلات الحصان والفيل أقوى من عضلات الرجل .. ولهذا فان زينة الرجال العقل وليست العضلات !

لكن ليس معنى ذلك أن الانثى تحب فى الرجل عقله دون عضلاته ، بل تسعى لاختيار الحسنيين .. عقل يسود به على غيره ، وعضلات تنفعها ، ليكون بها حامى حماها ، والمدافع عنها ، وقد يدخل فى معارك طاحنة من أجل خاطرها .. صحيح أن ذلك لا يحدث الان فى أغلب الاحيان ، ولكن قوة العضلات كان لها شأن عظيم فى الايام الغابرة .. ايام أن كان الانسان الاول يعيش فى الكهوف أو يهيم على وجهه فى البرارى والقفار والغابات، ولم تكن هناك عادات ولا تقاليد أو قانون .. الا قانون العضلات ، وبتلك العضلات قضى الذكور الاقوياء على الذكور الضعفاء ، لتكون لهم السيادة على مجتمع الحريم ، وباسم هذه النعرة الكاذبة — نعرة السيادة — قتل الذكور اخوتهم أو أبناءهم أو آباءهم ، وعاشت الاناث !

لكن .. لكل شىء ثمنا — فنحن أقوى ظاهريا ، والقوة تحتاج الى طاقة تغذيها ، ولهذا فنحن « تحرق » أنفسنا أكثر من الاناث ، ونستهلك من طاقاتنا ما يفوق طاقتهن .. اذ أننا فى حياتنا كالأفران المشتعلة ، لكن اشتعالها بطىء ، وحرقها لوقودها (السكر) يسير على خطوات متتابعة ، ليسرى كل شىء فى داخلنا

بحساب ، وتنطلق الطاقــات بمقدار ، لتؤجــج فى داخلنــا جذوة الحيــاة .. ومن الغــريب أن الشعلة الحيــوية فى الرجال أكثــر توهجــا منها فى النساء ، ولهذا تنطفىء فينــا بمعدلات أكثــر من انطفائهــا عنــدهن .. يعنى أننـــا نسرف فى طاقاتنــا ، وهــن المقتصدات ، ويعنى أننــا « نحتــرق » أسرع منهن ، ويعنى أننــا أقصر منهن عمــرا !

لكن عدة أرقــام قليلة سوف توضح لنا هذه الحقيقــة .. فبمقارنــة الطاقــة التى يبذلهــا الرجــل والمرأة (المتساويــان فى السن والــوزن) فى بعض الانشطة اليومية المختلفــة يتبــين لنــا مقــدار ما يبذلــه كلاهمــا مقدرا بالسعر الحرارى فى الدقيقــة الواحــدة ــ هذا والسعر أو الكالورى وحدة حرارة تنطلق من أى شىء يشع موجــات حرارية ــ بما فى ذلك أجسام البشر والحيــوان نتيجــة للعمليات الحيــوية الناشئــة من التفاعلات الكيميائية التى تغذيهــا عمليات الاحتراق فى أجسامنا !

نوع النشاط	المــرأة	الرجــل
١ ــ وهما مستلقيان فى راحة تامة	٩٨ر٠	١٩ر١
٢ ــ عند الوقوف	١١ر١	٢٥ر١
٣ ــ مزاولة الاعمال المكتبية	٣١ر١	٦٠ر١
٤ ــ تقشير البطاطس (أو البصل اذا أردت)	٢٩ر١	٧٠ر٢
٥ ــ غسيل الأطباق	٥٣ر١	٣٠ر٣
٦ ــ وهما يغتسلان ويلبسان	٣٠ر٣	٥٦ر٣
٧ ــ أثناء السير جنبا الى جنب	٩٠ر٢	١٠ر٥
٨ ــ ترتيب السرير	٤٠ر٥	٠٠ر٧

تلك هى بعض الانشطــة العادية التى تؤكــد لنا اختــلاف الطاقــات المبذولــة بين الجنسين ، وتــوضح أننــا نحتــرق فى حياتنــا أسرع من السيدات ، حتى ولو تساوى العمــر والــوزن

والمجهود .. ثم أن الرجال هم الذين حملوا فوق رؤوسهم كل الأعباء والمجهودات الهائلة التى تحتاج بدورها الى طاقات أعظم مما يبذله الاناث .. أضف الى ذلك أن للطاقات والاحتراق نفايات ، والنفايات تؤدى ـ على المدى الطويل ـ الى تقييد جزيئات الحياة وشلها عن أداء رسالتها .. فكلما زادت النفايات الحيوية كلما زادت « كلبشات » الجزيئات الحية ، وهذا ـ بلا شك ـ يؤدى الى اخماد جذوة الحياة ، فتنطفىء فى الرجال أسرع مما تنطفىء فى النساء .. والارقام التى قدمناها فى الفصل السابق خير شاهد على ما نقول .. فأين المساواة وها نحن نرى كيف تتحيز الحياة لاناثها دون ذكورها ؟

لكن الذين ينادون بالمساواة بين الرجل والمرأة لا شك مخطئون أو مخطئات .. فطبيعة الحياة فى التكوين الجسدى والوراثى والفكرى يؤكد أن الذكر ذكر ، وأن الانثى أنثى ، ومن سلك سبيل الآخر « فليس منا » .. فزوال الحواجز بين الذكر والانثى ليس فى صالح الجنس والنوع ، « ولعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال » .. ولقد اختلط الحابل بالنابل ، فلا نكاد نميز الذكر عن الانثى الا بما وهبتهما الحياة من مميزات ظاهرة وباطنة ، لتقول لنا : هذا ذكر ، وتلك أنثى !

نعود لنؤكد أن الذكر ـ بطبيعة تكوينه العريض ـ يختلف عن الانثى فى أمور كثيرة .. نعومة البشرة لهذه وخشونة لذاك .. صوت حنون لها ، ولنا صوت أجش ، صدور ضامرة فينا ، ولهن الصدور البارزة .. كما أن الاعضاء التناسلية فى هذا تختلف عنها فى تلك .. لكن هناك اختلافات أخرى تشريحية وفسيولوجية وكيميائية تؤكد عدم المساواة .. من ذلك مثلا .. وكما جاء فى كتاب « جسم الانسان » الذى نشرته مكتبة

« لايف » العلميــة ، وتحت عنــوان « بعض الاختلافــات بــين الجنسين » نذكــر الحقائق التاليـــة :

❋ وزن مخ الرجل فى المتوسط اكبر من وزن مخ المراة .. فحيث يصل وزن المخ الصغير والمتوسط والكبير فى المراة الى ٣٧ر٠٤ ، ٤٤ر٩٨ ، ٥٤ر٦٨ أوقيــة على التــرتيب ، نرى هــذه الاوزان نفسها فى الرجال تصل الى ٣٨ر٨٠ ، ٤٩ر٣٨ ، ٦٠ر٠٥ اوقيــة .. لكن ليس معنى ذلك ان تفكير الرجــل أكفأ من تفكير المراة .. بــل يعنى ان جمجمة الرجــل اكبــر من جمجمتها ، اذ ليس بحجــم المخ يقاس الــذكاء !

❋ قلب الرجــل اكبــر من قلب المـــراة .. ليس فى الحب أو العاطفــة ، ولكن ذلك يرجــع ــ فى المقام الاول ــ الى حاجة الرجل الى طاقة أكبر من طاقة المــراة ، وعليه فلابد أن تكون « مضخة » الدم فيــه أكبر ، ليحرق أسرع .. هذا ويبلغ وزن قلب المــراة ثمــان أوقيات ، فى حــين يبلــغ وزن قلب الرجل عشر أوقيات فى المتوسط .. اى بزيادة قدرها ٢٠ ٪ !

❋ دماء الرجــال أغزر من دماء النساء .. اذ يحتــوى جســم الرجــل فى المتوسط ١ر٥ جالــون من الــدم ، فى حين أن جســم المرأة فى المتوسط لا يحتوى الا على ٠ر٨٧٥ جالــون ، اى بزيــادة تصــل الى حوالى ٧٠ ٪ !

❋ يبلغ متوسط المساحة الكلية لبشرة الرجل ٢ر٢١ ياردة مربعه فى مقابــل ١ر٩٣ ياردة مربعة للمــراة !

❋ كمية المــاء فى أجسامنــا غــير كميتهــا فى أجسامهن .. اذ يحتوى جسم الرجل على ٦٠ ٪ من وزنه ماء فى حين أنجسم المراة يحتوى على ٥٤ ٪ من وزنه ماء !

❋ من المعروف طبعا أن عضلات الرجل أقوى من عضلات المرأة .. لنا من العضلات حوالى ٤٢ ٪ من وزن أجسامنا ، ولهن منها ٣٦ ٪ من وزن أجسامهن !

❋ نسبة الدهون فى المرأة تصل الى ٢٨ ٪ من وزن جسمها ، وفى الرجل حوالى ١٨ ٪ .. لكن لجلد المرأة وبشرتها نصيب محمود من تلك الدهون ، ولهذا كانت بشرتهن بضة ملساء .. كما أن اختزان الدهون فى النساء يجعلهن كالجمال .. فدهون سنام الجمل تتحول عند العطش الى ماء ، ولهذا سمى سفينة الصحراء .. لكن الدهون فى الانثى مخزونة لتتحول وقت الحاجة الى طاقة ولبن ، ثم انها قد تكون عازلا ضد تقلبات الجو اذا كانت تحت البشرة !

❋ المساواة الوحيدة بيننا وبينهن تتركز فى العظم .. ويالها من مفارقة غير سعيدة ، فلنا ولهن من العظام ١٨ ٪ من وزن أجسامنا وأجسامهن .. ولهذا ليس صحيحا أن الرجل ينقص ضلعا عن المرأة !

❋ ولنا نحن معشر الرجال عمود فقرى اطول فى المتوسط عن النساء ، اذ يصل طول هذا العمود الى ٢٨ بوصة ، ويصل فيهن الى ٢٤ بوصة !

❋ واتساع رئتى الرجل تختلف اختلافا واضحا عن رئتى المرأة (عند سن ٢٥ سنة) .. ففى الشابة الصغيرة الحجم يصل اتساع رئتيها الى ٨٢ر. جالونا ، يقابلها فى الرجل الصغير ١٣ر١ جالونا !

❋ وفى الشابة المتوسطة الحجم ١١ر١ جالونا يقابلها ٦٩ر١ جالونا فى الشاب من الحجم نفسه !

* وفى الاحجام « المحترمـة » أو الكبـيرة من النســاء ٤٧ر١ جالونا ، وفى الرجال الضخام ٣٨ر٢ جالونا !

* لهذا تتنفس المراة اسرع من الرجل .. ففى فترات الاسترخاء، والراحـة تتنفس المـرأة بمعدل ٢٠ ـ ٢٢ مـرة فى الدقيقـة ، فى حين أن الرجـل يتنفس بمعدل ١٤ ـ ١٨ مرة فى الوقت نفسه !

* لكن حجـم الهواء الـذى يستنشقـه الرجـل فى عمليـة الشهيق أكبر بمرتين من حجم الهـواء الذى تستنشقـه المرأة ، فعند الراحـة يستنشق الرجـل حوالى ٨٠٠ سنتيمترا مكعبـا يقابلهـا ٣٦٠ سنتيمترا مكعبا عند المرأة !

وفى المجهودات البسيطة يستنشق الرجـل حـوالى ١٧٧٠ سنتيمترا مكعبـا يقابلهـا ٩١٠ سنتتيمترات مكعبة عند المرأة !

وفى المجهودات العنيفـة يستنشق الرجـل حـوالى ٢١٠٠ سنتيمترا مكعبـا يقابلهـا ٩٣٠ سنتيمترا مكعبا عند المـرأة !

واعمق شهيق يستنشقه الرجـل يصل الى خمسة لتـرات فى حين ان المراة لا تستطيع أن تستنشق أكثر من ثلاث لترات !

* دم الرجل بلا شك ـ اثقل من دم المرأة ، لكن ليس معنى ذلك انـه ثقيـل الظـل أو « سـم على دمـه » ! كمـا يحـلو لبعض فتياتنـا وسيداتنـا أن تطلـق علينـا مثـل هـذ التعبير فى حـالات عـدم الرضـا ـ لكن المقصـود بالدم الثقيـ انـه اكثـر كثافـة فى كرات الدم .. ففى كل ملليمتر مكعب مر دمائنا نحن معشر الرجال ما بين ٦ر٤ ـ ٢ر٦ مليون كرة دم حمراء ، يقابلهـا ٢ر٤ ـ ٤ر٥ مليونا عند النساء !

لكـل هذه الاسباب وغيرهـا جاء الحكم البيولـوجى بعـدم المساواة بين الرجـل والمرأة .. فلقـد تزود الرجـل بكفـاءات

جسدية تؤهله لخوض غمار الحياة ومجهوداتها العنيفة ، ليحترق أولا ، ويموت أولا — فى أغلب الاحيان .. لكنها — أى الحياة — لم تشأ أن تعرض المرأة لما لا تحب وترضى ، وكأنما قد وضعت لها الحدود ، لتحافظ عليها وتصونها ، ولكنها — أى المرأة — قد تمردت على طبيعتها ، وتعرضت لما لا تحب وترضى ، عندما خرجت الى معترك الحياة وويلاتها ، فبدأت بعض الأمراض — التى نتعرض نحن لها — نتيجة للاجهاد والتوتر — تزحف عليها !

وبالرغم من ان أجسام الرجال أقوى من اجسام النساء ، الا ان جسم المرأة أعقد تكوينا من جسم الرجل ، كما ان العمليات الفسيولوجية والكيميائية فى المرأة أرقى وأكفأ من الرجل ، فهناك سلسلة طويلة من الاحداث الكيميائية والهرمونية التى تجرى فى جسم الانثى ، ولا يعرف جسم الذكر عنها شيئا .

فبروز النهدين صفة هامة جدا عند الفتاة أو المرأة ، فهى من العلامات الاساسية الدالة على أنوثتها ، اذ لا نستطيع احيانا أن نفرق بين فتيان عصرنا هذا وفتياتهم ، خصوصا عندما تهدلت الشعور على القفا ، وضاقت « البنطلونات » على الارداف — أرداف الفتيان « المخنثين » (ظاهرا لا باطنا) ، وتقاربت الى حد كبير ملابس هؤلاء بهؤلاء ، كما تقاربت الامزجة والميول .. عندئذ لم يبق الا أن تدور دورة كاملة حول الفتى أو الفتاة لتنظر الى الصدر وما حمل ، فاذا رأيت عليه تضخما واضحا، فاعلم انها فتاة ، وان كان غير ذلك ، فعليه اللعنة !

لكن كل هذا قد لا يهمنا بقدر ما يهمنا أن نعرف أن من وراء بروز النهدين سلسلة من الاحداث الكيميائية والهرمونية التى تسيطر على نموهما وتشكيلهما ، ليقوما — فيما بعد بأداء وظيفتهما التى خلقا من اجلها ، لكن بعض النساء —

خصوصا « المودرن » منهن ـ قد ضربن بهذا المبدأ عرض الحائط ، فالمحافظة على النهدين أغلى وأثمن من استخدامهما فى ادرار اللبن للرضع من الاطفال ، وكأنهما قد جاءا من أجل ادرار لعاب الرجال (وما ابرىء نفسى) ! .. وتلك نكسة فى تفكير النساء والرجال .. ذلك انمعظم الرجال ـ أن لم يكن جميعهم ـ يهوون الثدى النافر ، ويفرون من الثدى المتدلى أو الضامر ، وكأنما لازالت ميول الاطفال الرضع تملك عليهم مشاعرهم واحاسيسهم ، وهذا ما يسعد النساء حقا ، ولذلك فقد يقولون عن الرجل ـ فى بعض المواقف ـ انه طفل كبير ! .. كما ان الثدى الشامخ يعتبر احدى المعالم البارزة فى الانثى ، ومن اجل هذا اعتبروه فى مسابقات الجمال احد الاسس القوية للفوز باللقب ، رغم انه قد جاء ليؤدى وظيفة فسيولوجية هامة .. ولكن الهرمون الجنسى يزين لنا الامر ، فتسخر النساء منا أو به تتباهى !

كذلك تعتبر الانثى أكثر تعقيدا فى الخلق من الذكر ، خصوصا عندما نأخذ فى الاعتبار عملية ادرار اللبن عند الرضاعة ، وهى عملية معقدة تخضع لسلسلة من الأحداث الكيميائية والهرمونية التى تسيطر عليها الغدد .. اضف الى ذلك ان وظائف الغدد الصماء عند المرأة أعقد من غدد الرجل .. فهى التى تسيطر على تجهيز البويضة ، وهى التى تقوم باعداد المهد أو العش الذى يستقبل البويضة عند تلقيحها ، ثم استقرارها فى الرحم ، فاذا لم يحدث الاخصاب ، بدأت عمليات هرمونية وكيميائية جديدة لتنظيف الرحم « وكنسه » ، ثم تجهيزه من جديد فى الشهر التالى لبويضة اخرى قادمة ، فاذا تلقحت وبدأت فى تكوين الجنين ، ظهرت جيوش من الهرمونات التى تتجول ليل نهار فى دماء الحامل والجنين لتؤثر فيه وتشكله ، كما تؤثر على جسم الحامل وتجعله اكثر انوثة .. ذلك ان جسمها يقيم استعدادات

« ومهرجانات » حيوية ، وكأنما الغدد تعزف بهرموناتها سيمفونية كيميائية فيها نغمة الحياة الرائعة ، وكأنما هى أيضا ترحب بقدوم حدث سعيد ، وضيف جديد ، ولهذا يدب النشاط فى الأنسجة والأعضاء ، وتصير البشرة غضة بضة ملساء ناعمة لامعة ، وتتكور النهود وتصبح أكثر شموخا، وبالاختصار تصبح المرأة فى أشهر الحمل الاولى بمثابة وردة متفتحة ، وكأنما هى تتورد بالنشاط والحيوية ، ولهذا قد يقابلك من الذكور من يقول : ما أمتع جماع الحامل ، وهو قول له سند من الصحة والواقع !

كل هذه الاحداث الرائعة التى تعرضنا لها باختصار شديد ، لا تعرف أجسامنا عنها شيئا نحن معشر الذكور .. كل ما نعرفه هو ذلك الاحساس اللذيذ الذى لا يستمر الا وقتا قصيرا ، ومن وراء ذلك أنثى تثيرنا ، وهرمون يفرز فينا ، فيجعل كل شيء حلوا فى أعيننا ، ثم نقذف خلايانا الخصيبة ، ونهبط ونخمد وننام ، وبهذا ينتهى الامر عندنا بأسرع مما بدأ ، ليبدأ عندها بسلسلة معقدة من الاحداث الفسيولوجية والهرمونية والكيميائية التى تستمر شهورا طويلة ، وليس دقائق معدودة تنتهى بانتهاء مفعول الهرمون فينا ، فمن اشهر تسعة للحمل الى سنة أو تزيد للرضاعة .. وكأنما لنا نحن معشر الذكور لذة الجنس ، ولها بعد ذلك النصب والتعب ، ولكن ذلك يهون عندها لانبل غرض ، وأروع مقصد .. ولهذا كرمنا أمومة الام فى عيد يقام كل عام ، ولم نفكر فى اقامة عيد للاب ، لأن الأم بيولوجيا وعاطفيا اغلى من الأب !

لكن سيادة المرأة بيولوجيا على الذكر تتضح اذا ما تعمقنا فى بواطن الامور ، وتعرضنا لأساسيات الخلق ، وعندئذ سيتبين لنا أننا نحن معشر الرجال ننتسب الى أمهاتنا اكثر مما ننتسب الى آبائنا .. بمعنى أوضح : أننا أبناء أمهاتنا ،

ومن هنــا فان عامــة الناس على حق عندمــا يقولــون « الولــد لخــاله » ، وهو تعبير مهــذب وبديــل عن قولهم « الولد لأمه » !

لقد دلت البحوث العلميــة على أن مكونات الانثى الوراثيــة اكفــأ وارقى وانقى من مكونــات الذكــر ، واكثــر منها فاعلية ، ولكى نوضح هذه الحقيقة المرة على قلوبنــا نحن معشر الذكــور ، كــان لابد أن نتعرض قليلا للباطن الذى لا تراه عيوننــا .. ففيه الاساس ، والاساس بالنسبة للانثى عريض ، وللذكر هزيل !

لقــد سبق ان ذكرنا أن الذى يحدد صفات اى مخلوق على هــذا الكوكب مكونات وراثية دقيقــة غاية الدقة ، ولهذا لا يمكن أن نراها الا بمجهــر ، وحتى لو رأيناها ، فانهــا لا تثــير فينــا فكرا ولا عجبــا ، ومع ذلك ففيهــا أعظم فكرة ، وادق تخطيط ، وأروع سر من أسرار الــكون والحيــاة على الاطلاق .. المهــم أن هــذه الخيوط الدقيقــة التى تبدو كعلق أو « مقصات » صغــيرة للغايــة تحتــوى على شفــرة الحيــاة التى تحدد لكــل كائن حى صفاتــه الوراثيــة التى سيأتى بهــا الى الوجود .. حمــارا كــان هذا الكائن او خنزيــرا أو حشرة أو نباتــا أو انسانا ، فالانســان يبــدأ حياته بخلية ملقحــة ، نصف مكوناتهــا جــاء من الانثى فى بويضة ، والنصف الآخر جاء من الذكر فى حيوان منوى ، وعندما تختلط المكونات ، تنتج لنا سبيكــة وراثيــة جديــدة ، تؤدى الى تكوين جنين جديد ، وقــد يأتى الى الحيــاة أو لا يأتى !

البويضة الملقحة ــ اذن هى البداية ، وهى السجل الوراثى المكتوب بآلاف الملايين من الشفرات أو المركبات الكيميائيــة التى لــو ترجمناهــا على هيئة كتب ، وكتبناها بحروفنــا وكلماتنا ، لملأت المجلدات الضخمة . هذا بالرغــم من أن وزن هذه المعلومات

الوراثية لا يزيد عن ستة أجزاء من مليون مليون جزء من الجرام !..
لكن لا يجب أن تخدعك هذه الضآلة وزنا وحجما ـ كل ما فى الامر انها أكوان فيما وراء حدود الحس والبصر « ولكن أكثر الناس لا يعلمون (١) » .. وكل ما يهم الناس فى ذلك نشوة الحب وحلاوة العاطفة ولذة الجنس .. الخ

البويضة الملقحة بمثابة النسخة المخطوطة التى ستطبع منها ملايين وبلايين النسخ أو الخلايا التى تشكل الجنين الى أنسجة وأعضاء .. يعنى هذا أن كل خلية جسدية فى اجسامنا تحتوى فى نواتها على ٢٣ زوجا من المخطوطات او الكروموسومات التى قدمناها فيما سبق .. كل واحدة منها نسخة طبق الاصل من صاحبه ، عدا الزوج الاخير رقم ٢٣ ، فهو فى الانثى غير الذكر ، وهو الذى سيحدد ـ بمعلوماته الوراثية ـ ان كان المولود سيأتى الى الحياة ذكرا أو أنثى ، وسوف تترجم هذه المعلومات الوراثية فى مرحلة من مراحل نمونا الى خطة عمل .. الخطة تتحول الى صفات ذكرية أو أنثوية لنراها بعيوننا ، ونميز بها كلا الجنسين .. لكن الاساس موجود فى الكروموسومات المحددة لجنس المولود ، فان كان أنثى ظهر فيه الزوج الثالث والعشرون على هيئة كروموسومين متشابهين تماما ، نطلق عليهما س س (أو XX) ، وان كان ذكرا ، ظهر هذا الزوج على هيئة س ص (أو XY) .. والى هنا تتضح لنا حقيقة مرة وساخرة ، ذلك أننا نحن معشر الذكور مخلطون ، كما أننا أيضا ننسلخ من الانثى ، ثم ننتسب اليها من خلال الكروموسوم س الحريمى الموجودة فى مكوناتنا الوراثية التى تحتويها كل خلايا أجسادنا ، ولهذا يبدو انها ظهرت أولا ، ثم جاءت الذكور بعد ذلك ، ومما يؤيد هذه الحقيقة أن المخلوقات الاخرى

---

(١) التفاصيل الكاملة لهذا الموضوع فى سلسلة المؤلف بعنوان « سائح فى ملكوت الله » فى الجزء الثالث.. « نحن كتب مكتوبة » .. تحت الطبع .

الاقـل منا شأنـا ، والتى أشرنـا اليها فيما مضى من صفحـات تسود فيها الاناث ، وتتوالـد عذريا دون حاجة الى الذكر .. فاذا تكرمت الحيـاة وأرادت انتاج بعض الذكور ، فانهـا تنشـأ من الانثى !

والاناث أنقى منـا وراثيا .. لأن خلاياهـا تحتوى على الزوج س س ، فى حـين أن خلايانـا « مخلطـة » .. لاحتوائهـا على س ص .. كروموسوم « س » الانثوى جـاء من الانثى ، والآخـر « ص » الذكرى جاء من الذكر !

كمـا أن الانـاث تسـود علينـا كـذلك وراثيـا من خـلال الكروموسوم « س » الحـريمى ، اذ لـو اطلعت على حجم هـذا وذاك تحت الميكروسكوب ، لتبين الك أن الكروموسـوم المحـدد للجنس فى الانثى أضخـم وأكبر من الكروموسوم المحدد للجنس فى الذكـر .. يعنى أن الحريمى « سوبر » كروموسـوم (تمامـا كالسجائـر السوبر) ، أمـا الذكرى فأقل شأنا ، ولو وضع الاثنان فى كفتى الميزان الوراثى ، لرجحت كفـة الانثى على كفة الذكـر ، وكأنما نفس قصة أنثى سمكة الشيطـان الضخمـة مـع ذكرهـا « الوضيع » قد عادت لتتكرر هنا بصورة أخرى .. فكما يعتمـد هذا الذكر على أنثاه فى حياتـه ، كذلك نعتمد نحن معشر الرجـال على الكروموسوم الحـريمى « س » فى بعض مكوناتنـا الوراثيـة الهامة ، وهذا يعنى ــ بلا جدال ــ أن الكروموسوم المحـدد للانوثة قد عقدت له السيادة ، ورفعت له رايـة الوصاية على كروموسومنا المحـدد لصفات الذكورة !

ويحيا س ، ويسقط ص .. وهكذا ربما هتفت الحيـاة ، قديـم الزمن !

لكن ضخامة الكروموسوم « س » ليس من قبيـل تحصيـل الحاصل ، ولا هو اختزن فى طيـاته دهـونا أو طعـاما لتجعله

سمينـا كبعض أصنـاف من البشر ، بـل أن مجيئـه فى الخليـة بهذا السمو والإستعلاء يعنى الكثير ، ففيه معلومات وراثية أخرى بجوار المعلومات التى تحـدد جنس الانثى ، ولو لـم تنتقـل الينا هذه المعلومات من الانثى ، لكانت مصيبتنـا ثقيلة وفادحـة ، ذلك أننـا لا نستطيـع أن نعتمـد على كروموسومنـا ص لكى يورثنـا مـا قـد يغيب عنا من الصفات الوراثية التى تنتقـل الى تكويننا من الانثى ، فهو لا يحمـل فقط الا الخطـة الوراثيـة التى تترجـم فيمـا بعد وتجعلنـا ذكورا ، لكن العلمـاء قـد اكتشفـوا عليـه أيضـا خطة عمل وراثيـة لتورثنـا الشعر الذى ينبت على آذاننا نحن معشر الذكور ــ كلما تقـدم بنـا العمر .. فبئست الخـطة ــ خطـة الكروموسوم « الذكـر » ! .. فماذا يفيدنـا نحن ان نبت الشعـر على الاذن أو لـم ينبت ؟

لكن .. ماذا يعنى كـل هذا بالنسبة للذكـر والانثى ؟

يعنى ــ فى الواقع ــ الكثير جـدا ، فلقـد اكتشف العلمـاء ـر من ثلاثين مرضـا وراثيـا لها ارتبـاط مباشر وغـير مباشر ـروموسوم الجنس .. بعضهـا خطير ، والبعض الآخر قد لا يكون ـطيرا ، لكن الغريب هنـا أن الخطورة تتركـز وتنصب على الذكر ون الانثى !

فمن الامراض الوراثيـة التى قد تؤدى الى المـوت مـرض ـروف باسم النزف الدموى (هيموفيليا (Haemophilia ـندمـا يحدث جرح ــ ولو طفيفا ــ فى الحامـل لهـذا المـرض ـراثى ، فانـه ينزف حتى يمـوت ، دون أن يلتئـم الجـرح ـدا .. فالمسئول عن التئـام الجروح فى الاشخاص العاديـين ـواد بروتينيـة خاصـة تنطلق من معاقلهـا فى المنطقة المجروحة ، تؤدى الى تجلط الدم عليهـا ، لتكون بمثابة سـدود تقف ضـد ـزف الـدم .. وواضح طبعـا أن المصاب بمرض نـزف الدم لوراثى ليست لجسمه القدرة على تـكوين بروتـين التجلط ..

والسبب راجع الى خطأ وراثى على الكروموسوم المحدد لصفات الجنس .. فعلى هذا الكروموسوم مواقع استراتيجية حساسة نعرفها باسم الجينات أو المورثات ، وكل جينة أو مورثة مسئولة عن خطة عمل محددة ، لانها تحمل فى طياتها شفرات وراثية تترجمها الى عمليات حيوية ، أى انها بمثابة « دوسيه » وراثى فى « أرشيف » الحياة — فى الكروموسوم الكبير .. والواقع أن الثلاثة والعشرين زوجا من الكروموسومات التى نمتلكها فى كل خلية من خلايا أجسامنا تحتوى على ملايين من هذه الدوسيهات أو الجينات أو المورثات ، ولهذا فان أى خطأ فى أى دوسيه ، يؤدى الى خطة عمل خاطئة ، وغياب بروتين التجلط فى الدم ناشىء من خطأ فى المورثة المسئولة عن تكوينه ، وقد يتكون هذا البروتين ، ولكنه لا يستطيع أن يؤدى وظيفته فى الحياة ، لانه حمل فى تكوينه الخطأ الوراثى ، فليس كل مفتاح صالح لان يفتح بابا ، وكذلك تكون عمليات الحياة المعقدة المتشابكة ، فهى لا تحتمل الاخطاء ، خصوصا اذا جاءت من أصل وراثى ، وأغلب الظن انها قد تقضى على من حملها بالموت ، حتى لا يورثها لغيره ، فهى — أى الحياة — فى مشوارها الطويل تنتقى الصالح وتحافظ عليه ، وتقضى على الفاسد ، وتسقطه من حسابها ، ويقال أيضا أن سقوط حكم القياصرة فى روسيا كان من ضمن أسبابه هذا المرض — مرض النزف الدموى !

وقد يبدو هذا الكلام غريبا .. فما دخل بروتين التجلط أو النزف الدموى بالاطاحة بالنظام القيصرى فى روسيا أو بالنظم الدولية على وجه العموم ؟

الواقع أن للقصة جذورا قديمة ، ولها عوامل عديدة . فرغم أن مرض النزف الدموى نادر الحدوث بين البشر ، الا أن ذكره مثلا قد ورد فى التلمود ، فلقد نشأت عادة الختان عند

اليهـود من قديم الـزمن ، وكان يحدث أن ينزف الطفـل عنـد ختانـه حتى الموت ، ومن أجـل هذا وضعت فى التلمـود أحكام تشير الى أن الام التى تفقـد ولدين فى عمليـة الختـان من خلال النزف الدموى مسموح لهـا بعـدم ختان الاولاد الذين ستلدهـم بعد ذلك ، حتى ولو تزوجت من رجـل آخـر ، ثم أنجبت أطفـالا ذكـورا .. فى حين أن الرجـل الذى يفقد طفلين بالنزف الدموى من زوجتـه الاولى ثـم تـزوج بأخـرى وانجب منهـا أولادا ، فلابـد من ختانهـم .. وهذا يعنى بوضـوح أن المـراة هى التى تورث هـذا المرض لأولادهـا .. حقيقـة عرفها اليهود من قـديم الزمن ، ولـم يعرفوا مسبباتهـا ، ومن أجـل هذا وضعوا لهـا الاحـكام فى تلمودهـم !

الغريب فى الموضوع هنـا أن المـراة قد تحمـل فى مكوناتها الوراثيـة بذور مرض النزف الدموى ، لكنهـا لا تصـاب بـه اذا ما تعرضت فى حياتهـا للجروح ، فاذا تزوجت وانجبت صبيانـا وبناتـا ، فان المرض يورث للاولاد دون البنـات .. والواقـع أن البنت بدورهـا تحمـل من امهـا هـذا المرض ، لكنـه لا يظهـر فيهـا !

وقـد تتساءلون بدهشـة أصدقائى الذكور وتقولـون : لماذا هذا التحيـز الغريب من الحيـاة لاناثهـا دون ذكورها ؟

لان الانثى أقـوى وراثيـا من الذكـر .. بمعنى آخر نقول : ان الحيـاة قد منحتهـا فى تكوينهـا الوراثى « اكسسوار » ـ اى قطعـة غيـار أو بديـل ، ولم تمنحهـا للذكر ! ..

فماذا يعنى هذا بحق السماء ؟ !

يعنى أن الجينـة أو المورثـة الموجـودة على الكروموسـوم السينى المحـدد للجنس اذا أصابهـا الخلل أو الخطأ أو الضمور ،

فلن تحدث الكارثــة بالنسبة للانثى .. فهنــاك كروموسوم سينى آخــر يحمل نفس الجينة المسئولة عن انتاج بروتين تجلط الدم .. وهــكذا ــ وببساطــة ــ اذا توقفت هــذه ، اشتغلت تلك بــدلا منهــا ، وليس محتمــلا أن تفســد المورثتان فى وقت واحــد ، ولهــذا فمن النادر جــدا أن يظهر النزف الدموى فى النســاء ، ويقــال انــه لــم تسجل غير حالة واحــدة فى التاريخ ، وهــذه لا يعتــد بهــا على أيــة حال !

يختلف الوضــع بالنسبة للذكر ، لانــه يحمــل فى تكوينــه س ص .. الكروموسوم السينى بالتأكيــد حمله من أمه فى تكوينه ، والكروموسوم الصــادى بالتأكيــد من أبيــه .. لكن س الانثــوى لــه السيادة على ص الــذكرى وبكــل مــا حمــل فى تكوينــه من جينــات أو مورثات أخــرى بجــوار المورثــات المحــددة للجنس طبعــا .. وقد تــكون المورثات الخاصــة ببــروتين التجلط ــ على الكروموسوم س ــ ضامرة أو بهــا عطب ، وبالتأكيــد لن تشتغل ، ولا يستطيع الكروموسوم الصــادى الذى ورثــه عن أبيه فى عملية التلقيح والاخصاب أن يفعــل شيئا فى مثــل هــذه الازمة الوراثية الخطــيرة ، فليس عليــه المورثــات الخاصة بتكوين بروتين تجلط الــدم .. وهنــا يظهر النزف الدموى على الذكــور دون الاناث فللانثى اثنــان محترمان .. أى كروموسومين كبيرين ، وللذكــر منهمــا واحد ، والآخــر بــه ضمــور ، .. ويالضيعــة البخت عنــد عالــم الذكــور !

لكن ليس من المحتــم أن تنجب الام الحاملــة لهذا المــرض الخطــير كــل أولادهــا مصابين بهــذا الــداء ، بــل تأتى منهــ نسبة سليمة ، ونسبــة أخــرى تحتضن الخطــأ فى تكوينهــا ذلك أن البويضــة التى تفرزهــا الانثى قــد تحمــل فى تكوينهـــا الكروموســوم السينى الخاطىء أو السليــم ــ لأن لديهــا كمــا ذكــرنا ــ س س (واحد السينين يظهر بالتأكيــد فى البويضة) فان

كانت المورثـات الخاصـة بالتجلط على الكروموسوم السينى فيها عيب ، ظهر العيب فى الولـد ، وأن كـان سليما ، جـاء الولـد سليمـا !

لكن النزف الدمـوى لا يظهر فقط عنـد حامليـه بواسطـة الجروح التى قـد يتعرضون لهـا ، بل قد تسببه كدمة أو ضربـة قـوية تؤدى الى تهتك فى الشعيرات الدمويـة ، فيـؤدى ذلك الى نـزيف داخلـى .. كـذلك يحدث النـزيف ايضـا فى المفاصـل والعضلات والاغشية المبطنـة للفم والامعـاء والاعضاء التناسلية ، أو قـد يأتى من اصابـة ميكروبيـة .. لكن حمـدا لله أن العـلم قـد توصـل الى تصحيح أخطـاء الطبيعة مؤقتـا ، وذلك بنقـل فصيلة من دم انسان سليـم الى المصاب بالنزف الدموى ، فتقوم روتينات تجلط الـدم المنقـول بعمل الترميم اللازم فيمـا تهتك ن خلايـا وانسجـة ، هـذا ومما يذكر أن العلماء قـد توصلوا لى تحضير مسحـوق أبيض مجهز من دم الخنازيـر ، ويحتـوى على البروتينات التى تساعد على التجلط ، وهـو هنـا أقـوى فى مفعوله من مفعـول نقـل الدم بحوالى عشرين مرة ، لكن المسحوق لا ينفـع الا مـرة واحدة ، وقد يتوصل العلم الى استنباط دواء ينفع فى كـل الازمات !

ومن أمثلة مرض نزف الدم الوراثى الواضحـة فى التاريخ حالـة الملكـة فيكتوريـا (١٨١٩ ـ ١٩٠١) ملكـة انجلتـرا ، فلقـد كانت تحمله فى تكوينهـا ، وطبعـا لـم يشكـل خطرا على حياتهـا ، وأنجبت خمس بنـات ، واربعـة صبيان .. بنتـين منهن ـ آليس وبياتريس ـ حملتـا هذا العيب الـوراثى دون أن تحمـلا له همـا ، وحمله أحد الاولاد المدعـو ليوبولد ، وتـزوج ، ولكنـه مات وعمـره لـم يتجاوز ٣٣ عاما ، وتـرك بنتا تحمـل بذور المـرض ، وولدا سليمـا ، ثـم تـزوجت البنت واسمهـا الاميرة آليس من ايرل أوف آثلـون ، وانجبا ثلاثة : بنتا سليمة ،

وولدين أحدهما مات بالنزف الدموى بعد الولادة ، والثانى مات وعمره ٢١ عاما !

اما الاميرتان آليس وبياتريس فقد تزوجتا ، ونقلتا بذور المرض الى بعض أحفادهما عن طريق البنات الى العائلتين المالكتين فى كل من روسيا وأسبانيا .. والغريب أن وريثى العرش فى الدولتين كانا يحملان أعراض النزف الدموى عن طريق امهما فيكتوريا يوجينى واليكساندرا .. ويقول آشلى مونتاجو فى كتابه « الوراثة البشرية » أن هذا المرض كان من الأسباب التى أطاحت بالعروش فى روسيا واسبانيا .. ذلك ان اليكساندرا ـ قيصرة روسيا وزوجة القيصر نيقولاس الثانى قيصر روسيا كانت تحمل أعراض المرض من أمها الاميرة آليس ، ونقلته الى ابنها الوحيد وريث العرش اليكس ، رغم انها قد انجبت أربع بنات لم تحمل واحدة منهن مورثات المرض ، وعندما علمت القيصرة، بأن وريث العرش ، وفلذة كبدها مصاب بهذا الداء، أصيبت بصدمة نفسية عنيفة ، ولجأت الى طلب المعونة من العرافين والمتنبئين والمشعوذين والدجالين ، حتى وقعت فى حبائل راسبوتين ، الذى ادعى انه سيصنع المعجزات لانقاذ وريث إنعرش ، ثم أصبح لهذا الدجال الحظوة والمكان المرموق عند القيصرة ، فأثار القيل والقال شعور الملايين من أفراد الشعب ، وأحسوا بضعف القيصر وتبذل القيصرة ، وعفونة البلاط القيصرى ، وما يجرى فيه من فسق وفجور ـ خصوصا على يدى راسبوتين الذى سيطر على الجميع بحيله البارعة من أجل شفاء وريث العرش من مرضه الخطير ، وكان هذا من ضمن الاسباب القوية التى أطاحت بحكم القياصرة الى الابد بعد أن قامت الثورة الروسية بقيادة لينين !

ومن المؤكد والحال كذلك أن الولد ابن أمه ، أو « الولد لخاله » كما يقولون ، لانه يحمل من صفات أمه أكثر مما

يحمــل من صفــات أبيه ــ صحة كان ذلك أو مرضــا .. ويكفى ما قدمنــاه من معلومات عن مرض النــزف الدمــوى الــذى قــد تحملــه البنات والاولاد من أم مصابــة به ، فلا يظهر فيهــا ولا فى بناتهــا ، لكنــه قد يظهر فى الذكور ، وبــه قد يموتون .. ذلك أن البنت أقــوى وراثيــا من الولد !

ومن الامراض الخطيرة أيضا ــ والتى لها علاقة بكروموســوم الجنس « س » الانثــوى نذكــر مرض ضمــور العضلات الــذى يــؤدى الى الشلل ــ وهــو غير شلل الاطفــال الناتج من فيروس ، والذى يصيب الاولاد والبنات على الســواء ــ لكن هــذا المــرض الوراثى لا يصيب الا الذكــور ، فعندما ما يبــدأون المشى فى سنى الحيــاة الاولى يظهر ضمور عضلات الساقين بالتــدريج ، حتى اذا بلــغ الصبى العاشرة من عمره ، يصبح كسيحــا ، ولا يقــوى على الوقوف ، ولهــذا يقضى المرحلة الأولى من عمــره وهــو يزحف أو ينتقل على كرسى متحرك ، ثــم يسرى ضمور العضلات فى البقيــة الباقيــة من جسمه الى أن يمــوت بعــد سنــوات قليلة ، ويعنى هــذا انــه لا يعمــر حتى يبلغ مبلغ الرجــال أو يتــزوج ليخلف ذريــة !

ولمــاذا لــم يختف المــرض ــ اذن ــ مادام فيه القضاء على الذكور المصابين بــه قبل أن يبلغــوا مبلغ الرجال ؟

ذلك أن المرض ينتقــل خلال الاناث ، ولا يظهــر فيهن على الاطلاق ، فاذا تزوجن وجاءت لهن ذرية من صبيان وبنات ، ظهرت فى نسبة من الاولاد ، وقضت عليهم بالموت ، فى حين أن البنت قــد تحمله ، وتعيش بــه ، ثم تورثــه للاجيال القادمــة عن طــريق كروموسومها السينى الذى قــد يحمل فى طياتــه الخير ، وقــد يحمــل الخراب والدمار للذكــور !

ويأتى بعد ذلك مرض آخــر من أمراض الحساسية ، ليصيب الاولاد « بالقــرف » دون البنــات . . يعنى أن لديهم حساسيــة

خاصة لانواع من الغذاء والدواء .. من ذلك مثلا المرض المعروف باسم « الفولية » ، ويظهر أساسا بين سكان حوض البحر الابيض المتوسط الذين يعيشون على وجبات من الفول .. ففى الفول بروتين خاص يسبب حساسية رهيبة للذين يحملون هذا الداء الوراثى الناتج عن مورثة « متنحية » أو ضامرة أو غير ذات مفعول على الكروموسوم السينى الخاص بتحديد الجنس عند الاناث ، فاذا انتقل هذا الكروموسوم بما حمل الى المولود الذكر ، ظهر فيه المرض ، واذا انتقل الى المولودة الانثى كان لها ما يعوضها على الكروموسوم السينى الآخر فلها كما ذكرنا منهما اثنان ــ س س .. فيحمل هذا ما غاب عن ذاك !

والواقع أن مرض الحساسية هذا neonatal juandice يظهر على الاطفال بعد الولادة ، ثم يستمر معهم فى مراحل العمر المختلفة ، وهو نتيجة حتمية لغياب أو ضمور مورثة تقوم بالتخطيط الوراثى لتكوين خميرة أو انزيم نطلق عليه اسم « ج ٦ ف د » ــ اختصار لاسم علمى طويل ــ جلوكوز ــ ٦ ــ فوسفات دى هيدروجينيز ، وهو انزيم هام فى العمليات الحيوية التى تتم فى أجسامنا ــ المهم أن ينتقل من الام الى نسبة من أولادها .. لكنه لا يظهر فى الاناث ، رغم أنهن له حاملات ــ دليل آخر يؤكد تفوقهن الوراثى علينا نحن معشر الذكور !

حتى عمى الالوان له جذور وراثية على كروموسوم الجنس السينى أو الحريمى ، وله أنواع كثيرة ومتباينة ، فهناك حالات نادرة من عمى الالوان لا يستطيع المصابون بها أن يميزوا الالوان على الاطلاق ، الا أن الغالبية العظمى من حاملى هذا الخطأ لا يستطيعون التمييز بين اللون الاخضر والاحمر ــ والغريب أن هذين اللونين بالذات يوجدان فى اشارات المرور ، وقد تحدث

الكوارث أو الحوادث اذا كـان السائق مصابـا بهـذا النوع من العمى اللونى !

لكن كـل هذا لا يهمنا بقدر ما يهمنـا أن نعرف أن نصيب الذكـور من هـذا النقص أضعـاف نصيب الانـاث ، فبين كـل الف من الـذكور يظهر عمى الالوان فى ثمانين فـردا ، فى حـين أن النسبـة فى الاناث لا تتجاوز ثلاثا او أربعا بين كـل الف منهن !

والواقـع أن عمى الالـوان لا يظهـر فى البنت الا اذا كـان والداهـا مصابين بهـذا الداء .. وهـذا امر نادر الحـدوث .. لكن لابـد ان نعـرف ان اباها قـد ورث عمى الألـوان من أمـه ، لانـه ينتسب اليها فى هذا الامـر اكثـر مما ينتسب الى أبيـه ، فلقد انتقـل اليه الكروموسوم السينى بالتأكيـد من امه وعليه ـ أى على س ـ تقع مسئوليـة هذا الخطـأ ، امـا الام فلابـد أن تكون حاملة لكروموسومين عليهمـا الخطـأ الـوراثى نفسـه .. وهنـا يظهـر عندهـا العمى اللونى ، وهذا أيضـا أمـر نادر ـ لكن يكفى أن تـكون الام حاملة لبذور هذا المرض (دون أن تظهـر عليهـا أعراضـه) ، وفى تلك الحالة ينتقل الى نسبة من أولادها ، ولا تورثـه لبناتهـا ، لان البنت هنـا تنتسب فى هذا المجـال الى أبيهـا ، ومـا دام الاب سليما ، فان ذلك يعنى أن أمـه سليمة ، ذلك انهـا أعطتـه الكروموسوم السينى السليـم ثم نقـل الاب هـذا الكروموسوم بعد ذلك الى ابنتـه !

لكن مما لا شك فيـه أن موضوع الوراثة مثـير ومتشعب عويص ، وهو ـ يحتاج من القارىء العادى الى المـام بالمبـادىء علمية والوراثية ، لكن فيما قدمنا الكفاية ، لنضع النقط فـوق حروف ونقول : أن الانثى تسود على الذكـر وراثيا !

وحقيقة خامسـة اكتشفت حديثـا تؤكـد لنـا أن الاصول الوراثيـة فى الانثى اكفـأ منها فى الذكـر .. فهنـاك فصيلـة من

الدم يطلقون عليها س ج (أو Xg) ، ويعنى هذا أن تلك الفصيلة لها مورثات على الكروموسوم س الأنثوى ، لكنها ليست موجودة على الكروموسوم ص الذكرى .. وبهذه الفصيلة تسود الاناث علينا ، ذلك انها تنتقل من الام الى أولادها وبناتها على السواء ، بغض النظر عن الفصيلة الدموية للاب ـ يعنى أننا منتسبون الى أمهاتنا بتلك الفصيلة ، ولا فضل للاب فيها ، حتى ولو كان حاملا لها ، فاذا حملها ، فانها لا تنتقل منه الى الاولاد على الاطلاق بل يعطيها لبناته ، بعد أن يكون قد أخذها من أمه !

ويبدو أن الحياة قد اتخذتنا نحن معشر الذكور « قنطرة » أو « بردعة » وراثية لتعبر عليها الطريق ، وتحمل معها من خلال تكويننا الجسدى بعض صفات الانثى الوراثية الكامنة على كروموسوميها المحددين للجنس عندها .. انها تعطينا منهما واحدا ، لتسترده بعد ذلك فى بناتها او اناثها .. ففى كل خلية من خلايا أجسام الذكور يوجد الكروموسوم السينى ، ولقد جاء بالتأكيد من الام خاصة ، والانثى عامة ، فاذا انتقل منا الى بويضتها عن طريق الحيوان المنوى ، ظهرت الانثى من جديد ، وهذا يعنى بالتأكيد أن احد مكوناتنا الهامة قد جاء آساسا من الانثى ، ولا بد أن تستردها مرة أخرى فى بنات جنسها .. وكأنما الانثى هى الاصل ، ونحن ـ معشر الذكور ـ بمثابة الفرع ، أو كأنما هى التى ظهرت أولا ، وجئنا نحن بعد ذلك ، وهذا ـ بلا شك ـ يتنافى مع فكرتنا عن نشأة الخلق !

وأيا كانت الامور ، فعلينا أن نعترف أن الانثى أقوى باطنا ، وأضعف ظاهرا ، لكن الباطن أكثر واقعية من الظاهر ، فقد تورثنا الانثى بعض صفاتها الوراثية المحمودة ، وقد تورثنا عكس ذلك .. فنحن تحت رحمتها .. فان كانت خيرا جاء الخير ، وان كانت شرا أصابنا الشر ، لكن هذا الشر لا ينتقل فى

البنات الا نادرا ، ومن هنا تتبين لنا الحكمة العظيمة فى قول الرسول الكريم « تخيروا لنطفكم ، فان العرق دساس » .. وهذا مبدأ وراثى حكيم تتضح لنا أحكامه فيما سبق أن قدمناه !

يضاف الى ذلك وجود بعض أمراض وراثية ليست مرتبطة بكروموسوم الجنس ، بل تأتى من الكروموسومات الاخرى التى تحدد صفاتنا الوراثية .. من ذلك مثلا داء الملوك أو النقرس ، الذى يؤدى الى احداث التهابات رهيبة فى المفاصل نتيجة لترسب بلورات حامض اليوريك (uric acid) بينها ، لكن النقرس يظهر عادة بين الذكور ، ولا تجد له عند الاناث مثيلا !

ومن النادر جدا أن تجد أنثى قد أصابها الصلع الوراثى ، واذا حدث — لاقدر الله — فان تساقط شعرها أو صلعها الخفيف يتأتى من عوامل أخرى غير وراثية .. لكن الصلع كان من نصيبنا نحن معشر الذكور ، وهو ينتقل الينا عن طريق الام أو الاب أو كليهما .. فاذا حملناه نحن ، أصابنا الصلع ، واذا حملته الانثى ، لا يظهر عليها ، ويقال أن صلع الذكور — كما تشير دلائل كثيرة — يتأتى من تأثير الهرمون الجنسى الذكرى (التستستيرون) على بويصلات الشعر فيصيبها بالبوار ، وكلما زاد تركيز الهرمون ، زاد الصلع ، وهذا يعنى بطريقة أخرى أن الاصلع مخلوق يمتاز بقوة أو رغبة جنسية يحسد عليها ، أو لا يحسد — لسنا ندرى !

ويبدو أن الامراض التى تصيب الذكور أكثر من الامراض التى تصيب الاناث ، فمن احصائية بيولوجية — ضمن تقارير خاصة تنشرها تباعا هيئة الصحة والتعليم بالولايات المتحدة ، وتشير فيها الى معدل الامراض المختلفة التى تصيب الجنسين — يتبين — بما لا يدع مجالا للشك — أن نصيبنا منها أعلى من نصيبهن .. فمن بين ٣٨ مرضا مذكورا فى أحد هذه

التقاريـر يتضح أن لنـا من هذه الامراض نصيب الاسد ، ولهن منها نصيب النعجـة .. اى أن الرجـال والاناث قـد يصابـون بالمرض نفسه ، الا أن معدل الوفيات من هذا المرض بين الرجال يفوق معدله بين النساء .. بمعنى آخـر تذكر الاحصائية أن من بين الثمانية والثلاثين مرضـا ، يموت الرّجال بمعدلات أكبر فى ٣٣ ــ ٣٤ مرضـا ، فى حين أن النساء يمتن بمعـدلات أكبـر فى ٤ ــ ٥ أمـراض !

كذلك يذكـر تقريـر آخر نشره مونتاجو فى كتابه « مقدمة الى علـم الانثروبولوجيا الطبيعية » (وهـو علم يبحث فى أصـل الانسان). وفيـه يذكر سيادتنا على النســاء فى نـواح ليست فى صالحنا نحن معشر الذكور .. المهـم انهـا سيادة والسلام ، لعل ذلك يـرفع من معنْوياتنـا بعـد أن رأينـا كيف تسـود علينـا الانـاث وراثيا .. نحن نســود على النساء مثلا فى الذبحة الصدرية بخمسة أضعاف ، فبين كل خمسة من الرجال يصابون بالذبحة ، نجد انثى واحدة تصاب بها ، ومن بين كل ثمانية ذكور يصابون بقروح فى الجهاز الهضمى ، تصاب واحدة ، وكذلك النسبة نفسها فى سرطان الجهـاز التنفسى (نتيجة للتدخين) ، وبين كـل ١٦ يصابـون بالدوزنطاريا الاميبية نجـد انثى واحـدة تصـاب بهـا ، ونحن نسود عليهن فى قصور الدورة التاجية للقلب وتليف الكبـد ومرض الاسقربوط وتصلب الشرايين ونـزيف المخ والشلـل الـرعاش والتخنث الكاذب ، والتهاب البنكرياس الحاد وداء الملوك وضمـو العضلات والنزف الدموى وعمى الالوان .. نسـود فى هذا كل عليهن باضعـاف مضاعفـة قـد تصـل الى عشرة أو عشريـن أو خمسين أو حتى مائـة ضعف ، هذا بالاضافـة الى ثلاثين مرضـا أخرى نسود فيها عليهن بحوالى مـرتين أو ثلاث ــ فى حين أنهن يسدن علينا فى ٢٥ مرضـا .. من أهمها فقر الدم الـذى يصيب الفتيـات المراهقـات (نوع من الانيميـا chlorosis) والصداع

النصفى للرأس والخرب (مرض جلدى ناشىء عن قصور الغـدة الدرقيـة) ويتميز بجفـاف الجلـد وبفقـدان النشـاط العقلى والجسدى والسمنـة ولين العظـام (نتيجـة للحمـل) والحمى الروماتيزميـة ـ أما البقية الباقيـة من أمراضهن فالفـرق بيننا وبينهن قد لا يعتمـد عليـه ، أو لا يزيد عن ضعفين أو ثلاثة !

ملخص القـول : أن الانثى تختلف اختلافـا جوهريـا عن الذكـر ، فى الصحة والمرض ، وتسود عليـه وراثيـا ، وتحـرق نفسها فى حياتها أبطأ من الذكر ، وتصاب بأمراض أقـل من الذكر ، ولهـذا تعمـر أطـول من الذكر !

وهكذا شاءت الحياة وقدرت .. من قديم الزمان ، وسالف العصر والاوان !

صراع الذكور .. والسبب أنثى !

الجنس يشتعل ، والمعارك تدور ، والضحايا من الذكور !

قانون أزلى وضعته الطبيعة لذكورهـا دون اناثهـا ، وكأنما هى تقدمهم أمام « قومسيون » طبى عـام ، ولكن بدون أطباء ، ومع ذلك فان أحكـام هذا القوميسون تؤدى ببساطة الى اختيـار الذكـر المنـاسب لتقدمـه الى الانثى بعـد أن يتخطى بجـدارة عوائق الامتحـان !

لكن .. كيف يتـم الاختبار ثم الاختيار ؟

عن طريق فكرة بسيطـة للغايـة .. الا أن الفكـرة تنطـوى على تحيز واضح للانثى دون الذكـر .. وهـذا أمر محزن لنـا نحن معشر الـذكور !

فالذين درسوا الطبيعة الحية ، وشاهدوا أحكامها ومبادئها ، يقدمـون لنا معلومات مثيرة ، وحقـائق غريبة ، عن معارك رهيبة تقـوم بين الذكـور من أجل الاناث ، وكأنمـا هى قد جعلت بأسهم بينهم شديـدا ، فسلطت بعضهـم على بعض ، وأرست بينهـم قواعـد التنافس والصراع ، ليقوموا بعمل تصفيـة نهائيـة كالتى نسمع عنها فى مباريات الدورى العـام .. الا أن هذه من أجل بطولة أو كأس ، ولكن التصفيـة الحقيقيـة بين الذكور تـكون أساسـا من أجـل الفـوز بـأنثى .. فمن انتصر فى المعركـة ، كانت لـه «حلالا» ، ومن خسرها ، فلا بد أن ينسحب ويتوارى عن الانظار ،

او فليبحث لـه عن معركـة أخـرى ، وانثى أخرى ، أو فليدفن نفســه فى الطـين !

قانون قاس ذلك الذى يقـدم الذكور قربانـا على محـراب الجنس والحياة ، وكأنما الطبيعة هنا تضحى بذكورهـا وتحافظ على اناثها .. فالانثى بالنسبة للحياة مرغوبة ، والذكر « مفقود » ، ولهـذا فمن العـار أن تعرضها لمـا لا تحب وترضى .. فهى أثمن وارفع من أن تدخـل فى صراع مع أنثى أخـرى من أجـل خاطـر ذكر (١) ، وكأنما هـو لا يستحق هـذه التضحيـة ، وعليـه ـ لكى يفوز بالحب ـ أن يضحى ويتصارع حتى يتبين الغث من الثمين .. أو الضعيف من القوى ، فالحياة تريد أن تقـدم خـير مـا انتجت لاناثهـا ، ولن يحدث ذلك الا بتنافس وتضحية واجبة الاداء ، يكون للذكـور فيها الاصابات والعاهـات والموت ، اما الاناث فلها الصون والاعـزاز !

ولهذا اذا صادفت ذكـرين يتطاحنـان ، فابحث عن الانثى ، فربما تكون واقفـة غير بعيد من ميدان الصراع لتشهـد هذا القتال الدائـر من أجل خاطرها .. فالحياة تريد أن تنتقى الصالح ، وتقضى على الطالح « ولكن أكثـر الناس لا يعلمون » !

فمن الصدف العجيبة حقـا أن تحدث أمامنا فى شـارع واحد معركتـان ، والابطـال فيهمـا بشر وكلاب .. ولكننـا لا نعنى أن المعركتين تدوران بين هؤلاء وهؤلاء ، بل كانت احدى المعركتين بين ذكـور بنى الانسان ، والاخرى بين ذكور الكلاب ، والـدافع لهمـا أنثى .. نعنى فتـاة وكلبة !

---

(١) يستثنى من ذلك أنثى الإنسان ، فهى أحيانا تتصارع مع أنثى غيرها من أجل خاطر ذكر .. ولاحكم على الشواذ .

ومعارك البشر غالبـا ما تتسم بالتهور الذى يـؤدي الي مـالا يحمد عقباه ، ولقد كانت معركة الفتيـان من بنى الانسان رهيبة ، اذ استخـدمت فيها الحجـارة والطـوب والزجاجـات والعصى والسكاكين ، وسالت فيها دماء غزيرة ورخيصة .. دماء الذكـور طبعـا ، وكان الدافع لها فتـاة لعبت بعقول ذكـور البشر ، لكن لاتهمنـا هنـا تفاصيل المعركة ولا أسبابهـا بقدر مـا يهمنـا أن نعرف أن الفتـاة بقيت فى بيتهـا مصونة ، وراح الاغبياء ضحايا .. ومـا أكثـر المعارك التى تقوم بين ذكور البشر من أجـل الانـاث بحيث أصبحت مادة دسمة للصحافـة ، وعبئـا ثقيلا على أقسام الشرطـة والنيابـة والمحاكـم !

يكفى فقط أن تتعرض الانثى لكلمـة جارحة ، أو معاكسـة عابرة ، فتفور دماءالذكور ، وتنطلق فيها هرمونات أخـرى غـير هرمون الجنس .. اذ أن لكـل هرمون وظيفـة محـددة ، ووقت معلـوم ، ولسنا هنا فى مجال الحب والغرام ، ولكننا داخلون الى ساحة المعركة والنزال ، ولهذا تقوم الغدة الكظرية (أو الغدة فوق الكليـة) بافراز بعض هرموناتهـا وصبهـا فى تيارات الدمـاء ، « لتفور » أكثـر وتدفعنـا لخوض معركة بمجهود أكبر ، وقـد يقـع فيهـا الجرحى والقتلى وتفتح لنا فى « دوسيهات » المحاكـم والسجون صحيفة سوابق .. كـل هذا لأن الانثى قـد أهينت ، ولـم نتحمل نحن الاهانـة ، واهانتهـا تساوى الدم .. دم الذكور لا دم الانـاث ، وتبقى هى فى مكانهـا لتذرف الـدموع ، أو تطلق الضحكـات على هبالة الذكور .. ولهـذا يقولـون فى ساحـات الشرطـة وأروقة النيابـة والقضاء « أبحث عن الانثى » .. فربما كانت هى الدافـع الحقيقى لكـل ما حدث ويحدث وسيحدث الى ان يرث الله الارض ومن عليهـا ، والى هنـا نستطيـع أن نقـول أن النسـاء هن اللاتى يفعلنها ، ويقـع فيها المهابيـل ذوو التهـور والجسارة .. فالرجال للمعارك ، فان لم يتعاركوا كالديوك فعليهم اللعنـة !

تلك اذن لمحــة سريعة من صراع عابر فى مجتمعات البشر ، وانت أو غيرك يستطيــع أن يكتب مجلدات كثيرة عن حوادث غريبة ، لنخرج منهــا بنتيجــة وحيدة ، أو استنتــاج مختصر مــؤداه ان نسبة لا بأس بهــا منا نحن معشر الذكور مغفلون (وهــذه النسبــة متروكــة لتقديرك وبقــدر ما صادفت وجربت وأدركت مما يجرى فى الخفــاء والعلن) ، حتى ولــو كــره الكارهــون ، أو احتج ذوو الشوارب المجدولــة ، والعضــلات المفتولــة ، لكن دعنــا من كــل هذا ، فالكلام فيــه غــم وهم ونكد ، ولنعــد الى المعركة الاخرى .. معركــة الكلاب من اجــل الكلبــة !

لقد كانت كلاب « الحتة » أو المنطقــة الواحــدة تعيش مــع بعضهــا فى سلام ووئــام ، لكن صداقتهــا قد انقلبت الى عداوة وخصــام .. والدافع لذلك أنثى لعبت لعبتهــا على الذكور بطريقة اخــرى .. صحيح أن الكلبة تريد حبا ، وتطلب جنسا ، لكنهــا ليست سهلة أو « هبلة » .. بل تريد ان تختار من كلاب « الحتة » أعظمهــا اخصابــا ، واكثرها شبابا ، واشدهــا قــوة ، وأكبرها فتــوة .. وللكلبة كل الحق فيما رسمت وخططت ، ولا غبار عليها فيما تفعل ، فمــا أكثر الذكور ، لكن ليس كل ذكر ذكــرا بالمعنى المفهــوم ، وعليهــا أن تختار ، ولقد عرفت حكمة الاختيار قبل أن تعرفه معظــم نساء البشر بزمن طويل ، أو حتى قبــل أن نظهــر نحن على هذا الكوكب بعشرات الملايين من السنين !

لقــد رأينا ثــم رأينا فى الشارع نفسه الــذى وقعت فيــه معركة الذكور من البشر ، حشدا آخــر من ذكور الكلاب يتصارع على أنثى واحــدة ، وتساءلنا : كيف جمعت الكلبة كل هؤلاء ؟ .. وكيف عرفــوا « العنوان » ووصلوا الى حيث تنتظر على ناصيــة أو بجوار صندوق زبالة أو فى ركن من خرابة ؟ !

الواقع أنهــا أرسلت « بطاقــة » دعوة بطريقة سرية ومثــيرة وسريعة .. أسرع بكثــير من برقياتنــا التى نرسلهــا من مكــاتب

التلغراف ، ثم ندفع فيها ثمنـا ، وقد تصل أو لا تصل ، وان وصلت ، فربما بعد فوات الاوان .. ثـم ان البطاقة « الكلابيـة » ذات مضمون محـدد وواضح ، ولا يفهمهـا ـ بطبيعـة الحـال ـ الا الكلاب .. صحيح انهـا لا تقرأ ، ولكنهـا تستنشق الدعـوة بأنوفهـا ، وتفك رموزهـا ، وتعرف أن هناك كلبة تطلب جنسا !

بقى أن نعرف أن الكلاب الذكـور (وكـذلك معظـم ذكـور الحيوانـات الثدييـة) لا تفكـر فى الجنس ، ولا تسعى اليـه الا اذا بدات الانثى فى طلبه ، وعندئذ تتضخم فيها غدة خاصـة ، وتنبعث منها رائحة انثوية تنطلق فى الهـواء ، وتنتشر فى الأزقة والحوارى والشوارع ، وعندمـا تستنشق الكلاب هـذا العطـر الانثوى ، تثور ثائرتهـا الجنسيـة ، وتشتعـل فيهـا الرغبـة بعد أن كانت نائمـة ، وتبدأ فى البحث عن المصدر ، وتوجه نفسها الى الانثى أينمـا كانت ، فهى هناك بمثابـة الهـدف ، والكلاب كالقذائف الموجهـة ، وجزيئـات العطـر الجنسى كالرادار الـذى يحدد ويوجـه ويرشد الضالين الى الهدف أو جنتهم الموعودة .. ويمر الوقت ، ويأتى كلب من وراء كلب ، ويتجمـع الحشـد ، وكـل ذكر يمنى نفسه بوصلة جنسية تطفىء لهيبه ، لكن الكلبـة لن تعطى نفسها الا « للعظيـم » من الكلاب !

اذن .. فلابد من معركة وصراع لعمل تصفية نهائية ، وتقف الكلبة وهى تشهـد ما يجرى من أجل خاطرهـا ، ولا نـدرى أن كانت بها سعيـدة أو شقية ، لكن أغلب الظن انهـا فخـورة بمـ خططت لهـا الطبيعـة ورسمت .. المهـم أن النتيجـة ستكون في صالحهـا ، وبعد قليل سيتقـدم لها أقوى الكلاب لينالها ، وقـد تقف البقية الباقية غـير بعيدة لتشهـد ما يجـرى من أحـداث يسيل لهـا لعابهـا ، ولكنهـا لا تستطيـع أن تتقـدم لتقضى وطرها ، فلقد شبكت الانثى فى الذكر ، بحيث لا يستطيـع منهـا فكاكـا حتى ولو ضربا علقـة ساخنة ، وبعدهـا يفض المهرجـان دون دمـاء .. أو محاضر .. أو محـاكم !

ومـا أعجب ـ والحال كذلك ـ الصـور التي تتـكرر بـين بشر وكلاب ، وان اختلفت التفاصيـل بين عاطفـة هؤلاء وهؤلاء ، وبين سلوكهـم ومداركهم ، ومع ذلك فالنتيجـة واحدة .. تعنى مزيدا من أجيال الكلاب والانسان وسائر انواع الحيوان !

لكن قصة الذكور من البشر والكلاب قـد تتكـرر بطريقـة اخـرى ، صحيـح أن الكلب لا يعـرف معنى الجمـال ولا التغزل في قوام الكلبة ولا أناقتها ، أن كان بها أناقة وجمال ، ولكنـه يعرف شيئا واحـدا ، وبـه قد يفقـد أهم صفاتـه .. فتتحول أمانتـه الى خيانـة ، وحرصه الى اهمال ، وعداوتـه للصوص الى صداقـة ، وبهذا لا يستطيع أن يفـرق بين العـدو والصـديق !

القصـة التاليـة قرأناهـا مصادفـة فى احـدى المجـلات العلميـة كدليـل حي على الاثر العميق الذى تتركـه الانثى على الـذكر .. وتتلخص تلك القصـة فى أن عددا من اللصوص الاذكياء حاولوا السطو على مجوهرات ثمينة فى أحـد قصور أوربـا ، لكن محاولاتهم قد باءت بفشل ذريع بفضـل عـدد من كلاب الحراسة المنتشرة فى أماكن استراتيجيـة من حديقة القصر ، فما أن يظهـر اللصوص بالقرب من السـور ، حتى ينطلق نبـاح الكلاب عاليـا مدويـا لينبه أصحاب القصر بما يجرى فى الخارج !

فماذا يفعل اللصـوص لتخطى هذه الازمـة العويصة ؟ .. هل يقتلون الكلاب ؟ .. وسيلـة غير عملية ولا حكيمـة .. هـل يقدمون لهـا طعامـا كرشوة ؟ .. غـير ممكن ، لان الكلاب تكمن فى أمـاكن لا يصل اليها الطعـام ، كمـا انهـا شبعانـة بخـيرات اصحابهـا ، ثـم هى لا تخـون من أجل وليمـة !

لـم يبق أمـام اللصوص ـ اذن ـ الا أن يستخدموا سلاحا نتيجتـه مضمونـة .. وليس هناك من وسيلة تلهى الكلاب وتكسر

شوكتها الا الانثى .. نعنى الكلبة ، لكن من السذاجة أن يأخذوا معهم كلبة ، ويقدمونها الى الكلاب لتجمعهم حولها ، وبهذا تنسى الذكور مهمتها وتيسر للصوص مهمتهم ، صحيح أن مثل هذه الامور قد تنفع مع ذكور البشر ، ولكنها قد لا تنفع فى حالتنا .. فلقد توصل اللصوص الى فكرة خبيثة وعلمية ، واستطاع أحدهم أن يعطر نفسه بالرائحة الانثوية الجنسية التى تفرزها غدة كلبة تطلب جنسا ، وتقدم اللص ووقف فى مكان مناسب من سور الحديقة ، بحيث اذا هبت النسمات ، فانها تأخذ معها الرائحة وتنشرها بين الكلاب .. ولقد حدث بالفعل ما توقعوا ، اذ بدأت الكلاب تتحرك نحو مصدر الرائحة ، ووقفت تهز ذيولها وهى فرحة نشوانة بهذا الزائر المثير ، وأخذت تطوف حوله ، وتتمسح بملابسه ، وكأنما هى تطلب القرب والوصال ، ربما كانت الكلاب وقتها تحدث نفسها وتقول « لا يمكن أن يكون هذا الواقف أمامنا كلبة تطلب جنسا ، لكنه يحمل أثرا من المحبوبة ، ولهذا فمرحبا به وألف مرحب ، فلقد أسكرنا بعطره السحرى ، وملأ دنيانا بهجة وحبورا » .. المهم أن الكلاب ظلت تتبرك به ، وضربت بواجباتها عرض الحائط ، وكأنما العطر الجنسى قد ملك عليها نفسها وحياتها ، مما يسر لبقية اللصوص مهمتهم ، ونهبوا الجواهر وانطلقوا ، ثم لحق بهم صاحبهم ، والذكور تودعه بما يستحق من حب وتودد وحفاوة ، وهكذا لعبت هذه « التكنولوجيا » لعبتها مع الذكور ، فحولت نباحها الى صمت ، وأمانتها الى خيانة .. وهى فى كل ما حدث لا شك معذورة !

لكن هناك « تكنولوجيا » أخرى بشرية تسير على الفكرة ذاتها ، وان اختلفت التفاصيل بين ما يجرى فى عالم الكلاب والبشر .. فمن الممكن أن يقضى بعض ذوى النفوس الضعيفة حاجتهم عند ذوى المراكز الكبرى بأنثى جذابة ، وعلى قدر كبير من التدلل والجمال والاثارة ، وذكور البشر هنا يختلفون عن ذكور

الكلاب ، فحيث تثير رائحة الكلبة ذكورهـا ، يثـار ذكور البشر بمؤهلات أنثوية خاصة ، مثل النظرة الناعسة ، والكلمة الناعمة ، والابتسامة النائمة ، وتعبيرات الوجه ، وحركات الجسد .. الخ ، اى أن الانثى هنـا تستخدم تكتيكـا آخـر ينتقـل عن طـريق الاذن والعين واللمس .. لا عن طريق الانف كمـا هو الحال عنـد الكلاب ، لكن لا مانع أن تعطر أنثى البشر نفسهـا بعطور لا دخـل لغددهـا فيها .. ومع ذلك فهى تجذب أحيانـا أنوفنـا ، وتـدور رقابنا ، « وتبحلق » عيونـنـا بحثا عن صاحبـة هـذا العطـر الجذاب ، لكن تأثيره علينـا لا يرقى الى مستـوى الكلاب ، ولـو كـان ، لدفع ذكور البشر فى ذلك الجزء الاكبـر من ميزانياتهـم ، ولكن حمداً لله انـه ما كان !

والواقـع أن الانثى الجميلة لهـا عنـد معظم الذكـور حظوة كبرى ، لدرجـة انهـم قد يعبرون أحيانـا عن ذلك ويقولون : أن جمالها يفتن العابد .. أى انه قد يتخلى عن عبادة ربه ، ويضعف أمـام الجمال الفتان .. لكن دعنـا من العابد وما يعبد ،ولنرجـع الى من يسيل لعابهم ، ويستجيبون للجميلة بما تحب وترضى .. فأحيانا مـا يتنازلـون عن عروشهـم من اجـل المراة ، أو قـد يفشون أسرار بلادهـم فى ساعة ضعف أمـام الانثى ، أو تنشر الاخبار العالميـة فضائحهم (مثل بعض وزراء بريطانيـا) ، أو قد لا تتعـدى الامور لأكثـر من طلبات محـددة ، كـأن تأمـر الانثى ذكرها : انقـل فلان الى وظيفـة كـذا ـ حـاضر .. علان يطلب ترقيـة .. تحت أمرك ياست هانـم .. اخـرب بيت س ـ طلبك مجـاب يا سيدتى الجميلة .. ص دمه ثقيـل ـ سأنقله من أجل خاطرك الى جبـال واق الـواق يـاست الحسن والجمـال .. ويالضيعةالذكور ويالخيبةالرجال ، أو أن شئت الدقة فلنقل : هذا الصنف من الرجال ، ومع ذلك فلنترك نسبـة من يقـاوم منـا الاغـراء لتقديـرك ، فلا شك انك ادرى منا بذلك !

والى هنـا يظهر لنا كيف تتحـول قوة الرجال الى ضعف ، وضعف النساء الى قوة .. والانثى ـ بالعقـل والذكاء والتخطيط والانوثـة والمؤهلات الاخـرى ـ تستطيع أن تفعـل ما تريـد أو تتحكـم فيمن تشاء .. وقد لا تظهر على مسرح الاحداث فتمسك فى يدها فأسا أو ساطورا أو خنجرا أو نبوتـا كما يفعل المتهورون من الذكور ، بـل هى فى الواقع ترسم ، وغيرها ينفذ .. « اللهـم أرضهن علينـا ، واجعـل كلامنـا عليهن خفيفا » !

لكن .. علينا الان أن نترك ما يدور فى عـالم البشر ، لانـه عالـم معقـد فى سلوكـه وحياتـه وأنماط تفكيره ، نتيجـة لتطور مراكز الادراك فى مخـه ، حيث أصبح لكـل واحد وواحـدة منـا تاريخ يختلف عن الاخـرين .. كمـا تختلف بصمـات أصابعنـا وشخصياتنـا ، فلا تتكرر أبـدا ، ولنتعـرض لصـور أبسط من السلوك الحيوانى الذى يجرى فى الطبيعـة بين الذكور !

• • •

تنتشر المعارك بين الذكور انتشارا واسعا فى الغابـات وبـين الاعشاب وفى الجحور والانهـار والبحار وقمم الاشجار والاحراش وما شابه ذلك ، لكن هذا الصراع الدائـر بينها قـد لا يـكون من أجـل الانثى فحسب ، بل يتعداه الى أمور الملكيات الخاصـة .. بمعنى أن الكثير من انواع الحيوان تحدد لنفسهـا مناطق معينـة من المـاء أو الارض أو الغابـة لتصبح وطنها المقدس الذى تصـول فيـه وتجـول ، حتى اذا أحست بدخيـل يريـد الاعتداء على ملكيتهـا ، كانت المعركـة .. لكن أبطالهـا وصرعاهـا غالبا من الذكور .. تمامـا كما هو الحال عندنـا نحن معشر ذكور البشر ، الا أن ذلك موضوع طويـل نرانا فى حل من التعرض لـه هنـا ، وعلينـا أن نعود فنقدم صراع الجنس بين الذكور فى عالم الحيوان .

بين الاعشاب تسير الانثى وتتهـادى باستحيـاء ، أو بغـير استحياء ، فليس ذلك مهما الان ، لكن المهم أن يعترض طريقهـا

ذكـر ، ويحاول مغازلتهـا والتودد اليهـا ، هذا بالرغـم انه على اغتصابها بقادر ، ولكنه لا يفعل الا اذا حدث القبول والرضا ، وقد يكون حظه نكـدا اذا تقابـل ــ وهو يسـير بفتاتـه ــ مع ذكـر آخـر يطلب بدوره القرب والوصال ، وهنا يتوقفان وكأنمـا كـل ذكر يدرس الآخر ، استعدادا للنزال ، وتنزوى الانثى جانبا ، وتنتظـر نتيجـة المعركة التى لو اطلعنـا عليهـا ، لعرفنـا كـم الانثى غالية ، أو كـم هو عنيف ذلك الدافع الغريزى الذى يكوى الذكور ، فيستهينون بكـل شيء فى سبيله .. حتى الممات !

ويقترب الذكر من صاحبه ، وكأنما الذى كان بصحبته الانثى يوحى لغريمه بالاشارة ،وكأنما يقول « لقد وجدتها بعد كد وتعب، فلمـاذا تعاكسنى ، وتعترض طريقى » ؟ . . وكأنمـا الآخر يجاوبه قائلا « عليك اللعنة .. ألا تعرف شيئا عن ناموس الحياة ؟ .. أن هذه الغاليـة(يقصد الانثى) ثمنهـا كبير ، ولا أستحقهـا أو تستحقهـا الا بالتضحيـة والدم .. ولتكن بيننا ــ اذا ــ معركة، فمن انتصر فيهـا نالهـا .. هـل قبلت التحـدى ؟ .. فاذا لـم يعجبك قولى ، فعليك أن تنزوى وتختفى ، أو لنحسـم الامـر ، ولا تضيع وقتى ، فغريزة الجنس تكوينى ، ولا شيء غـير المعـركة يكفينى » !

ويحسم الامر بمعركة ، ويستخـدم فيهـا سلاح من نـوع غريب .. امتلكتـه الذكور دون الانـاث ، وهنا يلعب « التكتيك » الحشرى ، والقوة والشجاعة دورا فعالا فى تلك الحرب النفسية !

لكن مـاذا نعنى بهـذا التكتيك الـذى وصفنـاه بصفـة (الحشرى) ؟ !

نعنى أن الـذى تقـوم بـه حشرة .. فالحشرة تحب كمـا نحب ، وتعـامل ذكورها اناثهـا ربما أفضل من معاملتنا لاناثنا ،

وتعرف قيمتهـا على قدر ما أدركت .. فالذى يتصارع الآن على مسرح الاحـداث خنفس وخنفس .. ليس خنفسا بشريا ، بـل حشريـا .. فالخنافس البشريـة لا تتحلى ـ فى معظـم الاحيـان وعلى قدر علمنـا ـ بروح الكفاح والشجاعة والبطولـة التى تتحلى بها ذكور الخنافس الحشرية ، أو غيرها من ذكـور الحيـوانات الاخـرى ، فالخنفس الحشرى قد جاء الى الحياة وبـه خشونـة واضحة ، وتلك صفة من صفات الذكـور المميـزة ، لكن الخنفس البشرى قد ظهـر لنا « على آخـر الزمن » وبـه نعومـة تختلف درجاتهـا من خنفس الى خنفس ، وبحيث لا نستطيع أن نميـز ـ احيانا الخنفس البشرى من الفتاة ، خصوصا اذا نظرنا اليـه من قفـاه .. ومـا دامت النعومـة قـد زحفت على شبابنـا ، ومـا دامت تراودهـم فكرة محاكـاة الفتيات فى التأنق وتسريحـة الشعور ، وتضييق « البنطلونات » على الارداف الى آخـر هـذه المميزات التى تسعى اليهـا الفتيات بحكم تكوينهن ، وما دام كـل هذا أو غيره يحدث ، فلا تنتظـر من هؤلاء خشونـة كخشونـة الرجـال أو الذكـور عموما .. أو حتى الخنافس الحشرية !

لقـد جرنا الخنفس الحشرى ـ عليه اللعنة ـ رغمـا عنـا الى الحديث عن اخواننا الخنافس البشرية عليهم النقمة ، ولنترك هؤلاء فى فلسفتهم وميولهـم وأزيائهـم ، ولنقـدم خنفسنا الذى يعـرف باسم خنفس الوعـل أو الايل أو الغزال ذى القرون .. ذلك أن الخنفس (١) قـد أمتلك فكين طويلين قويين اشبـه م يكونان بقرنى الوعـل ، ومن هنـا جاءت التسميـة .. والواقـ أن ذكور الوعول والخنافس تستخدم قرونهـا وفكوكهـا فى معار الجنس والحياة ، ولكـل منهـا صراعهـا وعاداتهـا ومكانتهـا فى سلم التطـور !

---

(١) تبسيطا للأمور فسوف نطلق على الذكر اسم خنفس وعلى الأنثى اسم خنفسة .

وتبدأ المعركـة ، وتتحـرك الفكوك الاربعة .. وكأنما كـل خنفس يسخن فكيه كما يفعـل لاعب الـكرة بقدميــه ، لكننـا لا نشـهـد هنا لعبة للتسليـة وضيـاع الوقت ، بـل نقف أمـام لعبة خطرة من العاب الموت والحيـاة على مستواهـا الخنفسى .. وبدون اطلاق صفارة من الحـكم ، يحدث الهجـوم ، وتتقابـل الفكوك بالفكوك ، وكأنمـا هى بمثابة مقابض أو « كماشات » حية ، وبها يقبض الخنفس على الخنفس ، ويحاول أن يلقيه أرضا ليمرغه فى ترابهـا ، ويخمد بذلك قوتـه ، ويوهن من عزيمته ، وكأنمـا نحن أمـام حلبـة من حلبـات المصارعة الحرة ، ولكن بدون حكم ولا جمهـور .. فالجمهور الوحيـد هنا هى فتاتنا الخنفســة التى تقف سعيدة لتشهد صراع الجنس ، وهبالة الذكور !

وعندمـا يحس أحـد الذكرين أن نتيجة المعـركة ليست فى صالحـه ، نراه ينطلق هاربـا من الميدان ، وهنا يتركـه المنتصر ليذهب الى حـال سبيله ، ويتقدم الى فتاتـه ، وهو يلـوح لهـا بفكيـه ، وكأنمـا لسـان حاله يقـول : ما استحق القرب منك ، ولا الفوز بحبك ، الا كـل من عـرف الكفـاح .. وها انذا قـد اخذتك منـه بالظفر والنـاب .. لاكـون لك ولتكـونى لى حلالا طيبـا !

وبجـواره تسـير العروس ، وقـد يتقابـل مع من هو أشد وأقوى ، فيضيع الحب ، وتختفى النشوة ، أو قـد يكون سعيدا ، فيقضى مع فتاتــه ساعات عســل حلوة ، ثـم تنتهى فترة الوصال ويفترقان دون تحديـد موعـد آخـر للقـاء ، ويسـير الخنفس مترنحـا ، وبفكيـه ملوحـا ، وكأنمـا يودعهـا قـائلا ، بـاى باى .. عليك اللعنـة ، فلقد أنهكت قوتى واضعت صحتى ، ومـع ذلك فالحياة تهون فى حبك .. « أو كلـه فى حبك يهـون » (مـع الاعتذار للاغنيـة) ثم يموت هو ، وتحيا هى ، ليكون هناك مزيد من الخنافس !

وما دمنا قد تحدثنا عن خنفس الوعل أو الايـل ، فلا بـد ان نقـدم الوعـل نفســه كنموذج جديد من نماذج ذكـور هـذا الكـوكب .. وعلينـا ـ لكى نصعـد سلم التطور من الخنفس الى الايـل ـ أن نقفز قفزة هائلـة لنعيش مع احـد أفراد الحيوانات الثدييـة التى وضعها العلمـاء معنا فى المجموعة ذاتها !

فذكور الوعول قد تعيش فرادى ، أو تجمعهـا مجموعـات صغيرة ليس بينهـا أنثى واحدة ، ولهذا فان للذكور مجتمعاتهـا ، وللاناث مجتمعات أخـرى منفصلـة ، لكنهـا أكثـر عـددا من مجتمعـات الذكور ، ومن هنا كـان لابد أن تظهر فى تلك المجموعات الانثويـة زعيمة أو قائدة لتقودهـا فى متاهات الغابات وأحراشها ، والقائـدة ـ بطبيعـة الحال ـ لابد أن تكون أعظم من الاناث حنكـة ودرايـة وأكبر عمـرا .. وعندما تضع الاناث مواليدها ، فانهـا تقوم بارضاعهـا ورعايتها حتى تكبر وتعتمد على نفسهـا ، وهنـا يحدث شيء غريب ، اذ تتحيز الاناث لبنات جنسها ، فتطرد الذكور اليافعة ، وتحتفظ ببناتهـا لتزيـد مجتمعات « الحريـم » قـوة وازدهـارا !

وتمتاز ذكور الوعول بامتلاكهـا لقـرون متشعبـة وقـوية لتـكون لهـا بمثابـة سـلاح « ابيض »، وبـه تدخـل معركـة الجنس أو صراع الحيـاة .. وليست ذكور الوعول هى الوحيـدة التى امتلكت القرنين ، بـل هناك ذكور كثـيرة بقـرون واضحة .. فللخروف (أو الكبش) قرنان ملتويان ، ولذكورالبقـر المستأنس والوحشى قرون حادة مستقيمة وكذلك التيس (ذكـر الماعـز) أو غيره من تيوس .. لهذا اذا رأيت حيوانـا بقـرون فاعلـم انـه من الذكور ، أما اذا ضمر القرنـان فتلك علامـة من علامات الانوثـة ، مع بعض استثناءات بسيطـة ، ولا حـكم على الاستثناءات !

ويشترك خنفس الوعل مع الوعل فى الطريقة التى يستخدمانها فى صراعها مع الذكور الاخرى للفوز بالانثى ، ولكنهمـا يختلفـان

فى أمـر هـام .. فللخنفس فتاة واحـدة ، وللوعـل فتيـات كثيرات ، ولكنـه لا يعرفهن ولا يصـاحبهن الا اذا ظهـر الدافـع الجنسى الذى يدعوه الى تجميـع أكبر عدد منهن لتكون دليلا على فتوتـه .. وطبيعى أن ذكرنا هذا ليس الوحيد فى الغابـة ، بـل يشـارك فيها عددا آخـر من الذكور ، لكن الذكر اذا تقابـل مع ذكـر آخر ، فلابـد من معركة كبيرة ، رغـم أن كـل ذكـر منهمـا قد يكون فى حوزته عدد كبير من الاناث ، ولكنها « فراغة » عـين من الذكور .. نقصـد ذكور الوعـول طبعـا ، ولا شـأن لنا هنـا بذكور البشر ، ويبدو أن ما يمتلكه الاخرون يحلو دائمـا فى عيون الغـير !

وكما يحسم الخنفس الامـر مع خنفس آخر بمعركة فاصلة ، كذلك يفعل الوعـل مع ذكر آخر ، لكن معركـة الوعـول لا شك قاسية ودمويـة ، فسلاح القرن حاد بتار ، فاذا لـم يأخذ الوعل المتصـارع حذره ، فربمـا يبقر القرن بطنه ، ولهذا فقـد يمـوت أحـد الذكرين فى المعركة ، وأحيانا ما تتشابك القرون المتشعبة ، ولا يستطيع الذكران منهمـا خلاصـا ، ولا يزالان هكذا بقرونهمـا متشابكين ومقيدين ، حتى تنهك قواهما ، فيموتان فى مكانهمـا ، وتبقى الهياكـل العظميـة لتحكى لنا قصـة مثـيرة من قصص الصراع التى تدور بين الذكور من أجل الاناث ، وهكذا تضحى بهـا الحيـاة ، وتحافظ على الاناث !

الا ان أيسر حالات هذا الصراع تتركـز فى أن يطـرد الذكـر المنتصر عدوه المهزوم بعـد معركة قد تـدوم طويـلا أو قليـلا ، وليذهب المغلوب فى حال سبيله ، بعد أن يتنازل للـذى غلب عن حريمـه .. وربمـا تواتى المغلـوب فرصـة جديـدة ليدخـل فى معركة أخـرى قد تكون فى صالحه .. المهـم أن هنـاك صراعـا قاسيـا وطويلا ومريرا تمر بـه الذكور ، ليتوج ذكر منها نفسـه على عدد كبير من الاناث ، وليصبح بحق « ملك » الحريم فى الغابة،

ومن أجل هذا تغنى بـه الشعراء فى أشعارهم ، واعتبروه سلطانـا لـه من الجوارى مـا يشاء ، ومن الفحولة الجنسيـة ما يريـد ، بحيث يكون فى مقدوره اخصـاب كـل « الحريـم » .. فليست العبرة بعدد الذكور ، انمـا العبرة فى نوع الذكور .. « ولكن أكثر الناس لا يفقهون » ، فالذى يهم هو النوع لا الكم يا سادة !

لكن « سلطنة » الذكور لا تدوم الا قليـلا ، فبعـد أن تحصل الاناث على الاخصاب ، تفقد اهتمامهـا بالبطـل ، كما يفقد البطل اهتمامه بها ، وعندئذ يتخلص من قرنيه العظيمين ، فيسقطـان وبهـذا يكون قد ألقى السـلاح ، ويصبـح كالانثى ، رغـم انـه أضخم منها حجما ، وبعدها يهيم على وجهه فى الغابـات دون أن يحمـل مسئولية أو هما .. وكأنما كـل رسالته فى الحياة أن يأكل ويتسكع ويعاكس ويتصارع ويغلب وينكح (مؤكد حيوان) أو أن يكون من المهزومين .. حتى اذا جـاء فصل الحب القادم ، ظهرت القرون ونمت وتشعبت ، ليدخل بها معارك أخرى !

• • •

ولننتقل الان من ساحة الغابات والاحـراش حيث تعيش الخنافس والفزلان ، ولنتوجـه الى شواطىء البحار لنشهـد فصلا آخـر من فصول صراع الذكور على الاناث ، ولنتخير منهـا نوعـا واحـدا ، وليكن ذلك المخلوق « أبا جلمبـو » أو سرطان البحـر أو الكابوريـا .. تعددت الاسمـاء والمخلوق واحد (١) .

ففى فصل الزواج تنتشر الآلاف على مساحـة من الشاطىء ، وتقف الذكور على أهبة الاستعداد لاستقبال الانثى « أم جملبـو »

---

(١) ننقل هذه الفقرات بتصرف من كتابنا « زوجات مفترسات » .. كتاب الهلال أغسطس ١٩٧٠ .

وهى تسير وتتبختر ، وكأنهـا مانيكان أو عارضة أزياء .. أو ربمـا عارضة جنس .. لسنا ندرى ، لكن الذى ندريه أن كـل سرطان قد حفـر فى الرمل حفرة صغيرة ، ليختبىء فيهـا اذا ما تعرضت حياتـه للخطـر ، ثـم قد يتخذها بمثابـة عش للزوجية فى فصل التزاوج ، ولهـذا نستطيع أن نرى الالاف من هـذه الحفـر التى تنتشر على الشـاطىء ، وتختار الذكور الليـالى القمـرية ، ومن جحورهـا تخرج ، وأمـام « دورها » تتجول وتحجـل كالأحدب، لكن الشىء المميـز فى هـذه المخلوقـات هى مشيتهـا الجانبيـة ، وسلاحهـا البارز الذى يرفعه كل فتى فى الهـواء ، وبـه يلـوح ويتباهى ، وكأنمـا هو السيف المسلول الذى يدافـع بـه عن داره أو فتاتـه ، وكأنمـا هو يتمثل بقول شاعـر البشر :

ومن لـم يذد عن حوضه بسلاحه

يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم

والواقع أن سلاح « أبى جلمبـو » ليس الا مخلبـا ضخمـا متينـا ، قد يكون أطول من جسمه ، وبه يدخل معركة الجنس ليحظى بأنثى !

نحن الآن نعيش فى فصل الحب ، وفيه نرى هـذا المهرجان الراقص من الذكور ، وكأنمـا الدنيـا قد دانت لها ، وأصبحت طوع مخالبهـا ، ولا شك أن كـل ذكر يمنى نفسه بعروس .. أيـة عروس والسـلام ، فليس فى الامر اختيار !

وتأتى الاناث لتتجول هنا وهناك بين الذكور ، ويقف الفتيان أمام الدور ، وقد تمر أم جلمبو أمام فتى من الفتيان ، فلا تطاوعه نفسـه أن يتبعهـا ويسـير وراءهـا أينمـا سـارت .. ذلك أن التقاليـد التى ورثهـا ابـو جلمبـو عن أجـداده منـذ عشرات الملايـين من السنين تحتـم عليـه أن يلزم حدود الادب ، ان كان هنـاك أدب .. صحيح أن الفتى أقوى من الانثى وأشد ، وصحيح

انه يستطيع أن يختطفها ثم يغتصبها دون حس أو خبر ، الا انه ـ والحق يقال ـ لايفعل كما يفعل المتهورون من ذكور بنى البشر .. ليس ذلك خوفا من عقاب ، أو لانه يعرف الأصول فى معاملة فتيات نوعه ، ولكنه يريد أن يترك لها حرية الاختيار ، حقيقة عرفها أبو جلمبو ، ولم يعرفها « أبو شنب » !

ما على أبو جلمبو ـ اذن ـ الا أن يقف أمام أم جلمبو وقفة معينة ليستعرض فيها نفسه ، ومسموح له ايضا أن يلوح لها بمخلبه الضخم الذى اكتسب لونا كلون الحنة (أو الحناء) التى يضعها عرسان الريف وعرائسهم فى أيديهم وأرجلهم ، وربما كانت هذه العادة الريفية مقتبسة من أبى جلمبو هذا ، اذ أن مخلبه لا يتخضب باللون الاحمر الا فى فصل الحب والتزاوج ، والواقع أن هذه الحمرة القانية تتأثر بافرازات الهرمونات الجنسية ، وكلما زاد لون المخلب توردا ، فان ذلك دليل على فحولته أو « ذكورته » الزائدة ، أو أن الدافع الجنسى لديه شديد ، ولا تدرى أن كانت الحناء وتوردها فى أيدى العرسان والعرائس تعنى شيئا بالنسبة لهم ولهن أو لا تعنى ، لكن مما لا شك فيه أن تخضب مخلب أبى جلمبو باللون الاحمر القانى لمن العلامات المميزة فى الاختيار الطبيعى ، ولو اختارته أم جلمبو عريسا ، فسيكون عريسا « لقطة » تتمناه كل فتاة فى هذا العالم البسيط فى سلوكه وعاداته !

« وتتبختر » أم جلمبو وهى تمر أمام دور الفتيان ، ويأتى عريس وهو يلوح لها بمخلبه أو « ذراعه » .. وكأنما هو يقول « أنا هنا .. أنا هنا » .. ثم يهتز أمامها ويتشنج ويلوح ، وكأنما هو يرقص لها ليسترضيها ، ثم ينسحب الهوينى الى داره ، وينتظر قليلا ، فلعل الفتاة تستلطفه وترق لحاله ، وعندما يطول انتظاره ، يخرج ويبحث عنها حول

الدار ، فربما تكون واقفة غير بعيد « لتسوق » الدلال ، لكنه يراها وقد ابتعدت قليلا لتدخل فى مجال فتى آخر من الجيران ، ويحييها بمخلبه مثلما فعل الفتى المهجور ، وقد تميل اليه أم جلمبو وتقترب ، فربما كان هذا أكثر جاذبية ، وأخف حركة ، وأشد حرارة فى استقبالها ، لكننا لا نعرف السبب الكامن وراء هذا الاستلطاف ، ولهذا يهجم الذكر المنكود .. ليس على الفتاة ليأخذها غصبا ، أو ليضربها علقة ساخنة . ذلك أن القانون « الجلمباوى » لايبيح التعرض للاناث ، ولا ضرب الفتيات ، ولكنه يبيح أن يضرب الذكر ذكرا مثله حتى ولو أدى ذلك الى انتقال أحدهما الى الدار الآخرة !

أم جلمبو ـ اذن ـ فتاة مصونة ، ولها بين الفتيان مقام كبير ، واذا أراد الذكر أن يظهر فتوته وقوته ، فلا يجب أن يظهرها على انثى ، بل على ذكر مثله ، وتلك هى الاصول التى عرفتها مجتمعات أبى جلمبو قبل أن يظهر البشر بمئات الملايين من السنين !

ليس هناك من طريق آخر لحل الأزمة الا الحرب ، ولهذا يتقدم أحدهما نحو الآخر ، وهما يرفعان مخلبيهما ويلوحان بهما بشدة فى الهواء ، وكأنما هما يلعبان لعبة « التحطيب » التى يجيدها أهل الصعيد ، وهى التى يمسك كل فرد فيها نبوتا غليظا ليظهر به براعته أمام « السامر » عامة ، والفتيات خاصة ، ولكن أبا جلمبو لا يلعب ولا يتسلى ، بل سيدخل مع غريمه فى صراع حقيقى ، وكأنما كل واحد يقول لصاحبه « بينى وبينك معركة ، فمن تغلب فيها أستحقها ، ولتكن أم جلمبو حلالا عليه ، وحراما على غيره » .. وهنا تحدث بالفعل معركة طاحنة بالسلاح الأحمر .. نعنى بذلك المخلب المخضب « بالحناء » لطبيعية ذات اللون الأحمر القانى !

وتقف أم جلمبو غير بعيد لتشهد هذا الصراع المرير بين الذكرين ، وكأنما هى به فخورة ، اذ ليس هناك أسعد من فتاة وهى ترى الذكور يتطاحنون ويتنافسون على زواجها .. لا تختلف فى هذا أم جلمبو عن أم الخير !

يقول الذين شاهدوا سلوك هذه المجتمعات السرطانية انه بوسع الانسان أن يسمع صليل السيوف الحية ـ نعنى المخالب ـ وهى تتقابل فى ضربات متتابعة قوية من مسافة أمتار عديدة ، وقد تنكسر فيها المخالب وتبتر الارجل وتتهشم الصدور ، ولكن غريزة الجنس عندها قد تكون أقوى من غريزة الحياة ، وكأنما كل ابى جلمبو يريد أن يخوض المعركة حتى نهايتها ، ولهذا فقد تستمر وقتا طويلا ، الى أن يجد أحدهما أن سير المعركة ليس فى صالحه، فينسحب من الميدان ، ويترك العروس لعذوله ، وهنا قد تتبع أم جلمبو المنتصر الى داره ، فلقد استحوذ عليها بعرقه وذراعه أو قد تتركهما فى صراعهما وتسير ، فما أكثر الذكور ، وما أعظم المآسى التى تحل بها من جراء الفوز بالانثى .. وهكذا شاءت الحياة وقدرت من قديم الزمان ، وسالف العصر والاوان !

لهذا اذا رأيت اثنين من ذكور أبى جلمبو يتصارعان ويتطاحنان فابحث عن الانثى .. عن أم جلمبو .. لا فرق هنا بين بشر وسرطانات .. فالكل فى الغريزة سواء !

ضوضاء الذكور .. وهبالة الذكور

يبدو أننا معشر ذكور البشر قد ورثنا الكثير من عادات ذكور الحيوان .. فمن الظواهر الغريبة مثلا تلك « الاوركسترا » التى نصبتها الطبيعة من حولنا على هيئة أصوات تنطلق من حناجر الذكور ، لتعلن بها عن وجودها لعالم الاناث .. فالحمار ينهق ، والضفدع ينقنق ، والعصفور يزقزق ، والاسد يزار ، والديك يصيح ، والحمام يهدل ، والحشرات تصرصر وتغنى وتدق الطبول .. الى آخر الضجة التى قد يفصح بها الذكر عن وجوده ، وقد يكون ذلك خطرا على حياته ، لأن هذه الموجات الصوتية ـ التى نسمعها نحن أيضا أو لا نسمعها ـ قد يلتقطها مخلوق جائع ، فيعرف مكان الذكر من ضوضائه ، ولا يزال يبحث عنه ، حتى يهتدى اليه ، ويصبح صاحبنا « الولهان » لقمة سائغة من طعام ، قبل أن يسعد بلقاء أنثاه . وهكذا يدفع الذكر الثمن ، ولا تدفعه الانثى ، فلقد جنبتها الطبيعة مثل هذه الاعمال « الصبيانية » التى كانت من نصيب الذكور .

وعلى الوتيرة ذاتها يسير ذكور البشر .. لكن بطريقة أخرى!

فالشباب المراهق (وقد تمتد المراهقة أيضا الى الرجال الشيوخ والكهول) ينطلق مثلا فى الطريق ، فلا نسمع منهم الا سواتا كالنهيق ، فلا القانون يعاقبهم ، ولا حرمات الليل تمنعهم ، الذوق العام يشفع لهم ، وكأنما هم يريدون تبديد طاقاتهم

الكامنـــة عن طريق ضجة وصياح .. ربما ليلفتــوا نظر الجنس الآخـــر الى وجودهم ، أو ربما كانت عادة من العادات التى ورثوها عن « اجدادهم » من عالـــم الحيوان الذين سبقوهم فى الظهور على هـــذا الكوكب بعشرات ومئات المـــلايين من السنـــين .. فبئست العادات .. عادات الحيـــوان .. عادات البشر !

كمـــا أن المعاكســـات المكشوفـــة فى الطـــريق ــ بالكلمـــة أو الهمس أو اللمس وغـــير ذلك ممـــا لا نـــدرى ــ يقوم بها ذكور البشر أساســـا .. فقـــد يتغزلون فى هـــذه الفتـــاة بألفاظ نابية ، أو مـــع تلك بألفـــاظ مؤدبـــة ــ كـــل هـــذا يتوقف على النشـــأة والتربيـــة .. لكن هذه المعاكسـات المكشوفة لا تصدر من فتـــاة أو سيدة .. فالانـــاث أكثـــر حيـــاء من الـــذكور ، ليس فقط فى مجتمعـــات البشـــر بـــل نـــرى ذلك أيضـــا فى معظـــم المجتمعات الحيوانية ، فذكورها تتودد دائمـــا الى اناثهـــا ، وتبحث عنهـــا وتسترضيهـــا ، والطبيعـــة الحيـــة ــ كما يراهـــا العلمـــاء ويدرسونهـــا ــ مليئة بآلاف الصور من الغزل ، ولكـــل نـــوع من الذكور فى ذلك طريقـــة ، كما أن لكـــل انســـان أو شيخ سلوكا وطريقـــة !

وكمـــا يدفع ذكـــور الحيـــوان الثمن من حياتهـــم نتيجـــة لشوضائهم ، فقد يدفع البشر الثمن بطريقة أخرى .. قـــد تكون خفيفة ، وقد تكون شديـــدة .. فأما الخفيفة منهـــا فتتجلى لنا فى تلك الحملات الفجائيـــة التى يقوم بهـــا رجـــال شرطـــة حماية الآداب العـــامة فى الطريق العـــام ، وبها يحصلـــون على نصيب محمود من ذكور تنطلق وراء الانـــاث كالكلاب الضالة ، وفى مركز الشرطة يقومون بتحرير المحاضر المناسبة .. أمـــا الشديـــد منه فيتركـــز فى عمليـــات الاغتصاب بالقوة .. ومن حق أيـــة أنثى أن تلصق بالذكـــر منا اية مصيبـــة أو تهمـــة ، اذ يكفى ان تقـــول هى كـــذا وكـــذا ، فيضيع مستقبل الذكر . ذلك أن المســـاس بأى

جزء من أجزاء الانثى جريمة رهيبة . . ولكل جزء منها درجة ، وبها يـأتي الحـكم .. كذا شهـر أو كذا سنـة ، ودعـك من ضياع السمعة ، وهذا ينبئك بالخبر اليقين ، خبر أن المرأة ثمينة والرجل رخيص .. المرأة صادقـة ، والرجل كـاذب ، حتى ولـو ادعت عليـه ، والصقت بـه جنينـا أو نسبتـه اليه !

لكن دعنـا من كل ذلك فالكلام فيه يطول ولنعد الى نسائنا اللاتى يصفهن البعض بأنهن ثرثارات ، لكن ثرثـرة اللسـان قـد لا يأتى منها الضرر بقدر ما تـأتى من « ثرثـرة » مفاتن الاعضـاء الانثوية ، فكلمـا برزت وتكشفت لعيون الذكور الحـادة ، كلمـا كان ذلك ادعى الى ثورة أخرى تجتاح كيانهم الضعيف .. فعندما تلتقط العين المنظر الانثوى المثير ، فان الصورة بمفاتنها تنتقل الى مراكز الابصار فى المخ العظيـم ، ومنها الى المراكز العليـا حيث تترجم الرسالات الواصلة أولا بأول ، وتتحول الى خطة عمـل ، وبهـا تشتغل الغـدد ، ومن الفـدد تنطلق الهرمونات وتشتعل فى داخلنـا ثـورة الجنس ، لكننـا نكتمهـا كتمانـا ، رغـم أن التفاعـلات الكيميائيـة الحيويـة تشعلها فينـا نيرانـا (ولهـذا كثيرا ما نسمعـهم يرددون فى أغانيهم كلمة نـار .. مثـل حبك نـار ، ونار يا حبيبى نـار .. الى آخـر هـذه العبـارات التى نسمعها كالاسطوانات وقد يـكون لهـا طعـم أو لا يكون .. وكله تعبير عن لوعـة الجنس أو الحرمـان) ولابـد أن يـأتى صمـام الامـان ليلعب هنـا دورا عظيمـا ، ويكبح بهـذا جماح الانسان حتى لا يوصـم بوصمة الحيوان ، أو يزجبهفى غياهب السجن .. لكن أحيانـا قليلة قـد ينفلت العيـار ، ويختل صمام الامـان ، فتكون ظواهـر الاغتصاب ، وما يتبـع ذلك من محاكمات وأحكام أو قـد تتحـول الامور الى عمليـات قتال وصراع بين الذكور ، .تخـرج الانثى المثيرة (وأحيانا ما تكون غير مثيرة) من كـل هـذا ريئـة ، رغـم انها كانت المحرك البيولوجى الاول لكـل ما حدث

وسيحدث .. فنحن ــ فى الواقــع ــ بشر ، لكن ما يزال فى داخلنا حيــوان مفتــرس !

• • •

نذكر هنا حادثتين رأيناهما رؤية العــين .. الاولى كان بطلها فتى ، والثانيــة كــان حمارا .. ومسرح الاحــداث قــد نصب فى ترام وحقــل .. ولنبــدأ بالفتى والتــرام ، ثــم ننتهى بالحقــل والحمــار ، وبعــده نستنتج من تلك المشاهــدات ما يتعرض لــه عالــم الذكور ، وكيف انــه ينهــار أمــام الانثى ، ويظهر انــه المخلــوق الاضعف !

على كرسى فى تــرام رمل الاسكندريــة جلست فتــاة شبه عاريــة بحيث ظهرت لنا جميعا كتحفــة غاية فى الجاذبية والابداع والاثــارة ، فمنا من حوقل ، ومنــا من استعاذ ، ومنــا من نظــر واستملح وقــال « جميل .. والله جميــلٌ يحب الجمــال » .. ولكــل منا ــ بطبيعــة الحــال ــ فلسفته فى الحياة !

وامــام الفتــاة جلس ــ لسوء الحظ ــ فتى مراهق ، وظل يــرمق ويتأمل ، والعين تنقل ، والهرمونــات تفــرز ، والخلايــا تثرثــر ، والنبض يزيــد ، والتنفس يسرع ، والدم يندفع ، وعلى وجهه ظهرت علامات تؤكــد حدوث تغير فسيولوجى فى جسمه .. ومن المــؤكد أن هنــاك صراعا رهيبــا يجرى بين الفتى من تأثــير هــذا الجمال الصارخ على تفاعلاته البيوكيميائية ، وبين تقاليــد المجتمــع واحكامه وقوانينــه .. لكن يبــدو أن الغريــزة كا اقــوى من القانــون ، فلقــد انفلت العيــار ، وتهــاوى صمـ الامــان ، وهجــم على الفتاة كالحيــوان ، وانكب عليهــا تقبيـ « وحضنــا » ، وبسرعــة ايضــا هجم البشر على « الانسان .. ذلك الحيــوان » .. وخلصوهــا منــه بصعوبــة ، ومن التــرام انزلوهمــا ، ولا نــدرى كيف ســارت الاحداث بعد ذلك .. لكن

الذى ندريه أن الترام قد سار ببعض من فيه وانقسم مجتمعه الى قسمين : السواد الاعظم فى جانب الفتى المسكين ، وقليلون كانوا فى جانب الفتاة ، ووسط الضوضاء ، والتعليقات والمرافعات ، التقطت الاذن صوتا ناعما من فتاة تبرز مفاتنها الا قليلا ، وعلقت على ذلك بقولها « سوفاج .. آنيمال » .. اى متوحش .. حيوان ، هذا بالرغم انها كانت عربية فى تقاطيعها ولغتها ، وثار فى الوقت ذاته ذكر من الذكور لبنى جلدته وقال صارخا « نحن بشر » .. ولاشك انه يقصد أننا ضعاف أمام مفاتن الانثى !

الا لعنة الله على ذلك الهرمون العجيب ، الذى قد يمحو الارادة ، ويقلب الكيان ، ويحول سلوك الانسان الى سلوك الحيوان .. ومع ذلك فهو لذيذ وفعال ، بدليل هذا الطوفان الحى من البشر والحيوان !

وفى الحقل حدثت الحادثة الثانية .. فلقد كان أحد المزارعين يمتطى حمارا وبه على بركة الله يسير ، واذا بالحمار يتوقف فجأة عن السير .. فتنفرج شفتاه ، ويتسع منخراه ، ويحرك رأسه ذات اليمين وذات اليسار ، وكأنما هو يستنشق عبيرا فيه حلاوة ، وعليه طلاوة ، ثم أخذ ينهق نهيقا عاليا ، وفجأة جرى كالمجنون ، دون أن يستطيع صاحبه كبح جماحه ، وأخيرا اختل توازنه ، وسقط من فوق ظهر الحمار الثائر الذى انطلق كالصاروخ الموجه نحو الهدف، ولقد كان هدفه حمارة تقف على مسافة مائة متر أو تزيد وهجم عليها كما هجم الفتى من قبل على فتاته ، لكن الحمارة تمنعت ، وأخذت ترفسه برجليها رفسا شديدا ، الا أن حمارنا لم يبال بصفعات الحوافر ، وظلت هى تضرب ، وظل هو يحاول ، حتى وصل اليه صاحبه ، وبعصاه الغليظة هوى عليه بضربات قاسية متلاحقة ثأرا لكرامته التى أهدرها حمارنا عندما

القــاه أرضــا ، واضحك عليــه الخلق .. المهم أن الحمار المسكين قد عاد بخفى حنين ، بعد أن نال علقتين ساخنتين : علقـــة من الحمارة ، وعلقــة من الانسان !

والواقــع أن مثل هذه الاحداث كثـيرا مـا تتكرر فى عالـم الانسان والحيوان ، ومنها يظهــر الفــرق بين أنثى البشر وأنثى الحيوانات الثدييــة بوجــه عام .. فالحمار مثلا لا يثور جنسيـا مـا لـم تأته اشارة خاصــة من حمارة راغبة فى الجنس ، وعندئذ ينطلق نهيقــه عاليـا ، وكأنمـا هو يرد على تلك الاشارة الصامتة بأنكر الاصوات ، أو كأنما هو يجاوبها الشعــور ، وكأنمـا لسـان حــاله يقــول « لقد وصلتنى الدعوة ، وأثارنى المضمون ، وسأنطلق اليك كالفتى الجســور » !

غريب هــذا الامــر .. فأيــة اشــارة تلك التى يستقبلهـا الحمار ؟ .. وما هو مضمونهـا الذى يثيره ويجعله كالمجنون ؟ .. واذا كانت الحمارة تطلب جنســا ، فلمــاذا ــ اذن ــ لـم تتقبـل حمارها قبولا حسنـا ؟ .. هل يــرجع ذلك الى عــدم معرفتــه بأصــول « الايتيكيت » الحميرى ؟ .. أم أن فى الامر سرا عرفتــه الحمــير قبل أن يعرفه الانسان ؟

الواقــع أن ذكــور الحيوان ــ ومنها ذلك الحمار ــ لا تفكـر فى الجنس ، ولا تحس بالرغبة فيه كما هو الحال عندنا نحن معشر ذكــور البشر ، لكن الذى يحدث انه فى فصل من فصول السنــة ــ التى تختلف باختلاف نــوع الحيــوان ــ تجتــاح الانــاث رغبـة جنسـية ، وبطريقة فعالة وذكية تشــير ذكورهــا برائحــة خاصـة تبعثهــا فى الهــواء ، وكأنمــا هــذه الرائحة بمثابة عطر جنسى . فبمجرد استنشاقه ، ينقلب حال الذكور من هدوء الى هياج .. ومن تعقــل الى جنون ، وحسنا فعلت اناث الحيــوان ، فبــدون نهيق أو نقيق أو ضجيج أو صياح ، تفوح رائحتها الجنسية اذا ما

أحست بالرغبة فى الذكر ، ومن غدد خاصة تنطلق بلايين فوق بلايين من جزيئات كيميائية معينة ، فتنتشر فى الهواء لمسافات بعيدة ، حتى اذا وصلت الى منخارى ذكر يقف فى حاله،او يسير فى طريقه ، فانها تؤثر فى أعصاب الشم وتثيره ، حتى ولو كانت بتركيزات جد ضئيلة .. وعندئذ يعرف الذكر أن هناك أنثى تطلب جنسا ، وبهذا أصبحت الرائحة الانثوية بمثابة الزناد السحرى الذى يفجر القذيفة الجنسية فى الذكور ، ويجعلها تنطلق كالمجانين باحثة عن المصدر الميمون !

ولقد التقط حمارنا المذكور بمنخريه الرائحة ، فأثارت فيه كوامن الرغبة ، لكنه كان فى الواقع غبيا « طبعا لانه ذكر .. ولانه حمار » ، فانطلق الى أقرب حمارة ، وظنها انها باعثة الرائحة الذكية .. لكنها ــ والحق يقال ــ لم تفعل ، واعتبرت هجوم الحمار عليها افكا وعارا كبيرا ، فلقنته برفساتها درسا عظيما ، وكأنما لسان حالها يقول « أغرب عن وجهى أيها الاحمق ، فلست فى الجنس راغبة ، ولا له طالبة ، حتى ولو وهبتنى كل هذه الحقول من البرسيم » !

وأسدلت الستارة ، وعظمت فى عينى تلك الحمارة .. فقد دافعت عن « شرفها » (أن كان لها شرف) .. فكل الامور قد تؤخذ قسرا ــ الا الحب .. والجنس هو الشرارة التى توقظ جذوة الحب ، فاذا انطفأ ، انطلق الذكر الى حال سبيله .. وما أعظم الخدع والشراك التى نصبتها الطبيعة للذكور ، لتؤجج فيها النيران ، ثم تأتى الانثى لتطفئها ، أو قد تشعلها من جديد .. وهى بوسائلها الكثيرة على ذلك لقادرة !

نعود الى حمارنا الذى اكتوى بنار الجنس تارة ، وبحوافر الحمارة ثم بعصا صاحبه تارة أخرى ، فنقول : انه لغبائه قد خطأ الهدف .. اذ كانت الراغبة فى الجنس تقف غير بعيد من صاحبتها الحمارة الاخرى .. ولقد كانت النسمات تأتى من نفس

الاتجاه الذي تقف فيه الحمارتان ، ويبـدو أن الرغبة الجنسية قـد أعمت حمارنـا ، فلـم يفـرق بين هذه وتلك ، ومن أجـل هـذا فقد أخطأ الهـدف ، ودفـع الثمن ، واستحق علقتين .. وهمـا ـ أى العلقتـين ـ أهون من نيابـة ومحاكـم وفضـائح يكتـوى بنارها ذكـر الانسان دون الحيوان !

وهكذا تأتى الريـاح بما لا تشتهى السفن .. وكذلك تـأتى أيضـا بما لا تشتهى الحمير أو غيرهـا من ذكور شتى !

والواقع أن الرائحة الجنسية تلعب دورا هـائلا فى توجيـه الذكر الى الانثى أو اثارتـه جنسيـا ، ويكفى أن نذكـر أن عالـم البيولوجيـا مارتن ليندآور قـد قـدر عدد أنـواع الـروائح التى تطلقها الانواع المختلفـة من الحشرات بمـا يزيـد على ٥٠٠ ألف رائحـة .. ولكل رائحة منها تركيب كيميائى خـاص ، لتصبـح الرائحة بمثابة لغـة الحب والتزاوج ، أو كأنما هى رسالة معطرة ، ذات شفرة محددة ، ولن يلتقطهـا أو يتعرف عليهـا الا الذكـر الذى ينتمى الى نوع الانثى التى أطلقتهـا !

يعنى هـذا أن الاناث هى التى تطلق الـروائح الجنسيـة ، وعلى الذكور أن تلتقطهـا ، وتبحث عنهـا ، وتسعى اليها ، وهى ـ أى الانثى ـ جالسة فى مكانها معززة مكرمة .. ولقـد استفاد العلمـاء من هـذه الحقيقـة ، واستطاعـوا أن يقوموا بتحضـير بعض أنـواع الـروائح الجنسيـة التى تطلقهـا الانـاث فى عالـم الحشرات ، وبها يجذبون الذكور ، ويقومون بحرقها ، حتى لا تتاح لهـا فرصة تلقيح اناثها ، وبهذا يحدون من تناسلها ، ويسيطرون على أعدادهـا ، فيتضاءل ضررها .. وتلك صفعة جديـدة لعالـم الذكـور الذى كتب عليه ـ فى آخـر الزمن ـ أن يمـوت حرقـا بالنـار ، فى حين أن الانثى تحيا حياتها العاديـة ، وتموت موتتها الطبيعيـة !

لكن الغريب حقـا أن بعض اناث الحشرات تطلق روائحهـا فى ساعات محددة ، من الليل ومن النهار .. فنوع منها يفضـل اطلاقها بين الحادية عشرة مساء حتى الرابعـة صباحـا ، ونـوع آخـر يبعث بها ما بين الساعة الثانيـة الى السادسة صباحـا ، وهكذا قدرت الحشرات لرجلهـا قبـل الخطـو موضعهـا ، فمن المستحسن أن يبحث الذكـر عن أنثـاه فى ظـلام الليـل ، وهـو لا يستعين بعينيـه فى البحث عن فتاتـه ، بل يتوجه اليها ــ حيث كانت ــ بقرنى استشعاره اللذين يشبهـان الرادار .. صحيح ان شبكات راداراتنـا تشتغـل بالموجـات الكهرومغناطيسية ، لكن « رادارات » الحشرة توجـه نفسها عن طريق جزيئـات « عطـر الحب » الذى اطلقتـه الانثى فى الهـواء .. ولكـل رادار منهـا « موجـة » خاصة .. نعنى مادة كيميائيـة ذات تركيب محدد ، وبقرنى الاستشعار تفك رموز الشفـرة وتعرف معناها ، وتستمر فى البحث والطيران نحـو الانثى فى النصف الاول من الليـل ، ثـم ليبـدأ الحب والوصـال فى النصف الثـانى او قبيـل بـزوغ الشمس ، وبهـذا تضمن الاناث وصول ذكورهـا ليلا قبل أن تقع فريسة سهلة لحيوانات أكبر قد تصطادهـا فى الطريق نهـارا ، وتصبح لها طعامـا ، وهكذا وضعت الانثى خطتهـا ، وعلى الذكر أن يـكد ويسعى ، وقد يصل اليهـا ، أو قـد تأتيـه مصيبة فى الطريق ، فيصبح قربانا على محراب الحب أو الجنس .. لست أدرى !

لكن الحديث عن الجنس لا ينضب ، والكلام فيه لا ينتهى ، اذ يكفى أن نذكـر بهـذه المناسبة حديثنا مع مجموعة من الاصدقاء عن أمـور تتعلق بالعلـم والحيـاة ، وتشعب الحديث حتى وصلنا الى أسرار الجنس عندنا وعند الكائنات الاخرى ، وذكرنا ــ ضمن مـا ذكرنا ــ قصة الحمار مع الحمارة ، والكلب مع الكلبة ، واناث لانـواع الاخـرى مع ذكورهـا ، وكيف أن الانثى تستخدم عطرها الطبيعى لتجذب الذكـر أو تستثيره ، ولقد علق على ذلك أحـد

الظرفاء وقال : ليت لنسائنا ما لهذه الحشرات ، عندئذ كنا نريح ونستريح ، والمعنى طبعا فى بطن الشاعر أو العالم ، فهو يقصد أن تكون لانثى البشر غدة تفرز عطرا جنسيا طبيعيا ، بدلا من تلك العطور الخارجية التى تستهلك جزءا من الميزانية المنزلية ، ثم أننا ـ على حد قوله ـ فى حاجة ماسة الى هذا العطر المثير ، بعد أن نضب المعين ، وحل الفتور محل الحبور ، أو الزهد محل الرغبة !

ويعلق ظريف آخر على ذلك فيقول : ربما كانت هناك رائحة جنسية تطلقها اناثنا ، لكن أنوفنا لم تتطور بما فيه الكفاية ، حتى تلتقط ما يثير فينا الرغبة التى بدات تذبل وتذوى ، ولما لم تجد نساؤنا فى أنوفنا خيرا ، استعانت عليها بعطور علها تبعث فينا النشوة .. وهكذا يتبين لكم ولنا أن لكل عادة من عاداتنا جذورا حشرية ، وحميرية قديمة .. والله أعلم !

وأيا كانت الامور .. فلقد منحنا الله العيون ، لتغنينا عن الانوف ، كما منحنا العقول ، لندرك بها معانى الجمال ، ثم زودنا بالارادة ، لكى لا تنهار أمام مواكب الاثارة ، وهى ـ فى الواقع ـ مواكب متجددة متغيرة تهتز بمفاتنها أمام أعيننا ، فلا نستطيع لها صدا ، ولا لجاذبيتها بعدا !

لكن دعنا من هذه الجلسة « الرجالى » التى تتميز بالبرود والمناقشات والتعليقات التى تقرف النفس ، وتصدع الرأس ، ولنذهب الى ركن بديع للغرام بناه أحد الذكور ليستضيف فيه ما يشاء من الفتيات .. فهل تريد أن تحضر معنا ، لتشهد أمورا مثيرة لم تطرأ لك على بال ؟ .. أغلب الظن أنك سترحبون بذلك ، لنمتع النفس ونبتعد عن كل ما نلقاه فى حياتنا من هم وغم ونكد ومسئوليات .. لا هى ممنوعة ، ولا هى مرغوبة .. اذن ، فليكن ذلك ، وعلى بركة الله نسافر !

• • •

علينــا الآن أن ننطلــق الى استــراليا أو كوينزلانـــد .. بالخيــال لا بالجســد ، والخيــال ينبت من العقــل المـدرك فى الانســان لا الحيــوان ، لكن ذلك لا يعنى أننا سنقــدم ركن غرام خياليــا ، بل سنعيش بضع لحظــات من واقع الطبيعة الحية ، ولنتقابل هناك بذكــر من الطيور القريبة الشبه بالببغاوات ، ولقد اختــرناه هنا لانه ــ والحق يقــال ــ من أغرب الطيور التى درسها العلمــاء ورمقوها بدهشة واعجاب ، فذكرنــا هذا له مزاج فنان ، أو طبيعــة عاشق ولهــان ، لانه يشيــد لنفسه عريشة أو خميلة أو استراحة أو ركن غرام .. لسنــا فى الواقع ندرى اى الأسماء نختــار ، فقد تقولون انتــم مثلا : لماذا لا نسميه عشا ، خصوصا وأن الطيور تشيد لنفسهــا أعشاشا ، لتضع فيها بيضا ، وليس هنــاك داع للذكــر كل هذه الاسماء الحلوة التى عرفهــا الانســان دون الطــير ؟

لكن ذلك ليس صحيحــا فى حالة طائرنــا هذا ، فهو لا يبنى عشــا بالمعنى المفهــوم ، ولكنــه يقيم على الارض قطعة فنيــة من عريشة أو خميلــة خاصــة ، لا لتكون بيتــا للزوجيــة ، أو لتضع فيهــا الانثى بيضهــا ، ولكنه ــ فى الواقع ــ يبنيهــا « لمزاجــه » الخــاص .. فعش الزوجيــة شىء ، وعش الغــرام شىء آخــر ، فللطيــور أمزجــة ، كمــا للبشر أمزجــة .. والانثى فى ذلك هى القاسم المشترك الاعظــم ، ولها النصيب الأوفى !

والواقع ان طائرنا هذا يعرف باســم طائــر العريشــة أو الخميلةــ او « الخص » (Bower Bird) تعــددت الاسمــاء ، والمعنى واحد .. لكن قد تغيرون رأيــكم فيما بعــد ، وتختــارون لركن الغــرام هــذا أسماء اخــرى تساير الغرض الذى أنشىء من أجله ، ولكن نعد أن نقــدم لكــم شيئا عن « هبالته » مع فتياته ، ثــم ولعــه باستقبالهن فى ركنــه ، فمزاج هذا الطائــر ، أو سعيه لتشييد هذا الركن العجيب ليس فنــا مجردا ، أو مزاجــا غريبا

بدون هدف ، بل له ارتباط وثيق بهرمونات الجنس .. فالتجارب التى أجراها العلماء على ذكور هذه الانواع من الطيور تؤكد هذا المعنى ، فلو جئنا بذكر صغير ، وأزلنا له خصيتيه ، ثم تركناه حتى يبلغ مبلغ الفتيان من الطيور ، فلن يفكر اطلاقا فى بناء مثل هذا الركن أو العريشة .. فما فائدته ، وقد غاب عنه المحرك الاول .. نعنى غريزة الجنس ؟

ان الطيور لا تفكر فى تلك الغريزة الا فى فصول خاصة ، ولذا فهى عندها موسمية ، وعندما يحل موسمها ، نجد ذكور طائر العريشة ــ التى كانت تعيش فى جماعات يؤلف بينها الوئام والانسجام ــ قد بدأت تتفرق وتنفصل ليستقل كل ذكر منها بنفسه على قطعة من الارض التى يعتبرها بمثابة ملكية خاصة ، فلا يصح لذكر آخر أن ينافسه فيها ، أو يشاركه فى حدودها ، وكأنما الذكور هنا تسير على مبدأ « ابتعد عما يجرح شعور جارك ، ليكون كل واحد فى حاله ، دون أن ترقبه عيون الفضوليين من الذكور » .. ذكور الطير .

ويبدو ان للانثى عند الذكر هنا مقاما كبيرا ، ومن أجل هذا نراه يشتغل بالليل والنهار ، ويكد ويجتهد الاسابيع تلو الاسابيع ، ويبدأ فى جمع الخامات المحلية التى سيبنى بها ركن الغرام ، فتراه يطير هنا وهناك ، ليجمع سيقان النباتات ، وفروع الاشجار الصغيرة ، وبها يعود واحدة فواحدة الى الموقع الذى اختاره ، ويبدأ فى غرسها فى الرمال الواحدة بجوار الاخرى ثم يثبتها فى اماكنها بقطع صغيرة من الحصى والاحجار ، وهذا مجهود لاشك جبار ، اذ يكفى أن نذكر أن أحد العلماء قد أحصى لواحد من هذه الطيور أكثر من ثلاثة آلاف قطعة من نبات وألف قطعة من الحصى والاحجار ، ويعنى هذا انه قام بأربعة آلاف رحلة أو مشوار .. وشيئا فشيئا تقوم الاركان من الخميلة أو التعريشة ، ولتنتهى فى النهاية بصفين متقابلين

ومتلاصقين من اعشاب تمتد على ارضية ذات ظل ظليل ، وعلى الارضية تنتشر بقع ضوئية لتبدو عليها كالدنانير .. ولكل خميلة بابان متقابلان ، قد يتجه أحدهما جهة المشرق ، والآخر جهة المغرب ، أو قد يتجهان ناحية الشمال وناحية الجنوب .. كل هذا يتوقف على المناخ السائد فى المنطقة ، وعلى نوع الطائر الذى يشيد العريشة .. فمن المعروف ان لهذه الطيور انواعا كثيرة ، ولكل نوع منها فنه وتكتيكه ومزاجه « واتيكيته » فى استقبال الفتيات !

لكن ما شيده الطائر حتى الان ليس فى الواقع شيئا مذكورا فى اصول العمارة أو فى فنون الديكورات .. فكما نميل نحن معشر البشر الى الوان خاصة ، وكما تجذبنا أذواق معينة ، كذلك كان الحال عند ذكور هذه الطيور التى ظهرت قبلنا بعشرات الملايين من السنين .. فالذى بناه الطائر ليس الا هيكل العريشة ، وعلى هذا الهيكل يبدأ فى عمل ديكورات غريبة أو لوحات عجيبة ، مستخدما فى ذلك بعض الخامات المحلية التى قد تصادفه وهو يتجول باحثا عنها فى كل مكان .. وهو هنا كالانسان الفنان الذى يحب جمع التحف بعناية تامة ، ثم يضع كل قطعة فى مكانها المناسب ، ليبدو كل شىء متناسقا وجذابا .. وكذلك تفعل هذه الطيور على قدر امكانياتها بطبيعة الحال !

ولو قدر لك واطلعت على سلوك هذه الانواع ، وصبرها ومثابرتها فى تجهيز ركن غرامها الذى ستستقبل فيه فتياتها، لعرفت قيمة الانثى عند الذكر ولأدركت كيف سخرت الحياة من ذكورها بأساليب مختلفة ، لتهيىء للاناث ما تقر به أعينهن ، وترضى به نفوسهن .. فذكر طائر العريشة قد يقضى الاسابيع الطويلة وهو يعتنى بالخميلة .. اذ تراه يذهب كل يوم لاحضار زهور وثمار وأوراق ذات الوان خاصة ، ويلصقها على جدران خميلته، ثم قد تلاحظه وهو يبتعد قليلا ، وكأنما هو يرمق من بعيد

هـذا الديكور الجديـد ، فاذا لم يعجبه ، قفز على الارض قفزات سريعة ، ليقترب من العريشة فيغير نظام الـديكورات .. لكن الغريب أيضـا انه كلما ذبلت زهرة أو وزقة أو ثمـرة ، وأصبـح منظرهـا غير مناسب أو ملائـم ، انتزعها من مكانهـا ، ووضـع بـدلا منها شيئا طازجـا !

اغرب من ذلك ان ذكـور طيورنا هـذه لا تهتـم فقط بزينة الخميلـة ، بـل عليهـا ان تجهز أرضيتهـا بديكورات ليبدو كـل شيء رائعـا جميلا .. فأمـام مـدخلي الخميلـة ، أو فى داخلهـا تنشر اشياء غريبـة ذات الوان متقاربة .. فهناك طيـور تميل الى الالـوان الحمراء ، ولهـذا تجد أرضية ركن الغـرام مزينـة بورود وشرائط وورق وعلب واصـداف وثمـار وزرايـر وقطـع قماش وريش .. الخ ، وكـل الـوان هذه التشكيلـة العجيبـة احمـر فى أحمـر .. أما اذا كان النوع يميل الى اللون الابيض ، فسوف تجـد على الأرضية كـل ما هو أبيض لامـع ، وربما تجد بينهـا شوكا وملاعق وسكاكين صغـيرة وفوطـا بيضاء وساعات واصدافـا وقطنا وعظاما وقطعا من المرايـا .. الخ ، المهم انه .. « كله أبيض فى أبيض » وقد تتعجبون وتتساءلون : ولمـاذا الشوك والملاعق والسكاكين والفـوط ؟ .. ولمـاذا وكيف أحضرهـا ؟ .. وهـل سيقيـم للفتيات وليمـة ؟ .. أو هل سيهدى احـداهن ساعة من الساعات الموجودة على ارضية الخميلـة ، أو سـوارا معلقـا على جدرانهـا ؟ .. الى آخر هذه الاسئلة .

الواقع أن الذكر هنا لا يعرف معنى هذه الاشياء ، ولا يدرك مـاذا يمكن أن تستخـدم فيه ، ولكنـه يريد أن يجمـع أكبـر وأعظـم تشكيلـة من الادوات التي يميل اليهـا مزاجـه ، ويبد ان احضار هـذه المجموعة اللامعـة قـد يساعـد على اجتـذاب الفتيـات عندمـا تنعكس عليهـا أشعـة الشمس ، وترتـد الى أعينهن ، وتوجههن الى مكـان الخميلة ، وطبيعى أن وجـود هذه

الديكورات الحديثة لـم تظهـر فى خمائـل هذه الطيور الا بظهـور المدنية الحديثـة للانسان ، ولهـذا قد يحدث أحيانـا أن تغيب بعض ادواتـه المنزلية دون سبب ظاهـر ، ولو حدث ذلك عندنـا لقلنـا أن هناك عفريتـا من الجن يسطو على اشيائنا ويسرقهـا ، ولكن العفاريت لا توجـد الا فى خيالاتنـا ، وأيـا كانت الامور ، فـان أهـالى المناطق التى يسكنهـا طائر العريشـة أو الخميلـة يقولـون : اذا فقـدت شيئا ، ولـم تعرف لاختفائه سببا ، فعليك أن تذهب الى المنـاطق التى تعيش فيها تلك الذكـور ، فربمـا وجدتهـا بين ممتلكاتهـا ، لتزين بها أركان غرامهـا !

والوصف ـ طبعـا ـ غير الرؤية .. لاننـا مهمـا وصفنـا هـذه الذكور ودابهـا على العمل ، فاننـا لا نستطيـع أن نوفيهـا حقهـا ، لكنك لو رأيتهـا ، وراقبت أفعالهـا ، وهى تنظم وترتب وتعيـد وتغـير أوضـاع ديكوراتهـا ، لهتفت وقلت على الفـور « وتلك أمـم أمثالنـا » !

لكن .. لمـاذا تفعـل الذكـور كـل هـذا ؟

نـوع آخر من أنواع الاختيـار الطبيعى .. فجمال الخميلة هنـا ، وحسن ترتيبهـا ، وفخامة بنائهـا ، وتنوع ديكوراتها ، تعكس ـ بلا شك ـ ذوق صاحبهـا ويسـار حالـه ، الا أننـا لا نستطيـع ان نقـول ذلك بالنسبة للطيور .. لان طائر العريشة مثـلا ليس لديه رصيد فى البنوك أو أنـه يملك أطيانا وعمارات ، ولكن رصيـده الحقيقى يتمثل هنـا فى قوة احتمالـه وصبره على المكـاره .. فركن الغـرام الفخم جدا الـذى يشيـده بعض البشر دليـل ملموس على ذوق صاحبه ، وستحكـم على الفور ان كـان مليونيرا او بليونيرا أو حتى « ملليميرا » .. وسيدلك هـذا على طبقتـه الاجتماعية التى ينتمى اليهـا ، وطبيعى ان الامـير غـير الصعلوك ، والذى يملك خير ممن لا يملك ، والاناث بطبيعة الحـال

تميــل دائمــا الى الاحسن والارقى .. لا تختلف فى هذا أنثى طائر العريشـــة عن أنثى البشر ، فالــذى يهتـم أكثـر ، ويـؤثث أحسن ، ويكــدأعظــم ، يرتفع فى عين الانثى ، فهى التى ستحــدد الذكـر الصالح من الطالح ، أو الامـير من الصعلوك .. وهى التى ستضع درجة الامتحان بعد أن تفحص ورقة الاجابة .. وهى هنــا تتمثل فى ضخامة العريشـــة وحسن تنسيقهـــا ، وتنوع ديكوراتها، ولهــذا تتبارى الذكـور فيما بينها لتقديـم مشروع العمـــارة ليس فقط على الورق ــ ولكن على الطبيعــة لتفحصــه الاستاذة ــ تعنى أنثى الطـير ، وقــد يسقط فى نظرهــا ، أو قــد يصبح من الناجحــين !

صحيح أن فتيات الطيور اذا مـرت بالديار ــ ديــار هــذه الذكور ــ فلن تشهق وتقــول « يا أختى عليه وعلى ذوقه ــ دا باين عليــه واد لارج » .. ولارج كلمة بديلــة تتردد هــذه الايــام على السنة من يتنكرون للغتهــم ، وينتسبون الى كل ما هو أجنبى .. المهــم أن « لارج » تعنى الكرم ويسار الحــال والبذخ عندنــا نحن معشر البشر ، والانــاث عندنــا تحب هــذا النــوع من الرجــال « اللارج » .. وكلما ترددت هــذه الكلمة على السنتهن ليمتدحن بها ذكــراً « لارجــا » ، كلما زاد غــروره ، وانســابت نقــوده ، وسـالت ريالتـــه ، واخــيرا قــد يخلــو الجيب ، « ويتخــرب » البيت ، وقد تمتــد يده الى الاختلاس ، وقد يــذهب الى السجن بتهمــة النصب أو السرقة أو الاحتيــال أو السطو على الامــوال العامــة ، وغالبا ما يــكون وراء كل هــذا أنثى تضحك على الذقون بكلمــات تثير الغرور ، ومن بينهــا كلمـــة « واد لارج » .. وتلك فى الواقــع هبالة كبرى من الذكــور ، ومن النــادر أن تجدهــا الانــاث ــ فعلى الــذكور الــدفع والمصــاريف ، وعلى الانــا « الفرفشـــة والدندشـــة » !

لكن طائر العريشة لا يمكن أن يتهم بالسرقــة أو الاختلاس لو انــه سطا على الاموال العامة والخاصة التى تتمثل فى شوك أو

سكاكين أو ملاعق قد يراهـا بالصدفة من خلال نافـذة ، فيخطفها ويطـير ليزين بهـاعريشتـه ، ولا يمكن أن يذهب أحدهـم الى الشرطة طالبـا القبض على طائـر العريشة لانه استباح مـا ليس لـه فيـه حق ، ولـو فعـل الانسـان لاتهمـوه بالجنـون ، أو بأنـه أقل ادراكـا من طائر الخميلـة .. ذلك أن كل مخلوقـات هـذا الكوكب لا تدرك معنى الحلال أو الحـرام ، أو الفضيلـة أو الرذيلـة كما يدرك ذلك الانسـان ، كما انهـا ليس لها دين تـدين بـه (وماذا فعل أصحاب الدين بدينهم ؟) ، ولهـذا فعليهـا أن تفعـل ما تريـد دون طمع في جنة أو خـوف من نار ، وما أكثـر مـا يشقى أهل العقـول بعقولهم !

اذن .. فلقد جهز كل ذكر عريشته ، وزينها بما تيسر لتكون بمثابة ركن خـاص ، أو « رست هاوس » يستضيف فيـه الفتى من الطيـور فتيـات بنى جنسه .. يعنى جلسة حلوة كجلسات أصناف خاصة من ذكور بنى آدم .. وكلما كانت الخميلة جميلة ، كانت أكثر جاذبية للفتيـات ، وكأنما كل ذكر هنا يتيه ويتبـاهى على أترابه بما يستقبـل كـل يوم من موكب العذارى .. ولا يمكن بطبيعـة الحال أن يستقبل او يستضيف ذكرا مثله ، والا كـانت المعركـة .. وياالهبالة الذكـور !

لكن لا يجب علينـا أن نوصم ذلك الطائر بانه « زير فتيات » ، أو انـه ماجن داعـر ، فهـو — والحق يقـال — برىء من هـذا الوصف ، فجلسته مع الفتـاة فى الخميلة ليست الا نوعا من الانس أو الاستلطـاف ليس الا .. فعندمـا تقبـل عليه الفتـاة ، نـراه يستقبلهـا بصيحة عاليـة ، قد يكون لهـا معنى ، والمعنى فى بطن الطائـر لا الشاعر هذه المرة ، فهى لا شك تعنى البهجة والترحاب ، او ربما تكون بلغتنـا نحن « يا أهلا .. يا اهلا .. وألف مرحب » !

ولكى يـؤكد الذكـر « لرزقـه » الذى هبط عليه من السماء عظيـم سروره وحسن حفاوتـه واستقباله يبدأ فى اجـراء بعض

الطقوس والاستعراضات ، فيدخــل من باب ، وبسرعة يخــرج من الباب الآخــر ، ويدور حــول الخميلة ، ثــم يصيح ، وكأنمــا يقــول « يــا حلاوتك يا جميــل » .. ثم يدخل ويخرج ويصيح ، ويقف ليلتقط بعض ديكوراته بمنقاره ، ويقذف بها فى الهواء وكأنما لســان حاله يقول « كل هذا من أجلك يــا حلوة » ! .. ويبــدو أن بعض هــذه الحركات قــد ورثناهــا عن ذلك الطير الذى سبقنا فى الظهور على هذا الكوكب بعشرات المــلايين من السنين ، فعندما يثار بعضنــا بأمور تفقدنا بعض صوابنــا ، نرانا نقذف فى الهواء مــا بأيدينــا من اشياء .. تماما كما يحدث مثلا فى مباريات الكرة عندمــا يحرز أحد الفريقين هدفا فى الآخــر .. وفى كلا الأمــرين « هبالــة » !

ويستمر طائرنا هــذا فى حركاته واستعراضاته ، ويتــكرر المشهــد أمــام الانثى التى تجلس فى هدوء وهى ترمقه باعجاب أو احتقار ، لسنا ندرى ، ولكن الذى ندريه أن الفتاة قد تتركه أحيانا وتطير ، وكأنما هى «لاتستخف» دمه ، أو انه ليس ذكرا «لارج»،لا فى حسن الاستقبــال ، أو جمــال الاداء ، أو أحيانــا أخــرى قــد يأتيهــا المزاج ، فتقــوم وتدور وراءه ، ويدور هو وراءها ، فيدخل هــو من باب ، وتدخــل هى من باب آخــر ، ويستمــر هذا اللف والدوران والصياح من الذكــر ، وكأنما هو قد أصبح محطم قلوب العــذارى ، ومــالك زمامهن ، وبعــد فتــرة تجلس أنثى الطــير لتستريح ، وقد يقــدم لها الفتى شيئــا من الثمــار المعلقــة على جدران العريشة ، فتأكل وتبقى معه يومــا أو بعض يوم ، ثم تتركه وتطير دون كلمــة أو صيحة فــراق ، فينظــر اليهــا الذكر و· تبتعــد ، وقد تنطلق منه صيحة خافتة فيها حسرة ، وكأنما ه يقول : عليك اللعنــة ، أو كأنمــا هذا الذى تفعله اناث الطير نــ من « الاستقطاع » أو الاستغلال أو الاستغفال لعالــم الذكور . فالخميلة بالنسبة للانثى مكان فيه أكل وتسلية وأمان وجلســة

مريحة ومزاح على خفيف مع ذكر مخبول خير من حياتها فوق أغصان الاشجار .. فظل طائر ، ولا ظل غصن ، أو كما يقولون عندنا « ضل راجل ولا ضل حيطة » !

وتستمر هذه المضيفة العجيبة أسابيع طويلة ، وفيها قد يستقبل الذكر الواحد عشرات أو مئات الفتيات في الموسم ، وقد يرزق في اليوم الواحد بمثنى وثلاث ورباع ، وفي أيام أخرى لا تأتي الرياح بما تشتهي السفن — وطبعا كل ذكر وشطارته أو هبالته — كما يتراءى لك ، ولكنه لا يكل ولا يمل من استضافة الاناث ، فمجالستها ومغازلتها واللعب معها لا شك أمور حلوة ومثيرة ولذيذة .. وهكذا فقد أصبح للطيور أمزجة كأمزجة البشر !

لكن .. ماذا يستفيد الذكر من كل هذا ؟

سؤال لا شك خبيث .. انه على أية حال لا يستفيد شيئا مذكورا ، فهو لا يستطيع أن يقرب أية فتاة أو أن يعاشرها معاشرة زوجية ، ولا يحظى منها حتى بمجرد قبلة .. ان كانت بين الطيور قبل وأحضان !

ولماذا كل هذه الحركات الغريبة والمثيرة اذن ؟

الواقع أن العلماء لم يستطيعوا أن يقدموا تفسيرا مقبولا .. ويبدو — والله أعلم — أن ذلك قد يكون بمثابة مقدمة طويلة لابراز مؤهلاته الجنسية ونموها شيئا فشيئا ، وربما ينعكس هذا السلوك الذي يتميز بالحركة والنشاط « والانبساط » والانفعالات الى ظواهر فسيولوجية تؤدي الى نضج غدده الجنسية حتى يحين حصادها ، وفي النهاية تأتي من تحصدها ، والذكر اللارج » هو الذي يستقبل أكبر عدد من الفتيات ، وتبدأ فترة ارسة الجنس والتلقيح ، ومن تلقحت تترك « رست هاوس » رام ، وتنطلق الى قمم الاشجار ، حيث تضع بيضها في

عشهـا الذى أقامته من أجل أولادهـا ، وبعد أن يفقس البيض ، ويشتد عـود الصغار ، تنزل بهم أمهم من فوق الاشجار ، وتذهب معهـم الى استراحة الغرام .. أية استراحة تشاء ، فلا أحـد يعرف فى هـذا العالـم أن كـان الذى يوجد فيها هو أبـوه أو عمه أو خالـه أو جـده أو أى طائـر آخر لا يمت للعائلة بصلة ، ولكن الشيء المؤكـد أن التى معهـم هى أمهم ، وبهذا تستولى على عريشـة الذكر ، وتصبح استراحة لها وللاولاد ، ويبقـون فيهـا اسبوعا أو اسبوعين حتى يصيروا طيورا يافعة ، تستطيع الاعتماد على نفسهـا .

امـا ذكرنا الذى كـان قبـل ذلك دائـم المغازلـة والتـودد والصياح بما يستقبله من مواكب العذارى كـل مساء وصبـاح ، فقـد حل به القـرف ، وفقد الاهتمام ، وانطفـأت فيـه حـرارة الحفاوة ، ومظاهر الشقاوة ، وماله الان فى الغرام من مزاج ، فيطير ليتسلى مع سرب من أسرابـه ويتـرك الام مع عيالهـا ، ويـودع خميلتـه بصيحـة عاليـة ، وكأنمـا هو يقول « باى .. باى .. والى اللقـاء فى عام قادم » .. وبعدها ايضـا تتـرك الام والاولاد عريشة الفـرام ، وينفض المهـرجان ، ويخلو المكان ، بعـد أن كـان بمثابة ساحة عظيمة لأعظم واغرب واقدم « تكية » تقيمهـا الذكور للعذارى ، لتوضح لنا قصـة من قصص « هبالة الذكور » على اليابسـة !

ولننتقل الآن من تلك اليابسـة لنقـدم صـورة أخـرى غريبة من عالم الماء ، وفى الماء أيضـا يحـدث كـل ما هـو مثير وعجيب ، ولكننا لا نراه لاختفائـه عن عيوننـا !

• • •

ضيفنـا الجديد يمثل لنا نوعا من الاسمـاك التى تعيش فى أسراب أو جماعات ، وتختلط فيها الذكور بالاناث .. لكن بدو

معاكسات أو مغازلة ..وهذا النوع يسمى « أبو شوكة » .. وله فى الواقع ثلاث أشواك ، ولقد اختاره هواة أسماك الزينة لتربيته فى الاحواض .. والمعروف أن هذا النوع من الاسماك يعيش مع بعضه فى سلام ووئام ، لكن ما أن يحل فصل الحب والتزاوج ، وتظهر شرارته ، فانها تظهر دائما بين الذكور ، وعندئذ يتحول تجمع شملها الى فراق ، وصداقتها الى عداوة ، ووداعتها الى افتراس ، ولابد أن يهجر كل ذكر سربه الذى كان يعيش فيه ليهيىء لنفسه « كوشة » أو عش زوجية ليستقبل فيه عروسه ، فنراه يحفر بفمه فى الرمال ، وكأنما يشق فيها خندقا ، ثم يحضر الاعشاب المائية ، ويضع العشب بجوار العشب ، ويفرز عليه مادة لاصقة ، حتى تتماسك الاعشاب ، ولا تتبعثر بالامواج ، وفى النهاية - وبعد أيام من العمل المتواصل - نراه وقد اقام مخدعا مناسبا كالنفق الصغير ، لكنه يفى بالغرض الذى أنشىء من أجله .. فذكرنا هنا عملى ، وهو لا يميل الى تلك الامور التى يقوم بها طائر العريشة أو الخميلة .. المهم أن الذكور دائما هى التى تقوم بالتأثيث ، أما الاناث فليس لها فى « وجع » القلب نصيب ، فمن يريدها ، فليهيىء لها مكانا وليؤثث لها بيتا ، والا فلن ينال منها الا الاحتقار الشديد ، وكأنما لسان حالها يقول « حب ايه اللى انت جاى تقول عليه » (مع الاعتذار لأصحاب الأغنية) !

لو قدر لك واطلعت على ديار هذه الذكور من الاسماك ، لوجدتها متباعدة عن بعضها بمسافات مناسبة ، حتى لا تتداخل الملكيات ، ويحدث ما لا يحمد عقباه .. ذلك أن الذكر العريس لا يحب أن يرى عريسا آخر يدخل فى مجال كوشته ، والا كانت المعركة ، وقد يكون الذكران صديقين حميمين ، لكن الصداقة شيء ، والجنس شيء آخر .. غريبة

امور هذا الجنس الذى يكوى ذكور ذلك الكوكب بناره ، ويفعل بها كل هذا العجب !

بعد أن ينتهى العريس من تجهيز كوشة العروس أو مخدعها ، يبدأ فى تزيين نفسه ، ليكون مهيأ للمهمة القادمة ، وليبدو أمام العروس فى أكمل زينة ، وأروع مظهر ، رغم أن العروس هنا ليست مثله جميلة ، كما انها لا تهتم بنفسها مثل ما يهتم بنفسه ، ولكن الجنس قد يقلب فى عينيه معايير الجمال ، وقد يجعل القبيح جميلا ، فاذا انطفأت شرارته ، ظهرت الامور على حقيقتها .. وتلك مصيبة كبرى تشقى الذكور طويلا ، وتسعدها قليلا ، وكأنما الانثى تخرج لسانها لها ، وكأنما حال لسانها يقول « تمام بريالة » !

طبيعى أن عريسنا هذا « أبو شوكة » لا يعرف شيئا عن المساحيق المتعددة الالوان ، ولا الكوافير ، ولا المطور أو الملابس الجديدة ، ولا حتى « بدلة الفرح » .. لكن الطبيعة كانت معه كريمة غاية الكرم ، فلقد منحته أكثر مما منحتنا أو حتى اكثر مما منحت نساءنا ، وياليتهن جئن مثله ـ مثل أبى شوكة ـ بماكياج طبيعى ، عندئذ لتبدل حالنا الى احسن ، ولوفرنا جزءا من ميزانياتنا وميزانيات العالم التى تضيع كل يوم على أشياء تظهر ثم تزول بالغسيل .. بلايين الجنيهات تصرفها نساؤنا سنويا على زينتهن ، لكن والحق يقال فهن يتزين من أجل خاطرنا ، « ورزق الهبل على المجانين » .. « ومن دقنه وافتل له » !
لكن « أبا شوكة » لا يمتلك شيئا مذكورا ، ومع ذلك فا تحسدوه معشر الرجال والنساء على ما حباه الله من ماكيا طبيعى يسر الناظرين .. وما أعظم الجمال ـ جمال جاء طبيعيا ، لا صناعة فيه ولا تبرج !

عريسنا « أبو شوكة » كان قبل الزواج فتى لا يسر الناظرين ، فعلى ظهره سمرة وسواد ، وهذا ـ بلا شك ـ من ألوان الحزن والحداد ، ولابد من تغيير هذا اللون واستبداله بلون آخر أكثر بهجة وحبورا .. وقد كان !

فاللون الاسود الذى ينتشر فى خلايا ظهره يتجمع على هيئه بقع جد ضئيلة ، فلا تكاد تظهر وتبين ، وتنتشر بدلا منها مادة كيميائية اسمها جوانين ، ويتحول لون الظهر بعد ذلك الى زرقة سماوية بديعة بها شيء من لمعان كلمعان الفضة .. وبجوار ذلك تنتشر على جسمه حمرة باهتة « كالماكياج الباهت » .. فتزداد توردا واحمرارا ، ثم ينتقل الماكياج الطبيعى الى العيون ، فاذا بها تتحول من سواد الى بريق أزرق يسحر العيون ، وهنا يتبختر عريسنا فى الماء أمام كوشته ، وكأنما الطبيعة قد ألبسته حلة بديعة الالوان ، وزينته وقدمته لاناثه كتحفة فنية بارعة ، وكأنما هو يتبختر أمام كوشته ويقول « يا ماء .. ما فيك الا أنا » .

لكن الذى فعل فيه كل هذا مجموعة من الهرمونات ،من أهمها طبعا هرمون الجنس .. وهذا الهرمون العجيب يشتغل فينا أيضا بطريقة أخرى فيحولنا من نعومة الصبا الى خشونة الرجال .. وزينة الذكر منا هى رجولته وعقله .. وجيبه وما حوى ، ورصيده وما طوى !

نعود الان الى صاحبنا ذى الاشواك الثلاث ، وقد وقف كل ذكر امام كوشته ، وهو يتجول حولها فى انتظار وصول موكب العذارى ، ولكن قد يكون حظه نكدا أو « دكرا » ، وما نكده الا ذكر آخر من نفس نوعه ، وكأنما جاء ليسطو على كد غيره ، وعندئذ يقف صاحب الكوشة امام داره ، ويهدد هذا الطفيلى أولا بفتح فمه عن آخره ، ثم تتصلب

اشواكه ، لتبـدو كالسيوف المسلولة ، وكأنمـا هو بهذا الوضع يوحى الى القادم بأن عضته قـد تبعث بـه الى الآخرة ، أو أن فى كل شوكة من أشواكه عزرائيل مقيمـا ، ولكن الذكـر المهاجم قـد لا يهتـم بهـذا التهديد ، عندئذ يقوم العـريس بالاتيـان بحركة غريبـة ، فنراه يتجه براسه الى أسفـل ، ويقف عموديا على الـرمل وكـأنه « خـازوق » ، ثـم يعبث بفمـه فى الرمـال ، والـواقع أننـا لا نعرف السر فى هـذه العـادة القبيحة التى قـد تستمـر فترة من الوقت ، ولكن الذى نعرفـه انـه يستمر فى ملاحظـة الدخيل وهو بهـذا الوضع المقلـوب ، فـان رآه لا يريـد أن ينسحب من مجالـه ، أو أن يبتعـد عن كوشتـه ، انطلق اليـه وكأنه صـاروخ أرض جـو ، ولابـد أن ينتصر ، مـادامت الملكيـة ملكيتـه ، والحق حقـه .. ذلك أن الذكر الغريب جبـان طالمـا هو بعيد عن داره أو كوشته ، ولقـد أجرى العلمـاء بعض تجارب لتـؤكد هذه الحقيقة ، وظهـر أن من له بيتـا أو وطنـا ، يصبح أكثر جـرأة ، وأعظـم شجاعة أمـام الدار ، فاذا ابتعـد عنها ، أصبح جبانـا .. ذلك أيضـا صحيح فى طبائع البشر والكلاب .. فالغـريب غـريب الـدار أو الوطن ــ كمـا يقولون !

المهـم أن هنـاك بعض المعارك التى تحدث بين الذكـور ، ثـم تستتب الامور ، وتظهر فترات الحب والانتعاش ، وتبدأها الفتيات اللاتى يأتين سابحات متهاديات ، ثم تتجول هنا وهنـاك بين دور الفتيـان ، وقـد تقضى النهـار فى التسكـع والفرجة « والبصبصة » على موكب الذكور ، ومهرجان الذكور ، وهى الذكور التى يسعدها حضور هذا الحشد العظيم من العرائس التى جاءت الى عرسانهـا حوامل ، رغـم انه لم يطمسها قبلهم انس ولا سمك ولا جان ، ولكن الاسماك حوامل « بالبطارخ » التى تمتلىء بيضـا ، والبيض يحتاج الى تلقيح ، والتلقيـح لا يتـم

هكذا فى الخلاء ، بل لابد من تجهيز فراش للزوجية ، ومن لا فراش له ، فلا حق له فى اجتماع جنسى بالانثى ، ولا حب ولا ذرية .. لكن اجتماع الذكور بالاناث ليس جماعا بالمعنى المفهوم فى عالمنا أو عالم الحيوانات الاخرى ، ذلك أن الذكور هنا تضع اناثها فى الكوشة (أو فراش الزوجية) فى وضع مناسب ، ثم تدغدغها وتلاطفها حتى تقذف بويضاتها فى الماء .. وبالتحديد فى الكوشة التى تصبح فى الحال مهدا للانجال ، ثم يقذف الذكر بخلاياه الجنسية بالملايين ، ويتوه منها ما يتوه ، والقليل يهتدى الى بويضاته فيلقحها .. وكل هذا يعنى أن « أبا شوكة » ليس له مؤهلات ذكورة ، ولا للاناث مؤهلات أنوثة ، ومع ذلك فكل مخلوق قد يجد سعادته فى أشياء قد لا تعجبنا ، وسواء اعجبتنا أو لم تعجبنا ، فان موكب الجنس والحياة لا يزال يسير على هذا الكوكب منذ مئات الملايين من السنين بتخطيط عظيم ، لا خلل فيه ولا فوضى ، وما أكثر الخلل والفوضى التى يعيش فيها أصحاب العقول !

•

نحن الان فى الماء أمام ذلك المهرجان الممتع .. للفتيات الحوامل الدلال والتمنع ، وللذكور الرقص والتودد ، الا أن رقصة الذكر هنا لها أصول ، وتسير على تقاليد شرحها قد يطول ، ولكنها تعنى بالنسبة للانثى أشياء قد لا نفهمها نحن فى لغة هذا العالم الذى يسكن الماء .. فهى نوع من السلوك الذى قد تحكم به الانثى على الذكر ، وفى عالمنا نحن توجد أيضا القصة نفسها ، فكثيرا ما نسمع من سيداتنا وفتياتنا نفس الحكم علينا ، فيقلن « يا اختى سيبك .. دا بلدى قوى » و قد يقال « دا جنتل ولطيف خالص » .. ورغم أن البلدى » — نسبة الى بلدنا وتقاليدها — لا يعجبهن ، ومنه سخرن ، الا أن ذلك قد يعجب الذكور فيقولون عنهن « البلدى وكل » .. وهى لا شك أصالة من الذكور !

المهم أن الفتى الواقف أمام الكوشة ، اذا ما رأى موكب العرائس يخطر ويتهادى ، فانه ينطلق نحوه وهو يثب فى الماء وثبة من وراء وثبة ، كوثبتنا نحن على الارض من فرط السرور ، ولكنه يكر الى كوشته عائدا ، وكأنما هو يفر منها هاربا ، أو ربما ليرشدها الى طريق كوشته ، لسنا فى الواقع ندرى ، ثم سرعان ما يدور متجها اليها كسهم مارق ، وفمه على آخره مفتوح ، وكأنما هو يريد أن يقضم العرائس قضما ، وتتكرر هذه الحركات التى قد تنفر منه بعض الفتيات ، وربما لو تحدثن كفتياتنا لقلن « ياسم على شكلك وعلى بقك المفتوح » .. المهم أن مجرد وجود موكب الاناث ، يطلق فى الذكور شرارة الهبالة ، وكأنما هى قد فقدت عقولها أن كان لها عقول ، وتبقى الفتيات فى حركاتهن « ثقيلات » وكأنما « يتمنعن وهن الراغبات » .. لكن مما لاشك فيه أن بعضهن قد يكون لديها الاستعداد ، فمن ارادته منها ، واعجبتها حركات ذكر من ذكورها ، فانها تسعى اليه ، وتتخذ وضعا متعامدا عليه ، وهذا يعنى الرضا والقبول ، وبسرعة يتجه الذكر الى كوشته ، ومن ورائه الراغبة ، وهناك يريها طريق الفراش ، فيضع راسه على عتبة الدار ، وكأنما يشير اليها أن تدخل فيها ، فتدخل براسها حتى تبرز من الناحية الاخرى ، ويقف الذكر خلفها ، ليدغدغ ذيلها ، فترتعد الانثى رعدة خفيفة ، وكأنما هى به نشوى ، فتضع بويضاتها فى الفراش ، وبعد ان تنتهى يدفعها الذكر لتخرج الى غير رجعة ، ثم يدخل الى داره ، ليلقح البويضات ، ويثبتها فى مكانها ، ثم يصلح ما قد تهدم نتيجة لرعونة فتاته !

ويعود الذكر لينتظر موكب الاناث من جديد ، ويكرر الطقوس نفسها ، فتتبعه الى الدار انثى ثانية ، وربما ثالثة ورابعة ، حتى تتكدس كوشته بعدد كبير من البويضات ،

وحسنا أن تكون له ذرية كثيرة .. فلا مدارس هناك ولا مواصلات ولا ملبس ولا مصاريف ولا مسئوليات جسام كالتى تقابلنا نحن من جراء تكدس السكان .. فزيادة الثروة السمكية والحيوانية نتيجة لكثرة الذرية يعنى خيرا لنا ، ورخصا فى الاسعار ، لكن يبدو اننا نتناسل بأسرع مما يتناسل السمك والطير والمواشى ، ولهذا زاد العرض فى البشر ، وانخفض فى اللحم ، فرخص البشر ، وارتفع سعر اللحم والسمك .. لكن دعنا من كل هذا ، فالكلام فيه يطول ، ولنعد الان الى ذكرنا ذى الاشواك الثلاث ، فهو الذى يقوم برعاية الاطفال ، أما الامهات فقد تركن له الحبل على الغارب ، وذهبن للتجمع من جديد فى أسراب ، ويبقى كل ذكر أمام كوشته ، وقد فقد كل اهتمام بفتياته ، وبهذا تختفى دوافع الجنس تدريجيا ، وتحل محلها دوافع الابوة الرحيمة ، والرعاية المستديمة ، فيقف كل اب أمام داره ، ليدفع الماء بزعانفه ، فيمر من خلال مهاد الانجال على هيئة تيارات حاملة معها امدادا مستمرا من الاوكسيجين المتجدد ، ويستمر الاب على هذا الحال أسبوعا كاملا ، حتى تفقس البويضات فى اليوم الثامن ، ومنها ينطلق الصغار ، لكنها لا تبرح مكانها الا بعد يوم كامل ، ثم تخرج من مهادها لتجد أباها واقفا فى انتظارها ، وهنا تبدأ متاعبه الحقيقية مع شقاوة الصغار ، فقد يبتعد أحدها عن أخوته ، فينطلق أبوه وراءه ، ويلتقطه بفمه ، ثم يعود به« ليبخه » بين اخوته .. كما أن رحمة الابوة قد تنقلب الى قسوة وشراسة ، اذا ما حل بمجاله ذكر آخر أو أم الاولاد ، ذلك أن الام هنا قد تأكل أولادها لولا يقظة عين الاب التى لا تغمض ولا تنام ، وهكذا تستمر التنشئة والحراسة لأكثر من خمسة عشر يوما ، وبعدها يكبر الاولاد قليلا ، ثم يبدأون فى التجول هنا هناك ، لكن عين أبيهم لازالت عليهم حارسة ، وتمر الايام ، كبر الصغار ، وتتلاشى عاطفة الابوة شيئا فشيئا ، كما يبدأ فى

التخلى عن زينتــه وماكياجــه الطبيعى يوما بعد يــوم .. وكما بــدأ عــاد !

وفى النهايــة يعرف أن الاولاد ليسوا فى حاجة الى الرعاية ، فهــا هو يراهم وقــد لجــأوا الى التجمــع مــع أسراب الاولاد والبنات الأخريات ، وهذا يعنى أنهــم قد بداوا فى الاعتمــاد على انفسهــم ، وقــد يقف كل أب ليلقى نظرة أخــيرة على أولاده ، وكأنما هو يتمنى لهــم ما يتمناه كل اب لابنائه ، وبعدها ينطلق الابــاء ليلحقــوا بالاسراب التى تناسب سنهم ، وينطلق الاولاد فى أسراب اخرى ، وهكذا ينفض المهرجــان ، وتبقى الكوشــات مهجورة ، ويحــل بها البلى شيئا فشيئا ، ولكن لابد أن تعــود يومــا ، لتحكى لنــا قصة رائعــة من قصص حيــاة لا نراهــا ، ومــا أكثر ما لا نرى ، ومــا أعظــم ما نجهل !

وأخيرا .. فلتصفقوا معنــا لهذا الذكر ، فلقــد اثبت لنــا عظم المسئولية ، وجلال الرسالة ، ولو كــان الامــر بأيدينــا ، لأقمنــا لــه عيدا !

• • •

ولنترك الآن عالــم الخنافس والاسماك والطيور والـكلاب والحمير ، ولنقفز فى سلــم التطــور قفزة كبيرة ، لنعيش بضــع دقائق مع أقرب أنواع الحيوانات الحية الى الانســان .. ممثلة فى القردة العليا (الشمبانزى والغوريلا والاورانج أوتــان أوانسان الغــاب) .. وفى القرود الدنيــا ذات الأنواع التى يباعد بيننــا وبينهــا مراحل تطوريــة عمــرها عشرات الملايين من السنين .. بعضهــا ليس له ذيول مثلنــا ، وبعضها بذيول !

ولنأخذ واحدا من هذه الانــواع كمثــال ، وليكن القــرد اليابانى ، وسبب اختيارنــا لهذا النــوع أن له تركيبــا اجتماعيا معقدا ، كما أن مجتمعاتــه قــد درست بشىء من التفصيــل ..

ولننقل الان فقرة من مقال بعنوان « سلوك الذكر عند الحيوانات العليا ونظيره عند الانسان » (١) « حيث يذكر مؤلفاها » أن التركيب الاجتماعى للقردة اليابانية قد ينعكس فى انتشارها المتسع عندما تهدأ المجموعة وتستقر فى مكان الغذاء حيث تتكون فعلا حلقات اجتماعية فتحوى الحلقة الداخلية الصغار من كلا الجنسين مع جميع الاناث التى تتمتع خلال حياتها بالمزايا الخاصة فى هذه الدائرة الداخلية ، فتكون أول من يتناول الغذاء ، وتأخذ مكانا أمينا وسطا كلما تجولت المجموعة ، ويرجع الفضل لهذا الوضع المركزى الاستراتيجى عندما تتمكن الاناث من ممارسة نفوذها الهام فى التنظيم الاجتماعى .. ويكون اساس التنظيم دائرة داخلية واخرى خارجية مع بعض الذكور المنعزلة وطريدة الجماعة ، وهذه تبقى خارج الحدود ، وعند التحرك تأخذ الذكور التى تعد فى المرتبة القيادية الثانية أماكنها فى مراكز أمام الجماعة وخلفها ، وتبقى نسبة ضئيلة من الذكور اليافعة فى الحلقة الداخلية ، وذلك بعد أن تكون قد قضت سنوات خارج حدود منطقة الجماعة ، فبعد بلوغها العام الثانى من العمر تخصص الذكور اليافعة لحراسة الحدود الخارجية لمنطقة الجماعة ، وتخدم فى عمليات الاستكشاف أثناء السير ، وأخيرا قد يرقى الذكر الى رتبة مساعد قائد ، وعندئذ يعيش على حافة الدائرة الداخلية ، ويقوم برعاية الاناث الاقل مرتبة عند حدود المنطقة مراعيا عدم ابتعادهن أو تخلفهن بعيدا أثناء سير الجماعة ، وفى النهاية قد يدخل الذكر وسط الدائرة ، ويعيش هناك كقائد لها

---

(١) مقال ترجمه الدكتور عماد الدين أبو النصر – الأستاذ بكلية العلوم – جامعة القاهرة فى الطبعة العربية من مجلة العلم والمجتمع .. تأليف كلير راسيل الإخصائية فى التحليل النفسى ، م . س . راسيل أستاذ البيولوجيا الاجتماعية (مطبوعات اليونسكو) .

يتحكم حتى فى تحركـات الانثى البارزة فى الجماعـة ، ولا يخرج الا فى حـالات الخطـر عندما يستـرد الاشراف من مساعديـه ، وتتقبل الاناث عادة رعاية الزعماء من الذكـور ، ولو انـه نظرا لان لهـا السلطـة والتحكم فيمن يدخل منطقة الوسط .. فكثيرا مـا تحدد أى الذكور تكون له الزعامـة ، وكثيرا ما ترفض دخول الذكـور الشرسة المتهجمة ، وفى احدى هذه الجماعـات ثـارت القردة ضد الزعيـم الذكر وعزلته ونصبت بدلا منه أبرز الاناث زعيمـة للجماعة كلهـا ، ويبدو أنهـا قامت بـوظائف الزعامـة الطبيعيـة .. وهكذا تكون « دولة الحريم » فى مجتمعات القرود .

ويبـدو لنـا هنا سؤال وجيـه : ما هى مؤهلات الذكـور المحظوظـة جـدا حتى تختارها الانـاث ذوات المكانة المرموقـة فى وسط الجماعـة ؟

والجواب كمـا يجىء فى مقالة راسيل وراسيل « لقـد عرف عن هذه الذكـور أنهـا تحسن القيام برعايـة الصغـار ، وأنه نتيجة لهذا تحصل على مراكز أفضل بين الجماعة ؛ وتدعها الاناث لتأخذ لهـا مكانا فى الدائـرة المركزيـة ، وعندمـا تـكون الاناث على وشك الوضع تترك أحيانـا الصغار من نتـاج العام السـابق فى حضانـة الذكـور لتحضنهـا وتحملهـا وتنظفهـا وتحميهـا » !

ولنجعـل التعليق على هذا الموضـوع من عندنـا هـذه المـرة .. فالاناث ذات المراكز المرموقـة فى عالم القرود تختـار الذكور القويـة فى آن ، والمطيعـة فى آن آخـر ، وكأنمـا قـد ضربت عصفورين بحجـر واحـد ، فاذا اظهـر القـرد التمـرد ضربته وطردتـه من الجماعة .. أى أن الذكر لابـد أن يكون ذا فائـدة ومزايـا كثيرة حتى يكون مرضيا عليـه .. فالضعيف فى عالـم القرود ليس مرغوبا فيـه ، والقوى مرغوب فيه لقوته ،

لانــه سيورث هذه القــوة للاجيال القادمة ، كما أنــه يستطيع ان يحمى الجماعة ، وفوق كل هذا فلابد أن يساعد الاناث فى تربية الصغــار .. اى انــه يشتغــل عنــدهن « دادة » .. ليكــون مرغوبــا فيــه !

هذا الفعل نفسه يظهر فى بعض مجتمعات البشر ـ خصوصا المجتمعات التى يصبح فيهــا للمــرأة العاملة مكان مرمــوق .. فالزوج المطيــع افضل عندها من الزوج الذى يظهر عليــه التمرد والانفة من المشاركــة فى أعمال البيت ، بحجــة انه رجــل .. عندئذ قد تلعنــه سرا أو علنــا ـ على حسب قدرتهــا فى كبــح جماحه .. ونحن شخصيــا نعرف عددا لا بأس بــه من الازواج الذين قــد يشاركون فى أعمال البيت عموما ـ بما فى ذلك المطبخ .. وقــد تفخر الزوجات بذلك ، وكأنما الزوج الذى يعرف شيئــا عن التدبير المنزلى افضل ممن لا يعرف شيئــا ، وقــد تسمــع منهن هذا التعليق أو شيئا قريبــا منه فيقلن « دا جوزى امــير ومتعاون وبيموت فى حبى خالص » ! .. ولو علمت حقيقــة مــا يجــرى فى نفســه لضربتــه علقة ساخنة كل صباح ومساء !

ما اشبه بعض اناث البشر ببعض اناث القرود !

ولنــا مع القــرود عودة !

ذكور تتودد .. وأناث تتدلل !

لـو أنك لاحظت طوفـان البشر ومجتمعاتـه ، ثـم تأملت سلوكه ، ودرست تصرفاته ، لاستطعت أن تحكـم من منـه قد تزوج ، ومن منه لا يزال فى مرحلة الخطوبة والعســل والحب .. أو مـا فوق ذلك ، أو ما دون ذلك .

والذين ليست لديهـم حنكة أو فراسـة ، فسـوف نيسر لهـم سبل الملاحظـة والدراسة ، ولنأخذهم معنـا الى مـكان ؛ وليكن ذا جـو شاعرى يوحى بالبهجة والبشر والسرور والحب ؛ ولنـراقب ـ بوعى ـ سـلوك البشر من الجنسين (أى الذكـر والانثى) ، وهـم يتوزعون على موائـد تنتشر بين الزهور ، وفى ظـل الخمائل والاشجار ، ولنتخـير من يجلسـون مثنى مثنى ، وليكونوا من الشباب أو متوسطى السن ، ولا شأن لنا بمن هـم فى سنى الشيخوخة والكهولة ، فلهؤلاء أحكام لا تدخل ضمن تلك الدراسة .. فمـاذا سنـرى ؟

قد نرى فتـورا .. أو قـد نلحظ حبـورا ، أو مـا بـين ذلك تـكون الامـور !

فاذا رايت الذكـر يتكلم كثيرا ، والانثى قليلا !

واذا لاحظت أنه يميل ويقترب منها باعا ، وهى تتمنع بدلال وتبتعـد عنـه ذراعـا !

واذا شاهدته وكأنما هو فيها قد ذاب ، وعن الوجود قد غاب ، أو كأنما ليس فى الدنيا غيرها ، ولا يرى فيها أحدا سواها !

ثم اذا رأيتها وهى تنطلع اليه ، مركزة عينيها عليه ، ثم تهز راسها بخفة ورشاقة ، وكأنما هى توحى له بأنها بوجوده نشوانة (أو ربما غير نشوانة .. ويكون كله تمثيل فى تمثيل .. فالانسان مخلوق غريب ، يتساوى فى هذا الذكر والانثى ، وان كان الذكر فى هذا المجال أضعف) !

اذا رأيت هذه العلامات البسيطة ، فاعلم — يا صاح — أن هذا الذكر لا يزال فى مرحلة التودد على الطريقة البشرية ، ولا تزال الانثى فى طور الدلال والتدلل على الطريقة الحوائية .. والتودد والتدلل يحملان صاحبيهما غالبا الى القس أو المأذون ، فهذه الجلسة الحلوة تؤكد أنهما لا يزالان فى أول الطريق ، وانهما فى دور الحب والهيام ، حيث يقضيان أسعد الايام ، وبعدها ستحل المسئوليات الجسام .. يروح العسل ، ويأتى البصل ، وكذلك يعبرون ويصفون !

ولنتجول بعد ذلك بعيوننا الفضولية (وليغفر الله لنا هذا التأمل البرىء والدراسة العابرة) ، ولنلتقط مشهدا آخر غير بعيد .. ذكر يجلس ساهما ، أو يقرأ جريدة أو كتابا ، وانثى معه تشتغل « تريكو » أو تحيك فستانا .. الكلام قليل « وبالقطارة » ، وأن كان كلام الانثى هذه المرة أكثر — نسبيا — من كلام الذكر ، ومع ذلك فالجلسة راكدة باردة ، تتخللها التثاؤب وعدم مبالاة أحد الطرفين بالآخر !

اذا رأيت هذه الحالة التى تشبه تليفونا مقطوع الحرارة ، فاعلم أنهما متزوجان .. ربما حديثا أو لبضع سنين أو أكثر من ذلك قليلا !

ولا تعليق لدينا عما يجرى على هذه المنضدة أو تلك ، فنحن فقط ننقل صورة .. ربما تراها فى شارع أو فى ترام أو فى كازينو على شاطىء البحر الواسع ؛ أو على شط النيل العظيم !

لكن .. ما أعجب المفارقات بين جلسة وجلسة ، وحياة وحياة !

وما أعجب المفارقات أيضا فى معرض الجنس والحياة .. فالغزل والتودد الذكرى ، والدلال والتدال الانثوى ، ثم هذه العاطفة والآمال المتقدة ، او ذلك الركود والبلادة الظاهرة ، ليست الا أمورا لها جذور عميقة تمتد الى الوراء عشرات الملايين من السنين ، وتنبثق اساسا من تودد وتدال ظهر فى عالم الحيوان ، ثم ورثه ذلك الانسان الجالس فى كازينو على شاطىء النيل ، او فى الخلاء تحت شجرة توت او تين !

لكن الانسان مخلوق ذكى خبيث ، فتارة يظهر غير ما يبطن ، وتارة اخرى لا يستطيع ان يفهم ذاته ، ومن هنا كان سلوكه معقدا .. فكل فرد منا ليس الا عالما قائما بذاته ، فلا يتشابه مخلوق مع مخلوق آخر فى الصفات والبصمات والسلوك والطباع والفكر والمزاج .. الخ ، كما ان كلا منا يتودد على طريقته الخاصة ، وللنساء التدلل على طريقتهن الخاصة أيضا .. وقد يكون التودد والدلال ساميا ، أو قد يكون حقيرا .. أو ما بين ذلك تكون الامور !

وطبيعى أن يكون لكل منا قصة حب او زواج أو ربما قصص كثيرة ، ومن هنا لا نستطيع ان نتعرض لكل هذه « التابلوهات » الحية المعقدة ، والاحرى بنا ــ اذن ــ أن نلجأ الى صور ابسط من التودد والدلال ، بلا لف أو دوران ..

ولنتـرك مجتمعـات البشر ، ولنلجـأ الى عالم الحيوان .. ففى تودده ودلالـه بساطة فى الاداء ، ولقـد رأينـا بعضـا من هـذه الصور مع ابى جلمبو وطائر العريشـة وذكر السمك ذى الاشواك الثلاثة .. الخ ، الا أن القصة لم تنتـه بعد ، ولنتعرض لفصول أخـرى ، ليتبـين لنـا كيف نبعت عاداتنـا فى الاستعـراض والتـودد للأنثى !

والواقـع أن تودد الذكـر ، ودلال الانثى ظاهرتان واسعتا الانتشار فى مملكـة الحيوان ، فالذكر دائما يستعرض ويتقرب ، والانثى تدرس وترقب ، وقد ترفض وتقبل .. ولكـل نوع من الانـواع تقاليـده وسلوكـه مـع أنثـاه ، وغالبـا مـا تـكون للانثى قدسيتها واحترامهـا بين الذكور ، فقد يهين الذكر ذكـرا مثلـه او قـد يقتلـه ، لكن ذلك لا يسرى على الانـاث .. فهن فـوق العـين والـراس !

هل لاحظت مثـلا حيـاة ذكر من الحمام مع حمامته ؟ .. هـل رأيت كيف يطـوف حولهـا ، ويتمسـح بهـا ، ويكنس الارض بذيلـه الذى انفرد على آخره ؟ .. ثـم هـل سمعتـه وهـو يغنى لها أغنيـات ذات مقاطـع يستحـق عليهـا ضرب النعـال ؟ .. طبيعى أنه فى أدائـه وغنائه واستعراضاتـه التى قـد تستمر ساعات طويلة (ويـا للصبر !) يظن نفسـه الفتى الاول والمطرب الاول فى عالمـه الذى فيه يعيش ، أو انه ليس فى الامـكان أحسن ممـا كان ، ثم قد تـراه وهـو يسرع اليهـا ، ليدغدغ رأسهـا بمنقاره ، وأحيانـا ما تسول له نفسه شيئا ، فيضـع بسرعة شفتاه على شفتيهـا (نقصـد المنقار) ، وكأنمـا هو يقبلهـا على طريقته الخاصة .. وبالاختصار سوف تشاهـد ذكـرا ودودا متدلهـا فى حب « زوجته » التى لا ينفصـل عنهـا ولا تنفصـل عنه الا بالموت ، ومع ذلك فكما بـدأ معهـا حياتـه بالحب والتودد والاهتمـام ، فانه يستمر فى مغازلتهـا هـكذا

دون أن يـكل أو يمـل أو يتثاءب أو يشرد ببصره الـى الافـق البعيد ، كما يفعل ذلك الجالس مع رفيقـة حياتـه فى كازينـو الحمـام على النيـل !

درس عظيـم يلقنه ذكر الحمام لذكور البشر .. وحمدا لله أن نساءنا لا يرقبن ما يجرى هناك فى « العشة » فوق السطوح ، وعندئـذ قد تكون مصيبتنـا معهن ثقيلة وفادحة ، وقد تذهب احداهن يومـا الى ساحة القضاء ، وقد تقول : هذا الذكر .. ذكرى ، لا يساوى ذكر حمام .. لقد كان قبل الـزواج شيئـا مذكورا ، وبعد الزواج شيئـا غير مذكور !

ولهـا فى ذلك كـل الحق .. ولتحيـا ذكـور الحمـام ، وليسقط ذكـور البشر !

ومع أن معظم ذكور الحيوان أجمل من اناثها ومع أنها أكـ جاذبية ، وأغنى ألوانـا ، وأضخم بنيانا ، وأعظم جلالا ووقارا ومع أن اناثها أقل منها فى هذه الامور منزلة (عدا اناث البشر بطبيـ الحال وكما يروق ذلك فى عيوننا لا فى عيون غيرنا) ، الا أن الذكر الحيوانى لابد أن يتباهى بفخامته ، ويستعرض مؤهلاتـه ويؤدى طقوسه ، ويقدم توددانـه واحتراماته ، وعلى الانثى أن تتدلل .. حتى ولـو كـانت قبيحـة المنظـر .. حقيقـة نسوقهـا لبنى جنسنـا ــ عالم ذكـور البشر ، فلابـد من التـودد اليهن بمـا تيسر .. كلاما كان ذلك أو هدايـا أو نقودا أو مسا ولمسا وقبلا وحبا وغراما وجنسا .. فالانثى ــ بلا شك ــ تحب كل ذلك أو بعضـه ، ولـكل واحـدة منهن مزاج ، فـان توصلت انت الى لغزهـا وحقيقتهـا ، ثم استخدمت السـلاح المناسب الـذى يرضيها ، فاعلم انك من المقبولين ، وأن كنت غير ذلك ، فانتظـر أيامـا عبوسة قمطريرة ، ونكدا وهموما كثيرة !

صاحب الجلالة الاسد أعظم بهاء من اللبؤة .. الطاووس أروع وأبدع من الطاووسة ، التيس (ذكر الماعز) والكبش والديك والقرد والغزال والوعل وذكر الحمام والسمك والعصفور .. الخ .. ، كلها ذكور – على سبيل المثال لا الحصر – أجمل بكثير من اناثها .. وعليك أن تراقب الديك وهو يصيح وتبختر ، والطاووس وهو يدور حول الانثى ويستعرض ، وذكر الحمام وهو ينفش ريش ذيله على الارض كالمروحة ، والكبش وهو يتجول بين نعاجه ، والتيس وهو ينازل غيره من التيوس حتى لا تعتدى على حريمه .. ومن هنا فقد اتخذه الشاعر الاحمق كنموذج حى ليمدح به أميرا من الامراء ، فقال !

انت كالكلب فى حفاظك للود

وكالتيس فى قراعك للخطب

وعندئذ لم يعجب الامير أن يكون تيسا أو كبشا أو كلبا ، فأمر بضرب الشاعر علقة ساخنة .. وللامير فى ذلك بعض الحق ، لان الخروف أو الكبش أو التيس لا يعرف كيف يغازل انثاه ، ولا كيف يتودد اليها (طبعا لانه تيس أو خروف ، ولانه ايضا ذكر أهبل) ، وربما نبعت السبة من هنا .. رغم انها ليست سبة كبرى ، اذ لو لاحظت التيس وهو يدافع عن معيزه أو اناثه ، لكبر التيس فى عينك ، ولربما صغر امامك بعض ذكور البشر وهانوا !

والواقع أن أكثر صور الغزل والتودد والاسترضاء – بالحركة والنغمة واللمسة – تنتشر بين ذكور الطير والسمك انتشارا واسعا .. لكنها بين ذكور الطير أكثر جاذبية ، واجمل اداء .. ويبدو أن الاستعراض والتودد وما شابه ذلك له تأثير سحرى على الاناث ، لانه – فى الواقع – يغير فيها فسيولوجية الجسم ، ويثير هرموناتها ، ويهيئها للدخول مع الذكور فى عمليات الاخصاب .. ففى اناث الحمام مثلا

يتضح أن تكوين البيض يمر على الاقل بمرحلتين ، المرحلة الاولى : وفيها يتجمع زلال البيض ببطء شديد ، وفى المرحلة الثانية : تزيد بسرعة تكوين البيضة حوالى عشرين ضعفا ، وفى هذه المرحلة تظهر تغيرات أساسية وجوهرية فى كيمياء جسم الحمامة (أو غيرها من طيور) .. فيزيد تركيز السكر فى الدم ، وتتضخم الغدة فوق الكلية (الغدة الكظرية) مع غيرها من غدد تشارك بنصيب فى العملية ، ويسرع الكبد بتكوين برونينات خاصة لتساعد فى مكونات البيضة .. الخ ، ويقال أن فترة التودد من الذكر والتدلل من الانثى (فترة الخطوبة عندنا) تلعب دورا حيويا ونفسيا فى الاسراع بهذه العمليات البيوكيميائية ، كما قد تسرع أيضا بذكور البشر الى دخول عش الزوجية !

والذين درسوا الطبيعة الحية يقدمون لنا صورا رائعة وبديعة لهذا العالم المثير .. عالم الطيور .. انه عالم يقف قبلنا على ساقين ، ويشترك معنا فى رقصات فردية وجماعية ، ولو شئنا الدقة لقلنا أننا نحن الذين نشترك معه فى رقصاته . فلقد سبقنا فى الظهور على هذا الكوكب بعشرات الملايين من السنين !

ولنأخذ طائر الزرزور الوردى Rose-coloured starling ، حيث نراه مع انثاه فى وضع فردى .. وحولها يدور راقصا فى خطوات قصيرة وسريعة ، والريش يهتز ويقف وينثنى ، ولها أيضا يزقزق ويغنى ، وكأنه فى هذا يقلد أحد أفراد قبائل الماو ماو ذوى الرقصات التشنجية المصحوبة بصحيات الحناجر ودقات الطبول ، والانثى عن صاحبنا الذكر لاهية ، ويجن جنونه أكثر ، ويرقص أسرع ، ويتشنج أعظم ، علها ترق لحاله ، وعندئذ قد تلتفت اليه بطرف عينها ، وقد تجد فى رقصته شيئامن الاثارة ، فتستجيب لهبعداهمال ، وتدورحوله.

ويدور حولها ، ويزقزق هو لها ولا تـزقزق هى لـه ، وشيئـا فشيئا تشتد حرارة الرقصة ، ويسرعان فى اللف والـدوران ، وفجأة يلحق بها ، ويقفز عليها ، ويروحان فى لحظة عسل حلوة ، وبعدهـا تتكرر الرقصة الفردية .. رقصـة التـزاوج ـ كمـا يطلق عليهـا العلمـاء .

الا أن هناك رقصة تبدأ فردية ، وتنتهى برقصة جماعية ، ويؤديها أحـد أنواع الطيور البحرية الكبـيرة المعروفـة باسـم الجونيس (أحـد أنواع طيـور الباتـروس Albatross) .. وفيها يقف الذكر وجها لوجه امام الانثى وجناحاهما مفـرودان قليـلا ، وحولهما تقف مجموعة من الصحاب فى حلقـة واسعـة لتنطلق منهـا الصيحات « وطقطقـات » بالاجنحة تشبه التصفيق الذى نقـوم به نحن معشر البشر عندمـا « ننسجم » من جسـد راقصة تتلوى على خشبة المسرح كالحية . فنساعدها ونشجعها على المزيـد .. وكلما اهتزت أكثـر ، وتلاعبت بجسدها أعظم ، كلما انطلقت الصيحات ، وسالت االريالـة ، وزاد التصفيـق .. وعلينـا أن نعود الان الى هـذا الحفل الراقص ـ حفل الطيور !

فى البداية .. يرفع الذكر والانثى رأسيهمـا الى السماء ، ثـم يحنيانهمـا بسرعة الى الارض ، ليرفعاها من جديـد نحـو السمـاء ، وفيها يحتك المنقار بالمنقار ، وكأنهمـا يتبادلان قبلة سريعة قد لا تلحظها أعين الفضوليين ، وتعـود رأس الذكـر الى الارض مارة تحت جناحـه الايمن تارة ، ثـم الى السمـاء تـارة أخـرى ، وبها يعود الى الأرض مارا تحت جناحه الايسر ، وكذلك فعل الانثى ، وفى كل مـرة يتجهان فيها نحـو السمـاء ، يحظيان بقبلة » خاطفة ، وتزيـد سرعة أداء الرقصة شيئا فشيئا دون ن تختلف حركة الساق مع السـاق ، ثـم تزيد تبعـا لـذلك حفاوة أفـراد الحلقة ، فتصيح الطيور صيحات أعلى ، وتصفق تصفيقا أقـوى ، وكأنما قد حلت بها نشوة كبرى ، وقـد يـدوخ

الذكر أو الانثى دوخة عظمى ، فينسحب من داخ ، ويبقى من صمد ، واليها يسرع احد الطيور فى الحلقة ليرقص معها جولة أخرى ، وقد تنتشر عدوى النشوة بين ذكور الحلقة واناثها ، فيأخذ كل ذكر منها أنثى ، تماما كما يحدث عندنا فى حلقات الرقص ، اذ تبدأ الرقصة بسيدة وسيد ، ثم تتوافد على الحلقة جموع الراقصات والراقصين مثنى مثنى ، وتهتز الاجساد هزات حمقى . ثم تلتف الذراع على الذراع ، وتصطك الساق بالساق ، وعلى أنغام الموسيقى ، وخفوت الاضواء ، وحلقات الدخان ، « وجو » الشراب ، وحرارة الانفاس ، تشتغل الغدد وتنطلق الهرمونات فى دماء البشر ، كما تنطلق أيضا بين الطيور ، وكل مخلوق بطريقته مفتون ، ولا جديد تحت الشمس ــ كما يقولون !

ثم يقدم لنا واحد من علماء الطبيعة الحية ــ ادموند سيلوس ــ صورة أخرى لنوع من الطيور (رف Ruff) التى تتميز ذكورها فى فصل التزاوج بوجود أطواق ريشية بديعة الالوان حول رقابها ، وكأنما الطبيعة تزين عرسانها بعقود طبيعية جذابة ، علها تجعل الذكور فى نظر الانثى مقبولة .. ولقد ظل سيلوس يراقب سلوك هذا النوع فصلا كاملا من فصول السنة .. ففى فصل الربيع ــ فصل الحب والزهور والدفء والتفتح والهرمونات ــ توزع ذكور هذه الطيور انفسها فى مناطق معينة تنتشر فى المروج الخضراء ، واطلق على كل منطقة اسم « التل » ، لانها ترتفع فوق سطح الارض عدة أقدام ، وعلى كل تل يعيش ما بين ستة الى عشرين أو ربما ثلاثين ذكرا ، وتقوم كل مجموعة منها بأداء طقوس راقصة تدور فيها دورات مجنونة ، وتهتز هزات محمومة ، وكأنما هى جماعة من جماعات الدراويش المخبولة ، واحيانا ما تتظاهر بأنها تدخل مع بعضها فى الصراع أو التقاتل أو الملاكمة ، ولا شك أنها تقوم بهذه

الحركات « الصبيانية » علها تنفع فى جذب الانثى ، أو على الاقل تثير انتباهها .. وقد تحل « ريف » أو « ريفات » منها ضيوفا على أحد التلال (ريف Reeve وريفات Reeves انثى هذا الطائر المعروف برف)، وهنا يتغير النظام ، ولابد للفتيان من القيام بجولة أخرى من جولات الاستعراض ، وبها يتوددون لى اناثهم ، علها تختار ما تشاء .. فالامر أمرها ، والحكم حكمها ، بلا رحمة ولا استثناءات !

وعندما تحل ريف على تل الذكور ، فان كل ذكر منها يتخذ وضعا غريبا ، وكأنما هو على الارض يسجد ، أو على سطحها ينبطح ، أو كأنما هو مستسلم لقضاء الله وقدره ، نوع غريب من التودد . وفى هذه الاوضاع الغريبة يفرد جناحيه ، ويغرس فى التراب منقاره ، ويبقى كل واحد على هذا الحال وكأنما هو قد نوم تنويما مغناطيسيا ، وقد يستعرض الفتى منهم نفسه ، فيغير اتجاه جسده عله يأخذ وضعا احسن ، لكن جناحيه يظلان كما كانا ، وكذلك منقاره . وقد تترك ريف كل هؤلاء الاوغاد ، وتطير الى غير رجعة ، ولكن بعد أن تكون قد ألقت عليهم نظرة ، وكأنما كل ذكر من هؤلاء لم يرق فى عينيها ، أو يستحوذ على أعجابها ،أو ان أوضاعهم هذه ليست كافية ، بل ربما تريد أوضاعا أكثر توددا او انبطاحا واستسلاما وخنوعا .. لسنا فى الواقع ندرى ، لكن الذى ندريه أن هذه الريف قد تحط على تل آخر ، ويفعل الذكور مثلما فعل أسلافهم ، وتسير ريف بينهم ، وقد يعجبها رف من الرفوف (Ruffs) ، وعندئذ تلمسه بمنقارها ، وكأنما لسان حالها يقول « لقد اخترتك من كل الذكور ، فانت فتاى المرموق ، ولك قلبى وروحى وجسدى » !

ويقوم الرف عندما يعرف أنه من المقبولين المحظوظين !

ويعلق سيلوس على ذلك ويقول : لكن الغريب هنا أن ذكور هـذه الطيـور قد جـاءت بألوان مختلفة فى أطواقها ورقابها ، بحيث أصبح كل رف منها وحيد زمانه (أى فى « ديـكوره » الحى الذى البسته له الطبيعـة ، وقدمتـه لذلك الامتحان العـويص) ولهـذا كان اختيار الانثى لذكورها اختيارا غير متسـاوى .. ويضيف : ولقـد كان هنـاك طائـر منها قام بعمليات اخصـاب أكثـر من كل العمليات التى قامت بها الذكور الاخرى على التـل نفسـه ، وممـا يذكر أيضا أن نسبة معينة من الذكور لم يسمح لهـا بالاخصاب على الاطلاق !

ولابد أن يسعد داروين ــ صاحب نظرية التطور والاختيار ــ لهذه الحالة كثيرا ، فنحن الان أمام مشهـد حى من اختيار الاناث لذكورها .. ولا شك أن الانثى لها نظـرة فى ذكورها تختلف عن نظرتنـا نحن اليه .. ونظرتها قد لا تخيب ، فهى تعـرف كيف تنتقى الذكـر الكفء ليورث كفاءتـه الوراثية للاجيال المقبلة ، أمـا الذكور المرفوضـة فهى مخلوقـات ضعيفـة ، وعليهـا أن تفسح الطريق لمن هو أحق بالبقاء .. للاقوياء !

ويقـدم لنا ن . ج . بيريـل فى كتابـه « الجنس والطبيعة الاشياء » صورة حية أخرى عن نوع من الرف أو الـريف الـذى يهاجر من آسيا وافريقيا ويصل الى أوربا فى فصل الربيـع .. فعندمـا تنزل الانثى بين الذكور ، فلابد أن يقفوا لها جميعـا مع تقديـم التحيات الطيبة ، والتمنيات بالاقامة المباركة .. والرف لا يصيح ولا يزقزق ، ولكنه على أيـة حال يصفق للفتاة بجناحيه، ولقـد أشاع مقدم الانثى بين الذكور كل بهجة وحبور ، فتـرى الفتى ينطلق الى فتى آخـر ويهاجمه ، لكن بدون اصابـات ، اذ يبدو أن ذلك نوع من « البروتوكول » الجنسى أو التـوددى ، أو ربمـا رقصـة أو « هبالة » ، أو أى شىء آخـر لا ندرى أسراره بعد ، ثم يهدأ الجمع ، وتأتى الذكور الى الانثى ، وتقف أمامهـا

أو حولهـا وقفة خاشعة مؤدبة ، ولكل ذكـر وضعـه الخاص ، فمنهم من يرفع جناحيه ، ومنهم من ينحنى ، ومنهـم من ينفش ريشـه الذى يحيط بعنقه كالطوق .. الـخ ، لكن الكل مؤدب صامت خاشـع ينتظـر قضاء الانثى فيه ، وحكمهـا عليـه .. وتأتى هذه لتلقى عليهـم نظرة فاحصـة ، وتتجول هنـا وهنـاك فى خطوات ثابتة هادئـة رزينة . وقد تتقـدم الى أحد الفتيان ، ويقع عليـه الاختيار ، ولابد أن يحترم الذكور غير المقبولين رغبة الانثى ، ولابـد أن يتركوا للفتى والفتاة « أرض » الزوجية .. وتلك هى « الحضارة » على مستـوى الطيـور ، ولا شـأن لنـا بالبشر ، فهم أدرى بأحوالهـم !

ويعلق هـ . ج . ويلز ، و ج . هكسـلى ، و ج . ويلـز فى كتابهـم « علـم الحيـاة » على مثل هذه الامور ويقولون : أن الدافع لعمليـة اختيار الانثى لذكورها على طريقة تعدد الازواج (أو لاختيار الذكر القـوى لعدد من الزوجات ، كالـديك مثـلا والدجاج) شيء هـام فى هذه الطيور لانتاج أجيال قوية .. ربمـا أكثر فاعلية من ارتباط الزوج بزوجة واحدة (كما فى الحمام) .. اى أن التعدد هنا مرغـوب .. ولكى لا نغضب نصفنـا الآخـر فلنسارع بالقول ونقول : فقط فى الطيور وغير الطيور ، وليس فى البشر ! (حد الله بيننـا وبينهن) .

واذا كـان هذا الاستعراض والتـودد واظهـار القـوة من لعوامل البيولوجية الهامة التى تؤدى الى اختيار المخلوق المناسب ن بين أترابـه ، وتقديمه للانثى المناسبة ، فاننـا لا نستطيـع أن ندرك السر فى تودد أو استعراض يقوم به ذكر من ذكور الحمام امـام حمامته ، فهى له ، وهو لها .. بكل ما يعنى ذلك من وفاء واخلاص .. فلم كل وجع القلب هذا ؟

الواقـع أن مـا يقوم به ذكر الحمـام أو غـيره من طيـور مشابهة ليس الا مدخلا نفسيا هامـا لكى يهيىء به أنثاه ، ويثير

فيها بعض العمليات الفسيولوجية التى تؤدى الى تضخم البيض، ثم السماح له بتلقيحها ، وهناك عديد من التجارب تؤيد هذه الاراء ، اذ يكفى مثلا أن تأتى بأنثى حمام صغيرة ، وتدغدغ لها رأسها على فترات كما يفعل ذكرها بمنقاره ، وعندئذ قد يتكون فيها البيض ، الا انها تضعه غير خصيب .

والواقع أن الحديث عن عادات الطيور وطقوسها ، وتودد ذكورها لاناثها ، من الاحاديث التى لا بنضب معينها ، فلكل منها عادات وتقاليد لا نكاد نحصيها عدا ، ويكفى هنا ما قدمنا ، وعلينا أن نستعرض صورا أخرى من حيوانات فى سلسلة التطور أرقى ، لكنها مع ذلك قد لا تكون أرقى فى التودد والمغازلة والاستعراض كما رأينا فى عالم الطيور !

والواقع أن الغزل والتودد فى الحيوانات الثديية التى ننتمى اليها ليس على المستوى نفسه الذى نجده فى الكثير من أنواع الطير .. ذلك أن التودد فى الثدييات قد يكون من النوع الردىء ، أو قد لا يوجد على الاطلاق .. باستثناء الانسان .. ومع ذلك ففى البشر ضروب من الناس متفاوتة .. فمنهم من يتودد على استحياء ، ومنهم من يذهب فى تودده الى درجة الفحش وقلة الحياء ، ومنهم من لا يعرف كيف يتودد على الاطلاق ، وهؤلاء « كالانعام أو هم أضل » .. فمن طبيعة الانثى يا قوم أنها « تموت » فى التودد .. وفى التدلل أيضا ! (البعض يقول : ياعم بلاش وجع قلب ، هوه احنا فاضيين للكلام الفارغ ده ؟ !)

والواقع أن معظم ذكور الحيوان لا يستطيع أن يشاركها فى « حريمها » ذكر آخر ، وهى بهذا تسير على مبدأ تعدد الزوجات ، ولكن بالعشرات وبالمئات ، وربما تكون بعض عاداتنا البشرية مشتقة من تلك العادات الحيوانية .. ونقصد بذلك ما كان يجرى فى الماضى (أى نعنى عهد جوارى السلطان

وحريم السلطان) .. وعندما تطور ادراك الانسان ، تخلى عن هذه الخصال .. لكنها لازالت تسرى فى عالم الحيوان .. ولقد رأينا صورة منها فى الوعول والغزلان ، ونراها فى الديوك والتيوس .. لكن ما خفى كان أعظم !

ففى سبع البحر وفيل البحر يأتى الذكر قويا مهيبا ، وبضخامة فى الجسم أكثر من ضخامة الانثى .. وفى فصل التزاوج يخرج السبع أو الفيل من الماء ، وعلى شاطىء جزيرة مهجورة يضع الواحد منها « يده » على قطعة أرض ويمتلكها ، ولا يسمح لذكر آخر بالدخول الى وطنه أو مجاله .. وعلى هذه الارض تفد الاناث ، وتضع نفسها تحت تصرف الذكور .. وقد يحارب السبع سبعا آخر ، ويدخل معه فى صراع مرير ، حتى يتخلى أحدهما لغريمه عما ملكت يداه ، وقد يطرد السبع غريمه من حريمه ، أو قد يلقيه الى عرض البحر ، وعندئذ لن تولول الاناث نادبة سبعها الذى راح (كما تفعل ذلك بعض نساء البشر عندما يذهب السبع فتصرخ يا سبعى .. يا سبعى) .. فما أكثر السباع التى تفد ، وما أرخصها .. المهم أن الذكر القوى هو الذى يفوز طبعا بنصيب « الاسد » .. لكن قد يحدث أن «يفترى » الذكر على الاناث ؛ فعندما يكون بعض افراد الانسان والحيوان أقوياء ، يزيد فيهم الافتراء .. طبيعة حيوانية بشرية تجرى على الرجال والنساء سواء بسواء ، لكن .. كلما سما البشر بطباعهم كلما كانوا أقرب الى الانسان منهم الى الحيوان .. الكن دعنا من كل هذا لنعود الى الذكر الذى افترى ، لنراه يمسك أنثاه بفمه من رقبتها ، ويلقيها بقوة من فوق رأسه ، لتطير فى الهواء ، ثم تسقط بين حريمه ، وكأنما هو يريد أن يثبت لهن أنه مفتح العينين ، حتى لا تحدث الخيانات من وراء ظهره ، وكأنه بهذا العمل المشين يرفع شعارا بين اناثه مؤداه « كل أنثى اضبطها متسللة ، سيكون جزاؤها هذا

الهـوان » ! .. أى انه سيتلقفها من « زمارة » رقبتها ، ويقذفها دون رحمة أو هوادة . علهـا تكون عبرة لكل الحريـم !

لكن .. مهمـا كانت عين « السبع » مفتوحـة ، ومهمـا كانت يقظته وحرصه على اناثه ، فان الحريـم هن الحريـم .. بمعنى أن الانثى لو أرادت شيئـا ، فلن يفلح حرص « السبع » فى الحيلولـة بينهـا وبين ما تريـد (ونحن نقصد بطبيعة الحال حريـم سبع البحر .. ولابد من التنويه عن ذلك بشدة) !

ومسكين حقا هذا السبع الذى على الشاطىء ! .. فبالرغم من حرصه الشديد على اناثه ، لدرجة أنه يهجر الطعام والنـوم لايـام قد تطول ليكون نعـم الحارس اليقظ ، الا أن بعض الاناث تسول لها نفسهـا بأن تغافله وتقفز الى الماء لتقابل ذكورا أصغـر سنـا ، واقل مراسا وتجربة من هذا الذكر الواقف هنـاك .. صحيح انه قـد عرك الحياة وعركته ، لكن ذلك لا ينطبـق على الاناث .. ومع ذلك فمما لا شك فيه أن الهاربات من الذكر القوى المتين شاذات وقليلات العدد (والحياء أيضـا !) .. ولا معـول عليهن ، فالمهم فى الموضوع أن يورث « السـع » القـوى قوتـه للاجيـال القـادمة !

وربمـا لو ذهبت الى حديقـة الحيـوان ، وتـوجهت الى جبلاية القـرود ، لوجدت الصورة تتكرر فى الجيزة ، كما تتكرر فى الجزيرة ــ نقصـد جزيرة السبع فى احد البحار أو المحيطات !

والواقع أن القرود (بمـا فى ذلك القردة العليـا) من أذكى الحيوانات الحية بعد الانسان ، ولها معه بعض صفات وعمليـات فسيولوجية مشتركة .. فلاناث القرود دورة أو عادة شهرية اى انها تحيض ما بين كل ٢٧ ــ ٣٥ يوما .. يتـوقف ذلك على النوع ، وتستمـر فترة الحيض ما بين ٤ ــ ٦ أيام ، وفى هـذه الفترة تختفى عندها الرغبة الجنسية ، وتبدو هادئة الطبـاع ،

معتدلة المزاج ، وبعد أن تنتهى فترة الحيض ، تجتاحها رغبة فى الذكر (قد يحدث ذلك أيضا فى بعض اناث البشر ، وقد يحدث قبيل قدوم فترة الحيض أيضا) ، وتبلغ اقصاها وقت افراز البويضة ـ أى فيما بين اليوم السابع بعد الحيض واليوم العشرين .. ولرغبتها علامات مميزة ، اذ تتورد أعضاؤها التناسلية أو ما حوالها ، وتصبح « مربربة » ومتضخمة (ليس ذلك ـ للاسف ـ من طبيعة انثى الانسان) ، ويتوعك مزاجها ، وتصير سهلة الاثارة .. اذ يحدثنا الذين شاهدوا هذه الحيوانات أن الانثى ـ فى غياب الذكور ـ قد تحك نفسها بأنثى أخرى فى عملية « سحاق » متبادلة .. ومع ذلك ، فانت تستطيع أن ترى القردة من نوع الميمون أو البابون التى تسكن جبلاية القرود فى حديقة الحيوان وهى تقدم عجزها وتضعه فى وجه الذكر ؛ وتأخذ بها وضعا نكاحيا مثيرا ؛ صحيح أن هذا فعل مشين بالنسبة النا ، لكن هذه الحيوانات لا تدرك معنى الفضيلة والرذيلة ، أو التمنع والتبذل كما يدركها الانسان .. كما أنها لا تحب اللف ولا الدوران .. فاذا أرادت ، تقدمت ونالت .. قضى الأمر ببساطة ، وسارت الحياة سيرها الطبيعى !

ويختلف سلوك القرود ، وتتباين عاداتها وتقاليدها على حسب النوع .. فمنها ما يرتبط بأنثى واحدة ، ويبقى لها وتبقى له العمر كله ، ومنها ما يعيش مع مثنى وثلاث ورباع ، ومنها مالا تكفيه أربعون أو خمسون زوجة ، ومنها ما تعيش حياة كحياة القبيلة أو الجماعة ، لكن عدد الاناث منها قد يزيد مرتين على عدد الذكور ، ومع ذلك فالذكور القوية هى التى تحكم الاناث ؛ وليس للذكور الضعيفة أو الشابة مجال مباح فى الحب والنكاح .. ولا شك أن سلوك القرود فى الطبيعة يختلف عن سلوكها وهى حبيسة اقفاصها .. ونذكر هنا حادثة لتوضح هذا المعنى !

نذكر أننا كنا نقف ـ منذ حوالى عشر سنوات ـ فى حديقة حيوان الجيزة أمام قفص به نوع من النسانيس لا نتذكر اسمه ، ولقد رأينا فى القفص ذكرا يتودد الى انثاه ويلاطفها ويداعبها ، لكنها كانت تصده تارة ، وتقفز منه بعيدا تارة أخرى ، ثم يتشجع بعد فترة قصيرة ويتقدم اليها ، ويربت عليها ، أو يطوقها بذراعه ، علها ترق لحاله ، فلم يزدها ذلك الا تمنعا وعنادا ، ومنه تنفلت هاربة .. ولقد جذب هذا المشهد المثير عددا من البشر ، ووقفوا يتعجبون ويقولون « يا سلام .. تمام بنى آدمين وانسخطوا ! » .. وطبيعى أن العلم لا يعترف «بانسخاط» البشر الى قرود أو نسانيس ، والا كان هذا بمثابة نكسة فى الخلق كبرى ، وردة فى التطور عظمى .. لكن دعنا من ذلك ، ولنعد الى النسناس الذى يتعذب فى القفص ، لدرجة أن واحدا من الآدميين قد ثار لعذاب هذا المخلوق الرقيق ، فصاح دون حياء « ياشيخة الله يلعنك .. عذبت الجدع ! » .. ولقد تقدم « الجدع » على حد تعبيره ـ فى محاولة يائسة وأمسك بالانثى ، وكأنما هو يريد أن يغتصبها اغتصابا ، وعندئذ كشرت عن أنيابها وثارت وصرخت ، ودفعته بعيدا ، ولما لم يجد الذكر فائدة ترجى ، جلس هنيهة ، وكأنما هو يرمقنا بحسرة ، علنا نتشفع له عندها ، وأخيرا وضع عضوه بين يديه ، وأتى بحركات جنسية الى أن قذف نطفته حتى كادت تمس أوجه الواقفين ، وبعدها هدأ ، وثار الناس على هذا الحيوان وسبوه ، وكانت لهم تعليقات شتى ، وقفشات مضحكة

لكن الناس ينظرون عادة الى مثل هذه الامور نظرة سطحية ، وقد يتسلون ويضحكون ويسخرون ، فى حين أن دارسى الطبيعة الحية يسجلون هنا كل كبيرة وصغيرة ، ومن المشاهدات والتسجيلات الكثيرة تتجمع الخيوط ، ثم تنسج الخيوط فى حقائق ، ومن الحقائق تنبع المعرفة العلمية !

أن سلوك القرد أو النسناس مع أنثاه يشبه الى حـد مـا سلوك الانسان ، فالدافع الجنسى فى هذا النـوع يستمـر معـه معظم أشهر السنة ، وبهذا يختلف عن الحيوانات الاخرى التى هى أقل منه مرتبة فى سلم التطور . فالجنس عند الطيور والكلاب وسباع البحر والاسود والغزلان موسمى ، وقد يستمـر أيامـا وأسابيع ، ثـم يختفى تمامـا ، وكأنمـا هـذه الحيوانـات قـد اصبحت « خصيانا » .. ذلك ان اعضاءها التناسليـة تضمر الى حـد بعيد ، ثـم تتضخـم فى موسـم التـزاوج ، وتنطلق منهـا الهرمونات (فى الربيع خاصة) لتدفعها الى التجمع والتزاوج ؛ أمـا بعض انـواع القرود فخصوبتهـا تستمر لوقت طويـل ، وقـد يؤثر حبسها فى الأقفاص على نفسيتهـا ، وعندئذ تتصرف بطريقة تختلف عن تصرف اترابها فى الطبيعة !

لكن يبدو أن الانثى كانت متوعكة المزاج ، او أنها فى فتـرة من فترات الحيض ، وعندئذ لا تسمح للذكر بالوصال مهما كان الحال ـ حالة معروفة أيضا فى البشر (وقد لا يهتم بهـا بعضهـم أحيانا ، فيتساهلون فى ذلك ، رغم أن الذوق والدين قد حض على تجنب هذه الفعال ، ولكنها الغريزة يا صاح !)

النسناس تكويـه غريزة الجنس ، وهو لا يستطيع عليهـا صبرا ، فهى غريزة عجيبـة تعـذب ذكـور هذا الكوكب عموما ، وكأنما هى فى حياتهم شىء هـام كالماء والطعام والهواء . ولهذا قد يدفعون فى سبيلها الكثـير .. لكن قردنـا ليس لديـه شىء يسترضى به أنثاه ، ومن حقها ـ والحـال كـذلك ـ أن تبقـر بطنه ، وتمزق وجهه ، وليذهب الى الجحيم بشهوته .. مسكين أيضا هذا القرد الذى فى القفص ؛ فهو لا يستطيع أن يجد فرجـا مع أنثى أخرى غير هذه الكالحة الوجـه .. القاسية القلب ، اذ لـو كـان يعيش حرا فى الطبيعة ، لاخذها طولا وعرضا ، ليبحث

عن اخرى تخلصه من أزمته ، ولقد هداه تفكيره ، ففعل كما يفعل البشر ، واستمنى كما يستمنون !

ولاناث بعض أنواع القرود « اعلانات » طبيعية على اردافها، وبالتحديد حول أعضائهـا التناسلية ، وهى تشبـه اشـارات المرور الى عالم الجنس .. فاذا تضخمت واحمرت فهذا يعنى أن الطريق أمام الذكور مفتوح ، واذا ضمرت ، فلا جنس ولا حب ولا مـرور !

لكن هذه العلامات المميزة قد بدات تختفى تدريجيـا من الانـواع شبه الأنسانيـة التى سبقت ظهـور البشر على الارض بملايين السنين ، فمن الكشوفات الحفرية الكثيرة يتبين أن هناك أكثـر من أثنىعشر نوعـا وسلالـة من مخلوقـات ـ لا هى بشر ولا هى قرود ، بـل كانت تحمل صفات من هؤلاء وهؤلاء ، ولهذا فقـد أصبحت بمثابة القنطرة التى عبر عليها الانسـان الحـالى « نهر » التطور ليصل الى ما هو عليه الان .. ولقد انقرضت كل هذه الانواع ، وبقيت أجزاء من هياكلهـا ـ ليس لمثلهـا بين هياكل المخلوقات الحية الحالية شبيه ـ لتحكى لنا فصولا شيقة متتابعة من تاريخ الحياة على هذا الكوكب ، ولتؤكد لنا أن الحيـاة قـد أسقطت ملايين كثيرة من انواع المخلوقات التى لـم تستطـع ان تتطـور وتتكيف بالظروف الطبيعية السائدة حولهـا ، ولهـذا كتب عليها الزوال والانقراض !

ولقد كان الغرض من هذا التطـور ـ الـذى استمـر على ارضنا أكثـر من ألفى مليون عـام ـ ان يأتى مخلوق يستطيـع أن يدرك وينطق ويفكر وتكون له حضارات وتراث .. وظهر هـذا المخلوق فينـا ، وهو مخلـوق لا شك بديـع ، فلقـد اكتسبت المراكـز العليـا فى امخاخنا مميـزات ضخمـة لم يمتلكهـا أى مخلوق آخـر سوانا ، ولهذا فان الانسان الذكى ـ رجلا كـان

امرأة ــ يستطيع أن يحكم على الآخر من تعبيرات وجهه ..
حقدا كان ذلك أو حزنا أو سرورا أو اكتئابا أو انهاكا ..
الخ ، ولهذا فقد تركزت عيوننا على الوجه دون الارداف ،
وتلك ــ فى الواقع ــ قفزة هائلة تباعد بيننا وبين القرود ،
وتميزنا عنها بمميزات جوهرية وهامة ، فحيث يستحسن القرد
تلك « الوقعة » الحمراء التى قد تتضخم على ردفى أنثاه ، وتصبح
له بمثابة علامة مميزة على استعدادها للجنس ، وفى الوقت
نفسه وسيلة من وسائل الاثارة للذكر ، الا أن ذلك لا يصح أن
يكون لانثى البشر وسيلة ، ولا لذكرها غاية .. فتعبيرات
الوجه ــ فى هذا المقام ــ أبلغ بكثير من تعبيرات الردف !

والحديث عن هذا الموضوع قد يطول ، لهذا دعنا نفتح
له صفحة جديدة !

من أرداف القرود .. إلى أرداف البشر

يبدو أن طبيعة البشر لازالت تحمل شيئا من طبيعة الحيوان ، وان جاءت فينا بطريقة مهذبة لتباعد بيننا وبين سلوكه

كما أن لكل عادة من عاداتنا أساسا قديما ، ولكل شىء مليح فى عيوننا جذورا تمتد الى الوراء عشرات الملايين من السنين !

ولكى نوضح ذلك ، كان لابد أن نتعرض لظاهرة من الظواهر التى أصبحت علامة من العلامات الهامة فى حياة البشر .. ونقصد بها ظاهرة الرقص التى صاحبت الانسان الأول منذ ظهوره على هذا الكوكب الى يومنا هذا .. فلكل شعب من الشعوب رقصاته الشعبية الخاصة به ، وقد يكون الرقص نوعا من التودد .. وقد لا يكون ، لكن ذلك لا يهمنا بقدر ما يهمنا أن نعرف أن أنواعا كثيرة من الحيوان تؤدى أمام اناثها طقوسا بالصوت وبالحركة ، ولابد أن يكون للحركة ايقاعات خاصة ، لتكون قريبة من رقصاتنا التى تقوم أيضا على ايقاع الموسيقى ودقات الطبول .. فيكون لهذه معنى ، ولتلك مغزى !

لكن أرداف القرود قد جرتنا رغما عنا الى التعرض هنا لعادة من العادات البشرية التى تستخدم فيها الانثى أردافها لتثير ثائرة الذكور !

فلاشك انكم شاهدتم الراقصات على خشبة المسرح أو فى اى مكان آخر ، وفى كل مرة تبرز الراقصة « واجهتها » الخلفية ، وتهز ما برز منهــا هزات غريبة تححظ لها عيون الذكور ، وعندئذ يصفقون تصفيقــا ايقاعيا ، وقد يصرخون صرخات تحمــل معنى الاستلطاف والاستحسان . وعلى قدر حرارة الصراخ والتصفيق، تنطلق طاقة الراقصة قوية هــادرة ، فتهتــز الارداف أكثــر ، وترتعش بمعدلات أكبر . ومعها تهتز عيون المتفرجين اعظــم . وهــذا ينبئك بالخبر اليقين .. خبر اننا لازلنا نحتفظ فى ذاكرتنا البدائية ببعض عادات القرود .. فقــد رأينا أن ما كــان يثــير ذكور القرود فى الجبلاية ، أو فى الاحراش والغابات ، يثير البشر ذوى الياقات المنشــاة ، واربطة العنق المنتقاه .. لا فرق بين قرد ومديــر .. كبير أو صغير !

أضف الى ذلك أن البشر يميلون بطبيعتهم الى « الفرفشة » والسرور ، لأن مجيئنــا الى الحياة قد كتب وقدر فى ساعــة من ساعات الرضا والحبور .. أى أننــا أبناء جنس وحظ ، ولا يمكن لغــير هذا أن يــكون !

نعود لنقول : انه لا يزال تحت جلد كل ذكــر منــا آثــار قرد . وتحت جلد كل انثى بقايا قردة ، فنحن معشر الذكور قد نستملح ما تستملحه القــرود ، ولقــد منحت الطبيعــة اناثنــا « تضاريس » أو « روابى » فى الأرداف وعلى الصدور ، لتميــز الذكر عن الانثى ، ولهذه معايير خاصــة ، ومقاييس محددة من اختراع بعض الذكور الخبثــاء ، وبها ضحكوا على عقــول بعض الفتيات والنســاء ، واستدرجوهن الى مسابقات يطلقــون عليهــا مسابقــات ملكات جمال العالــم ، أو ملكة الشاطىء أو الاغراء أو غير ذلك من مسميات شتى .. المهم أن الانثى تمر شبه عارية على أعضــاء هيئة التحكيم (ونظن انهم من عواجيز مراهقين) ، ليروا تضاريسها ، ويضعوا الدرجات على حسن تناسقها ، فكان للخصر

درجـــة ، وللردف درجة وللصدر درجـــة وللسيقـــان والوجـــه والرقبـــة .. الخ ، وبهـــذا أصبح للبشر أمزجـــة تقتـــرب من أمزجـــة القرود ، لكنها تتفاوت بقدر ما تتفاوت انماط تفكيرهم ، ومع ذلك فما قد يروق فى أعيننا قد لا يروق فى أعين الآخرين .. فالقردة ـــ على قبحهـــا ـــ أجمل فى عين القرد من ملكـــة جمـــال العالم ، ولو أتينـــا له ـــ أى القرد ـــ بهذه وتلك ، لفضل قردته على ملكتنـــا !

اذن .. فلقد وضع القوم من « القرود البشرية » للأرداف درجـــة ، وبهذا أصبحت من العلامات البارزة التى تحـــدد أنوثة الانثى .. ويبدو أنهـــا قد عرفت هذه النقطة من الضعف فينـــا ـــ ربما عن طريق القردة أو عن طريق عيوننا وثرثرتنا ، واستملاحنا لذلك فى السر وفى العلن ، ولهـــذا جاء « التكتيـــك » ليلعب دوره فى رقصة على خشبة مسرح ، أو فى رواية لا ينسى المخرج أن يظهر لنا فيهـــا عينة بشرية تعرف كيف تهز بردفيها عيون المشاهدين ، أو ربمـــا نرى ذلك فى الشارع ، حيث يصبـــح « لتكنولوجيـــا » الكعب العـــالى دورا هاما فى أحداث « رجات » ردفية معقولة أو فيهـــا شىء من الاثارة والمبالغـــة ، وبها ترج مشاعرنا رجـــا .. فمنا من يستملح ، ومنا من يستعيذ ويلعن !

ثـــم عليك أن تلحظ سلوك البشر عندما تقدم عليهـــم من بعيد انثى حلوة رشيقة تتبختر كما تتبختر « أم جلمبـــو » التى سبق أن قدمناها قبل ذلك (وليس لأم جلمبو أرد ف على أي حـــال) ، وعندئـــذ قد تجحظ عيـــون بعض الشباب والرجـــ (الا من رحـــم ربى) .. وتنتقل نظراتهم الفضولية من قمـــ الرأس الى اخمص القدم حيث الكعب العالى الذى يحدث صوتا كصـــوت حوافر الخيل .. والخيـــل من الحيوانات الرشيقـــة ،

وكذلك النســـاء .. وتمرق الانثى مارة بتلك العيون الوقحة ، ومع أنــه قد يباح أن نلقى نظرة على الواجهة الاماميــة للانثى ، الا انك سترى نسبة منهم (والنسبة متروكة لتقديرك ولتكتيكها) وقــد دارت برؤوسهــا ١٨٠ درجة ـ أو ربما أكثــر أو اقــل ـ لتلقى نظرة فاحصة على الواجهــة الخلفيــة .. طبيعى أن هــذا السلــوك وقاحــة من الفاحصــين .. لكن لا تلومــوا الرجــال ولا تلوموا النســـاء ، فلكل عادة أو استملاح جذور قديمــة .. فالتطلــع الى الوجــه خاصة .. والى « الواجهــة » الاماميــة عامة لابــد أن تكون عادة بشرية حديثة ، لكن أن تدور رؤوسنــا نصف دورة لكى تلقى نظــرة على ما وراء « الــكواليس » فتلك عــادة القرود كما سبق أن المحنــا .. وقد يعلق ذكر وقح على ما رأى بصوت مســموع ، وقد يقول ضمن ما يقول « عجبى » .. أن لهــا مؤهلات خلفية تفوق ما ملكت من مؤهلات أمامية » .. (طبيعى قرد ابن قرد) وقد يسمعه ـ لسوء حظه ـ أحد رجال شرطة الآداب ، وقد يمسكه من قفــاه بتهمة أنه قد تفوه بالفاظ تجرح الحيــاء العام ، فيروح المظلوم ، ويبقى الظالم !

أضف الى ذلك أن مصممى الازياء ـ ارضاء لنظرة الذكــر الفرد وخبث الانثى القردة ــ قد توصلوا منذ قرون الى اختراع عظيــم وفعال وجــذاب وفيــه ضحك على الذقــون ــ ذقــون الذكــور ، اذ صمموا تجهيزات خاصة تضعها بعض الاناث فوق أردافهن الضامرة ، لتبدو شامخة أمام العيــون ، وبهــا ترضى طموح القرود ــ قرود البشر !

لكن الغريب حقا أن الفراعنــة قد سجلوا على آثارهم سلالة من البشر قصيرة القامة ، سوداء اللون ، متضخمة الأرداف بشكل واضح .. الا أننا لو ذهبنا الى احدى القبائل الافريقية لوجدنا

أن ذكورها يرون أن تناسق بنيـان المـرأة وجمالهـا يتركـز فى أردافها فكلما أرتفعت وتضخمت ، ارتفعت الانثى فى عين الذكر ، وأصبحت امرأة فخمة ـ اجتماعيا وجنسيـا ، ومن هنـا تبـدأ النساء فى العنايـة بها وتربيتهـا (أى الارداف) فى بناتهن بداية من سن التاسعة أو العاشرة ، وتستمـر حتى سن البلـوغ ــ فى تمرينات صعبة تبدأ بانبطاح الصبية على بطنها ثم تأتى أمها أوأحدى قريباتهـا وتمسكها من قدميهـا ، وتضغطهمـا الى أعلا بحيث يؤدى ذلك الى تحريك الردفين نحـو ظهرهـا (الحركة لا شك قاسية) ثم تقـوم بتدليكهمـا تدليكا عنيفا لدرجـة أن ذلك قد يحدث نزيفـا (ولقد جاءت الراوى حالة من هذه الحالات) ، ثم تعطى الصبيـة كوبا من السمن لتشربه ، أو تأكل كميات كبـيرة من الدهون ، وبمثل هذه التمرينـات الطـويلة والعنيفـة تبـرز الارداف وتتضخم ، وتصبح أحدى العلامات الجمالية المميـزة فى نسـاء القبيـلة !

والواقع أن التودد البشرى ليس كالتودد الحيوانى ، وأن كـان يحمل بعض جذوره أو بذوره ، فنحن معشر ذكور البشر لا نصفق ولا نرقص ولا نهتز أو نصيح كما يفعل ذكور الحيوان .. لكن يكفى أن نتطلـع ونغمض الطرف ونستملح ، فالانثى الحديثة (أو المودرن كما يصفهـا البعض) تثرثر بشفتيها دون كـلام ، وتنطق بوجههـا دون سـلام ، وتتحـدث بمؤهلاتهـا الانثـوية الكثيرة ، لنتحدث نحن سرا أو علنـا لنطرى هذا الجمال ، فاذا لـم نفعـل ، كنـا فى عرفها الواحا ، أو اننـا مخلوقات بدائيـة ليس لديها نظر ، أو ربمـا كالعميان أو أضل .. والمراة الحديثـ انثى واعية لكل ما يدور حولها .. وهى تحس من خلال التطلعا البصرية أن ذلك نوع من التودد الصامت ، وفى الـكلام الهـامس نوع من المـديح والاطـراء ، وعلى كليهمـا تعيش الانثى ، كمـا تعيش على الهواء والغذاء ، وبدونهما قد تموت كمدا !

ولكى تستحوذ الاناث على أنظارنا ، كان لابد من عمل « ديكورات » هائلة فى كل مكان على الجسد .. تتوقف قيمتها على يسار حالها أو عسره ، لكن الشىء الملاحظ دائما ان المرأة تتأنق للشارع أكثر ما تتأنق فى البيت (ونحن أيضا .. لكن على خفيف) ، ولهذا فقد رصد العالم ميزانيات ضخمة للرموش والعيون وحول الجفون والحواجب والشعور والشفاه والوجنات والرقاب ، وفى الاذن وما خلفها قليلا ، وتحت الابط ، وفى المعاصم والاصابع والأظافر (لا تنس أظافر القدم من فضلك) وعلى الصدور أو ما تحت ذلك * ، ولو سألت عن السر فى ذلك ، لقيل لك انها تهوى ذلك ، لأننا بدورنا نهوى ذلك ، ومع ذلك فلو عدت الى ميزانيتنا ، لوجدت أن ما يصرف على تجميل الجسد أكثر مما يصرف على الكتب .. أى أن ميزانية المستلزمات البدنية والجنسية أهم وأضخم من ميزانية المستلزمات العلمية والعقلية ، كما أن أتعاب رقصة بطن أو هزة ردف نصف ساعة أو ساعة ، تساوى « هزة » عقل مفكر مائة يوم أو ساعة (كل ذلك متروك أيضا لتقديرك) .. وهذا ينبئك بالخبر اليقين .. ذلك أن الناس يميلون للجنس أكثر مما يميلون للفكر ، أو للتسلية أكثر من الجدية ، وتلك طبيعة أصيلة فى كثرة من البشر .. يستثنى من ذلك قلة قليلة تأخذ كل الامور اخذا ثقيلا ، فيصبحون على الناس أيضا عبئا ثقيلا !

ثم عليك أن تتجول بعينيك فى المعروضات التى خصصت لهن ، والتى خصصت لنا ، تجد نصيب النساء منها أضعاف

(*) مما يستحق الذكر فى هذا المجال تلك الحالة التى رواها لى صديق عندما ذهبت أمه لتخطب له فتاة من ذلك النوع الذى يهتم بالتبرج ، وعندئذ نظرت الأم إلى ابنها وقالت : أى بنى « إن كل جزء من جسم هذه الفتاة يحتاج إلى ميزانية خاصة ، ودخلك لا يكفى مصاريف مظهرها .. فما بالك بالباقى يا كبدى؟ . .

نصيب الرجال ، ولا اعتراض لنا على ذلك ، فالمراة ولا شك مخلوقة جميلة ، وهى تستحق كل هذا وزيادة ، ذلك أن عمرها محسوب « بالقطارة » .. وراس مال الانثى يتركز فى شبابها وانوثتها وجمالها ، وكل هذا يحتاج الى صيانة .. والصيانة تستلزم أشياء كثيرة ، وهذه تتطلب مالا ، والمال من الذكر ، ولابد أن يدفع ، حتى لا يصبح طلقة فى مدفع ، ويروح فى خبر كان !

وفى الحديث الشريف يجىء ما معناه : أن المراة تنكح لثلاث : لجمالها ومالها ودينها .. لكن لجمال المرأة شقين : شقا جسديا يحسب بالسنوات . وشقا روحيا لا يحده عمر ، ولا يقف فى طريقه سن ، وهو لهذا أبقى من الجسد وأعظم ، وتأثيره أعم !

ونحن نفهم أن تتجمل الانثى من البشر ، لكننا لا نستطيع أن ندرك السر الذى من أجله « يتجمل » الذكر .. فلقد ظهرت لنا على آخر الزمن « نسبة » — والحمد لله قليلة — من شباب لا هم لهم الا تقليد الانثى فيما تلبس وتتزين .. من ذلك مثلا أن الفتى قد لجأ الى الكعب العالى ، لكن ذلك لا يستقيم الا مع الردف العالى ، والصدر العالى ، وليست هذه من صفات الرجال فى قليل أو كثير .. ولا ندرى أية نتيجة تلك التى يسعى اليها الفتيان من هز اردافهم وبمساعدة الكعب العالى .. فالردف من المميزات البيولوجية للانثى ، وليست للذكر ، فان سعى هو الى ذلك ، فقد يرجع الى نداء أنثوى ضامر يناديه بأن يتحلى ببعض صفات أنثوية ، وينخلى عن بعض صفاته الذكرية ..

ومما يساعد الكعب العالى على « الشغل الاستعراضى » أن يأتى الفتى أيضا بشعور متهدلة على الجبين وعلى القفا ،

ولابد ــ والحال كذلك ــ أن يلجـأ الى صالونات خاصة ليكوى منه ما طال ، ويسوى ما فسد ، فاذا انسدل شعره على عينيه أو جبينـه ، أتى بحركة من حركات التدلل الانثوى ، وهى التى تهـز الانثى فيها رأسها هزة سريعة ، فينحسر شعرها عن وجهها برشاقة تجذبنا نحن معشر الرجال . ورحم الله شاعرنا على الجارم حيث يقـول :

ويل الشباب من النعومة انها
اعراض سم للشعوب وشيك
ما أتعس الزمن الجديد بفتية
قتلوه فى التصفيف والتدليك

ثـم تأتى ثالثة الأثافي فى بنطلون يضيق على ردفيه بشكـل واضح ، حتى اذا سار بكعب عال ، اهتزتا بوضـع فاضـح .. أضف الى ذلك قمصان وسترات ذات صبغـة حريمى ،وكلهـا أشيـاء تجعل من الصعب علينـا أن نتوصل الى تمييز الفتاة من الفتى ، اللهم الا اذا أسرعت أنت الخطى ، ونظرت الى الواجهـة الاماميـة ، ولا تنظـر للوجه ؛ فأحيانا ما قد يخدعك فى نعومته وتقاطيعه التى تشبه وجه الانثى ، وقد تكون سعيد لو رأيت له شـاربا أو ذقنا ، فان لم تجد لا هـذا ولا تلك ؛ فليس أمامك الا النهدان ، ففى بروزهما قد يتميز الذكر عن الانثى !

ونحن ــ من الناحية البيولوجية ــ نعتبر الثديين من الاعضاء الثانوية ، فى حين أن الغدد الجنسية من الاعضاء التناسلية الاولية، وقد يأتى الملبس والسلوك بعد ذلك فى المرتبة الثالثة . . فتصرف الانثى غير تصرف الذكر ، وطبيعتها غير طبيعته ، ولهـذا كانت «ملابسناهى ريشنا»ــ كما يعبر عن ذلك جون لانجدون ديفيز فى كتابه

« بـذور الحياة » .. وهو يقصـد أن للذكـور ريشـا أجمـل وأروع من ريش الاناث ، بحيث تستطيع أن تعرف الـديك من الدجاجـة دون أن تفحص أعضاءهمـا التناسلية فحصا دقيقا ، وكذلك يمكن تمييز الطاووس من الطاووسة ، وذكر الحمام من الحمامة ، والظبى والتيس والخروف من الظبية والمعزة والنعجة (عن طـريق القـرون) .. ولا تنس أيضـا تلك الهالـة مـن الشعور المتهدلة على قفا بعض الحيوانات مثل الاسـد والقرد ، لنفرق بينهما وبين اللبؤة والقردة !

ويعنى هذا أن الحياة قد وضعت علامات مميزة لتفـرق بين الذكر ، والانثى ، ويعنى أيضا أن الحيوانات قـد أصبحت أسعد حظا منا نحن معشر البشر ، ففيها تبدو الذكور بصفات ، والاناث بصفات أخـرى ، الا أن ذلك قـد أصبـح من الامـور العسيرة أحيانا فى حالة شبابنـا « المودرن » أو المتحضر * .. فباسم قشور الحضارة أو النكسـة فى التطـور تخلى بعضهـم عن « ريش » الذكور ، وتحلوا « بريش » الاناث !

لكن الحضارة حضـارة خلق وفـكر وعقـل ، لا حضـارة شعـر وكعب وردف !

(*) لكون هذا التقليد قد ورد من بلاد الفرنجة ، إذن فهو دليل – فى عرف هؤلاء – على الحضارة والتقدم والمدنية ، وهنا تكمن عقدة النقص . إلا أنه من الملاحظ أن معظم هؤلاء الشباب يبدون كالقرود وهم يتماجبون بشعورهم المتجعدة الخشنة ، ووجوههم الكالحة التى تعلوها غبرة ، ولقد ظلمنا القرود عندما قارنا بين شعور هؤلاء وهؤلاء ، فشعور القرود ناعمة .. والتشبه بالخنافس يعنى أنهم ينتمون إلى أولاد الذوات . وتلك عقدة أخرى .. وربما يكونون من ذوات الظفر والحافر.

ونحن نعلم تماما أن الانثى المتزنة لا يهمها فى الذكر منا كعبا يتبختر ، أو شعرا يتهدل ، أو ردفا يهتز .. لانها ستسأل حتما عن مركز الذكر الاجتماعى ، بعد ان تلقى نظرة فاحصة على « مركزه » البدنى والرجولى .. وذلك ــ فى الواقع ــ نوع من الاختيار الطبيعى السليم .. فالمركز الاجتماعى المرموق يعنى عقلا اكفأ ، وفكرا أنضج ، « والمركز » البدنى القوى يعنى صفات وراثية مرغوبة ، ولا شك أن تلك ستورث للاجيال القادمة ، وهذا يعنى أن الحضارة الحقيقية حضارة عقول فى المقام الاول .. وتأتى الاجسام بعد ذلك فى المرتبة الثانية .. فرب أشخاص لهم « جسم البغال ، واحلام العصافير » !

وماذا يتمنى الذكر منا فى أنثاه ؟

أنوثة واضحة ، وجمالا معقولا ، ومعاشرة بالمعروف ، وشيئا من تفتح عقلى وأمورا أخرى تختلف فى تفاصيلها من ذكر الى ذكر .. فلكل ذكر مزاج وطباع ونظرة تختلف عن نظرات الذكور الاخرى .. فلسنا نسخة بالكربون من بعضنا ، ولهذا كان لابد أن تختلف أمزجتنا ، فليس صحيحا أنه « اذا إطفئت الاضواء ، تساوت النساء » .. فالذى قال ذلك لابد أن يكون غبيا من الاغبياء .. فحاسة اللمس فى الظلام تستطيع أن توضح لنا الكثير مما يخفى على عيوننا .. وكذلك حاسة السمع والشم .. وعندئذ يتبين لنا كم كان شاعرنا على حق عندما قال « والاذن تعشق قبل العين أحيانا » .. وكما تختلف لنساء فى الظلام ، كذلك يختلف الرجال ــ فلكل مخلوق طبيعة وبناء وملمس ورائحة وبصمات ومزاج .. الخ ، تميزه عن اى مخلوق آخر .. فالكلب يستطيع ان يميز كلا منا برائحته. والجسد يرفض عضوا ليس من ذاته .. وهكذا يتبين أن الذى قال « أطفىء .. تتساوى » .. لا يفهم ولا يدرك شيئا

من اسرار الخلق ولا الجنس ولا الحياة .. فهو كالبهيم .. أو ربما أضل !

والواقع انك لو سألت آية انثى هذا السؤال البسبط : لو أن الله قد خيرك بين نعمة الجمال وبين المركز والجاه .. فماذا تفضلين ؟ .. لأجابت دون تردد : نعمة الجمال .. ذلك أن راس مالى فى جمالى !

وكان لابد ـ والحال كذلك ـ أن تعتني الانثى براس مالها ، ولا احد يلومها فى ذلك ، لكن لابد أن نلوم الذكور لو انصرفوا عن تنمية العقل (بالمعرفة والقراءة والسلوك) الى تنمية الشعور وابراز الارداف ، أو الوقوف طويلا امام المرايا .. فى البيت وفى الاماكن العامة وفى المصاعد .. او اى مكان فيه مرآة ، لدرجة أننا نخشى (من كثرة ما لاحظنا ورأينا) أن يحمل الفتى حقيبة كحقيبة الفتيات والسيدات فيها مرآة ومشط وعطور .. الخ ، ليتزين كما تتزين الاناث ، أو كما زينت الطبيعة ذكور الحيوانات .. ولا نظن أن الانثى الحقيقية (أى ذات الرقة والنعومة والانوثة) ترضى بشاب ناعم رقيق يشاركها فى بعض صفاتها الانثوية .. ذلك أن طبيعة الكون والحياة تمنع ذلك .. فالاشياء المتشابهة تتنافر كما تتنافر الشحنات الكهربية والاقطاب المغناطيسية المتشابهة .. فالرجل منا يحب فى المرأة نعومتها وانوثتها ، ويفر من « استرجالها وخشونتها » ، كما أن المرأة الناعمة تحب فى الرجل خشونته ورجولته وكرمه وتودده .. بالكلمة والهدية والمصروف فعاد اغراق الفتاة أو الخطيبة بالهدايا يعنى ـ على حد تعبير كل من لوراس ومارجيرى ميلن فى كتابهما « أحاسيس الحيوانات والبشر » ـ ان الخطيب « سيصبح ممولا حسنا لبيت الزوجية فى المستقبل ، وانه سيتحمل ـ بكرم ـ اعباء

الأسرة » .. وبجوار الهدايا تظهر الشبكة والمهر فى المقام الاول ، وكل ذكر ومستواه المـالى والاجتمـاعى !

ويذهب ميلن وزوجتـه الى التعليق على هـذه العـادة ، فيذكران أنها عادة حيوانية ، ذلك ان بعض ذكـور الحيوانـات الثـديية والطيور والحشرات تتـودد الى اناثها بهـدايا من طعـام أو هدايـا رمزية أو هدايا فارغـة .. المهم أن الذكـور تعبر لأنائها عن حسن نواياها ، واحيـانا ما تحمل النوايا بذور السوء ــ لا يختلف فى هذا ذكر البشر عن ذكر الحشرة !

اذن .. فالصفـات المختلفة التى تميـز الذكـر عن الانثى هى التى تجذب هذا الى تلك .. أى أنهمـا هنا كالقطب الموجب والسالب ، فاذا دخل احدهمـا فى مجال الآخر ، كـان لابد من التجاذب ، وهـذا ما تسعى اليه الحيـاة دائما ليكون التزاوج والتناسل والتكاثر ، وبهذا تحل الاجيال الجديدة محل القديمة ، فتأتى وجـوه وتروح أخرى !

ولا شك ــ كما سبق أن ذكرنا ــ أن الارداف الممتلئـة من العلامات الجنسية الثانوية التى تميز الانثى عن الذكـر ، وهى لا شك احدى المعالـم الجمالية فى المرأة ، ولهذا فـان الشاعـر الانجليزى جيوفرى شوسر الذى عاش فى القـرن الـرابع عشر يرى أن جمال الأنثى يتركز فى « أرداف عريضـة ، ونهود عالية مستـديرة » !

وفى كتاب « مقالات شهيرة فى العلم » يقـدم مارتن جاردنر دراسة كتبهـا هنرى هيفلوك اليس Ellis (١٨٥٩ ــ ١٩٣٩) بعنوان « ما الذى يجعل المرأة جميلة ؟ .. وفيها يعدد الصفات الجمالية ، ويرى أن الاعضـاء الجنسية الاساسية ليست مثيرة بالدرجـة التى نراها فى الأرداف والنهود والسيقان والخصر ..

الخ ، ولقد انعكس البناء الجسدى الانثوى على الطريقة التى تسير بها الانثى .. فنساء بعض الدول الواقعة فى الجنوب (يقصد جنوب أوربا .. وربما يشير الى ايطاليا واسبانيا) يشتهرن بجمال خطواتهن وتناسقها ، أو كما يعبر عن ذلك الشاعر الرومانى القديم فيرجيل فيقول « ان الالهة تتجلى فى مشيتها » ! .. فالحركات الاهتزازية للارداف أثناء السير أصبحت من العلامات الجنسية المميزة .. وقد تصبح أكثر اثارة عندما تتصنع المراة ذلك .. وهذا نراه اوضح فى بعض الدول الواقعة خارج أوربا ، بحيث اذا سارت المراة ، سار معها الاغراء والفتنة الجنسية (ونحن نشفق على «خنافسنا» من هذا الوصف الجارح لرجولتهم) !

ويشير اليس فى هذا الصدد الى المراة العربية بوجه عام ، والمصرية بوجه خاص ، ويطرى مشيتها ويمتدحها (ويبدو أنه لم يطلع على رقصها البركانى ، اذ لو اطلع ، لوصف وصفا يذهب به عقول الرجال) ، ويشير الى أنها تتثنى وتتدلع (كغصن البان) اذا سارت ، ويساعدها ردفاها على هذا الدلال المعروف باسم « الغنج » .. فالمراة الفنجة هى التى تتلاعب بجسمها بطريقة مثيرة يسيل لها لعاب الرجال

والخلاصة ان اليس يصل فى استنتاجاته الى أن الصفات التشريحية للانثى تختلف اختلافا جوهريا عن الرجل ، ولقد انعكس ذلك على مشيتها ، وعلى اردافها .. وصدرها ان اردت ذلك ، وفى ذلك الكفاية لبعض عينات من شبابنا الذى يتبختر ويتثنى ويهتز بكعبه العالى ، ليهتز ردفاه ، رغم أننا والحمد لله — لسنا من قوم لوط ، ولا نحب اللواط !

ويبدو ان بعض شبابنا يحبون التقليد الاعمى . وهم فى ذلك يشتركون مع القرود ، فهى أيضا محبة للتقليد .. والواقع

أن تقرب الذكر من الانثى وتقليدهـا فى بعض سلوكها وملبسهـا يرجع الى عادات الشعـوب التى نبعت منهـا هـذه الظاهـرة القبيحة ، ففيها يبيحون الشذوذ الجنسى ، ولا مانع ــ والحـال كذلك ــ ان يتزين الذكر للذكر ، فقد ارتبط أحدهما بالآخـر ، كمـا يرتبط الذكر بالإنثى ، وربما كانت النتيجة الحتمية لذلك هـو تحطيـم الحواجـز التى تفصـل بين الذكورة والانوثة .. لكننا ــ والحمد لله ــ مجتمعات لا زلنا نحتفظ بأصالتنا وتقاليدنا التى تضع الرجل فى مكانه ، والانثى فى مكانها .. ومن أجل هذا تحسدنا نسـاء الغرب على رجولتنا ، وتحسدنا رجالهم على انوثة نسائنا .. فسحر الشرق ينبع أساسا من سحر المرأة .. وكم تغنى الشعراء فى هذا السحر وكم أفاضوا !

ومع ذلك فالردف العـالى ، والصـدر العالى قد جاءا فى المرأة ليؤديا وظائف فسيولوجية محددة .. فالصـدر لادرار اللبن وللرضـاعة ، والردف مخزن للدهون للسحب منه عند الحاجة .. أى ان النساء هنـا كالجمال فى الصـبر والتحمل وفسيولوجية تحويل الدهون الى ماء وطاقة ولبن .. اى أن للردف الانثـوى وظيفتين (أو ربما ثلاثا أو أربعا اذا اردت أنت ذلك *) : وظيفة اعلانية تجـذب أنظار الذكور ، كما يجـذب لفردوس المحرومين ، ووظيفة فسيولوجية وبها تسحب منه لانثى مخصصاتها المدخرة اثناء الجوع والحمل والرضـاعة . ولابد ان ذلك كان رحمة من الله بالانثى ، خصوصا عندما عاش الانسان فى العصور القديمة لائذا بالكهوف والمغارات . وكانت الذكور تخرج للصيد فى ظروف قاسية ، علها توفق فى الحصول

(*) الثالثة والرابعة ليستا ذات أهمية بيولوجية .. فالثالثة قد تريح فى عملية الجماع ، والرابعة قد تثير الذكر عن طريق اللمس باليد .. وكلاهما على أية حال مفيد فى بعض الأحيان والأحوال .

على طعام للاناث والرضع والاطفال ، وقد تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن ، وعندئذ تشتغل الميكانيكية البيولوجية فى الأنثى الحامل أو المرضعة وتعوضها من مخزن الدهون فى ردفيها ، ومنهما الى جنينها أو رضيعها ، الى أن يأتى الله بالفرج ، فيعود الى المخزن رصيده .. وهكذا يقوم الردف مقام البنك .. أى أن هناك دائما أرصدة مدخرة ومسحوبة .. الا أن عملة الردف طاقة تقدر بالسعرات او الكالورى الحرارى ، وعملة البنك نقود وشيكات وما شابه ذلك ، وكلاهما بلا شك مفيد فى الحياة .. فالنقود الزائدة .. تعنى طعاما زائدا . يعنى دهونا زائدة .. تعنى أردافا متضخمة .. مالم يوازن الانسان بين ما يأكل وبين ما يحرق أو يستهلك .

لكن يبدو ان الحياة قد أضافت للانثى مكرمة بيولوجية هامة جدا لتحافظ على حياتها فى حين انها تقصف بها عمر الذكور .. فالاطباء وعلماء التغذية يحذروننا دائما من زيادة وزن اجسامنا بعد سن الثلاثين ، لان الزيادة تتمثل إلينا فى دهون مختزنة ، والدهون — فى عمليات التحول الغذائى — تؤدى الى كوليسترول، والكوليسترول يؤدى الى أمراض القلب والشرايين .. وهذه تظهر بوضوح فى الرجال ولا تظهر فى النساء الخصيبات .. أى اللاتى لم يبلغن سن اليأس ، فاذا بلغن هذه السن ومررن بهـا ، ارتفعت فيهن نسبة الكوليسترول والجلطات وامراض القلب والشرايين .

ومع أن مخزون المرأة من الدهون ضعف المخزون عند الرجال، الا انها لاتصاب كما نصاب ، والسبب يرجع الى تأثير هرمونات الجنس الانثوية بشكل واضح على كيمياء الدهون ، فتؤدى الى خفض نسبة الكوليسترول فى الاناث فى حين انها ترتفع فى الذكور .. فاذا وصلت الانثى الى سن اليأس ، واختفى الطمث الشهرى ، وافتقد الجسم الانثوى هرموناته التى كانت تشرف

على تجهيز الرحم للحمــل ، فان ذلك يؤدى الى زيادة نسبة الكوليسترول فى دمائها بدرجة ملحوظة ، فتصاب كما نصاب .

والواقـــع ان فى هذا التغيير حكمة عميقة ، وهو دليل جديد على أهمية الانثى من الناحية البيولوجية .. فكأنما الحيــاة قد منحت الانثى وثيقة تأمين مؤقتة ضد أمراض القلب والجلطات والشرايين طالمـــا هى بقيت خصيبة ، فاذا فقدت خصوبتها ، سحبت الحياة منها وثيقة تأمينها ، وتعرضت الاناث لما يتعرض له الذكور ، ولكن بدرجة لازالت أقل لأن الرجال يتعرضون دائما للاجهــاد والتوتر ووجع القلب بمعدلات أكبر ، ولهــذا كانت نسبة قصف أعمارهم أدهى وامر !

على خنافسنا اذن أن يعتنوا بتنمية أردافهم أكثر من تنمية مداركهم وعقولهم ، وتنمية الارداف تحتاج الى مخــزون من الدهــون ، ولعل هــذا المخزون يصيبهم بالازمات التى تقصف أعمــارهم ، فيريحون ويســتريحون ، فلســنا فيهم راغبين ، ولا لخنوثتهم منجذبين !

ولتحيا أرداف النســاء ، ولتسقط أرداف الذكور .. أو فليذهب هؤلاء بشعورهم وأردافهم وكعــوبهم الى الجحيم .. اللهم آمين !

لقــد أضاعوا وقتنا .. وحطموا كبرياءنا .. وأضحكوا علينا اناث العالمين .. الا لعنة الله على المخنثين فى كل آن وحين !

ومسكين والله هذا الصنف من أشباه الذكور .. فلا شك أنهم يحسون بنقص لا ندرى كنهه ولا طبيعته ، ومع ذلك «ففاقد الشىء لايعطيه » .. ولعلهم يدركون فيعودون ويرشدون !

رائع حقا عالم النساء !

لقد كان اختيارنا من البداية لعنوان « مسكين عالم الذكور » ثم بدايتنا بمقدمة « نكد أو دكر » من العناوين المطابقة للحال ـ حالنـا نحن معشر ذكور البشر فى عالم الانسان والحيـوان .. فلقد اتضح لنا ـ من خلال ما قدمنا أننا من الناحية البيولوجية الجنس الاضعف ، وهن الجنس الاقوى والاحسن والاثمن ، ومن هنا كان اختيارنا فى النهاية لذلك العنوان « رائع حقا عالم النساء » .. ليكون الختام مسكا على أيديهن بأذن الله الواحد القهار !

وقد يقال ان فى ذلك نوعا من التحيز أو التودد لهن أو الخوف منهن .. ونحن ـ فى حقيقة الامر ـ لانخشى الا الله المعز المذل .. ثم المرأة .. فهى أيضا قد تعز وتذل ، ويقال ، والعهدة على الراوى ـ وهو من المتزوجين القدامى ـ ان ذلها لذيذ .. لذيذ جدا ! .. ونحن لا نستطيع أن نهضم لذة الذلة .. ويبدو أن العقل البشرى قد اختل كما يختل العقل الاليكترونى . فخلط بين حروف لذة وذلة .. (لاحظ أنها نفس الحروف) !

ومـع ذلك .. فالمرأة ـ بلا شك ـ مخلوقة جميلة ، وهى الانثى الوحيدة التى ابدع الله تكوينها ، وصهرها فى قالب من الحسن والتناسق والبهاء ، لتحلو فى عيون البشر رغم ما يلاقون منها بعد ذلك من أمور تجعل منها لغزا كبيرا يستعصى على الحل .. خصوصا اذا ملكت وتملكت .. ومع ذلك فهى لطيفة ولذيذة ..

فلأول مرة فى التاريخ البيولوجى تتخلى الحياة عن الذكر من البشر ، وتصب عنايتها على أنثاه ، وتقدمها له على هيئة مخلوقة تختلف عنه فى الصوت والملمس والقوام والطباع والخطوات وفى كثير من الامور الباطنة التى لاتهمنا هنا كذكور (مثل العمليات الفسيولوجية والهرمونية والكيميائية .. الخ) .. اذ كل مايهمنا منها قد مليح ، وثغر جميل ، وشعور ناعمة متهدلة على كتفيها، وعيون نظراتها كالسهام ، ولغتها ابلغ من الكلام ، ومعانيها أروع من خطب الخطباء ، وحديث المتحدثين والفقهاء والعلماء .. ومن هنا — وكما سمعنا وكما نعلم ونرى — قد يتراهن بعضهن على ذكر — أى ذكر تشاء بأى مركز أو فئة تشاء — لتوقعه احداهن فى شباكها من أول نظرة .. وربما من ثانى نظـرة أو ثالث أو عاشر نظـرة .. المهم أن الذكر يقـع والسلام .. (وكل قولة ولها كيـال) !

ولقد وزعت الطبيعة لمسات جمالها على ذكور الحيوان .. فرأينـاها فى الاسماك وفى الطيور والاسود والقـرود والوعول .. الخ ، وبهذه اللمسات الفنية — التى قد تأخـذ بألباب البشر (مثل ريش الطاووس البديع) — يستطيع الذكر أن يستعرض نفسه أمام انثاه .. وفى الانسان انقلبت الآية ، فكان الاستعراض والتدلل للانثى ، والتودد والغزل للذكر .. ولقد ذهب الانسان بعقله المتطور ، ومخـه المدرك ، وتمييـزه الناضـج بين القبـح والجمال ، والفضيلة والرذيلة ، والحب والكراهية ، والتناسق والفوضى .. الخ ، ذهب الى اختراع أمور كثيرة جدا ليزين بها أنثـاه .. ذلك أن معظم الاختراعات القديمة والحديثة من اختراع الرجال .. لكننا نجد أنفسنا فى حل من التعرض لهذا الموضوع الطويل ، ويكفى ان نذكر — فى ذلك المجال — أن معظم بيوت الازياء من اختراع الرجال .. والذى يستطيع أن يحكم على الانثى هو الرجل لا المرأة ، والعكس أيضا صحيح .. المهم من العطور والمجوهرات والمساحيق والدهانات والملابس الخاصة

والعامة « والكورسيهات » « والسوتيانات » وما خفى وما ظهر من آلاف الاصناف التى تملأ مجلدات فوق مجلدات .. كل هذا وغيره كان من صـــناعة العقل الانسانى الخلاق ، ليضفى لمسات من الجمال على أنثاه ، لتصبح أروع وأبدع وأقوى مخلوق على هذا الكوكب .. لا فى العضلات ، ولكن فى التخطيط والرسم والكيد والسياسة التى تتوافق مع مقتضيات الحال .. وكل هذا ــ بلاشك ــ يحمل فى طياته معنى الذكاء .. وبهذا السلاح العظيم تتغلب الانثى ــ لو شاءت ــ على الذكر ، أو ربما عشرة او مائة أو الف .. او كما تشاء .. المهم انها بذكائها قد تخطط، ونحن نطبق وننفذ .. وقد نصاب ونموت دفاعا عن الشرف المثـــلوم ، او الاهانة التى قد تأتيها من الذكور ــ فشرف الانثى غال ومصون ــ ولكن ما أكثر ماهدر ويهدر فى كل آن وحين ، ودون أن يظهر ذلك أو يبين ، وفى ذلك الكفاية لقوم يفقهون فيفيقون !

والتاريخ ملىء بالمواقف الكثـــيرة التى ظهر فيها تأثير الانثى على الذكر .. فقديما قيل أن قابيل قتل أخاه الاصغر هابيل من أجل الانثى ولا شك أن هذه اول حادثة قتل تتم فى النوع البشرى .. قتل من أجــل الانثى ، ويسحر الانثى وروعتها وتأثيرها .. واذا صح ذلك ، فلا غبار عليه من حيث المبدأ ، فلقـــد جاء الذكور ليموتوا من اجل الانثى .. لا يختلف هـــذا فى قابيل أو هابيل والوعل وخنفس الوعل وأبى جلمبو والحشرة وزعيط ومعيط ونطاط الحيط .. فكل هذا من أجل الاختيار الطبيعى للاقوى .. والاقوى يقتـــل الاضعف ، لتصبح الانثى للاقوى .. وقد يعترض البعض على ذلك ، وقد يقولون : ان ذلك لا يمكن أن يكون ، وان كان ، فلابد أن يكون هـــذا منط الحيوان .. لا الانسان !

ولكن الانسان حيوان عاقل متحضر ناطق .. اى أن حضارته ومدنيته تمنع ذلك ، وتضع حدا فاصلا بينه وبين الحيـــوان ،

ولكن .. من قال لك ان هابيـــل وقابيـــل كانا متحضرين وهما يعيشان فى الغابات ؟ .. لابد اذن ــ والحال كذلك ــ أن يسرى عليهما قانون الغاب .. ولا قانون هناك ــ فى الواقع ــ الا هذا القانون .. ولابد أن يتغلب القوى على الضعيف ، والله دائمـا فى جانب القوى ، حتى يستطيع الضعيف أن يغـــير ما به من ضعف .. « أن الله لا يغـــير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، ضعفا كان ذلك أو كيدا أو مكرا أو تواكلا .. الخ ، وهـــذا هو ناموس الله فى خلقه ، ولا يعرف ذلك الا « أولو الالباب » !

ومهما تكن الامور ، فلاشك أن للقصة معنى واضحا وعميقا . فلقد قتل الأخ أخاه من أجل انثى .. وبعدها لم يسدل الستار . وتنسى « الرواية » بل ان المسرح ــ مسرح الحياة ــ يفتح أبوابه كل يوم ليقدم لنا قصصا أخرى كثيرة .. التخطيط فيها للانثى ؛ والتنفيذ للذكر .. أو يكون أثر الانثى على الذكور أقـــوى من العقل ومن الحيـــاة .. فيروح الضعفاء ، ويبقى الاقوياء .. يسجن الاغبياء ، والبراءة للاذكياء .. يسقط الرجال ، وتحيا النســـاء !

ومن أعماق التاريخ أيضا تبرز قصـــة يوسف وعجل قوم موسى (لاحظ أن هـــذا العجل المعبـــود كان من حلى النساء) كليوباترة مع قيصر وانطونيو ، ودليلة مـــع شمشون الجبـــار ، وامرأة أبى جهل وشجرة الدر .. وما خفى كان أعظم .. ولكن الله حليـــم ستـــار ..

صحيح أن النساء أضعف فى العضلات .. وصحيح أن هـــذا النقص قد أدى قديما الى اغتصـــاب الرجل للمرأة بالقوة ، أو خطفها وحملها عنوة .. وصحيح أن آثار هـــذه العادة لازالت موجودة فى بعض اجزاء من ريفنا المصرى بطريقة مهـــذبة ليس فيها ضرر أو اغتصاب بالمعنى المفهوم ، ولكنها تحمل فى طياتها

بذور الماضى * .. وصحيح أن هناك حالات من اغتصاب الفتيان للفتيات (ليست مأساة بنجلاديش ببعيدة .. اذ اغتصب الجنود أثناء الحرب بين بنجلاديش وباكستان والهند آلاف الفتيات والنساء مما نتج عنه آلاف من حالات الحمل غير المشروع) . وصحيح أن ذكر الانسان هو المخلوق الوحيد الذى قد يغتصب أنثاه عنوة (ومعه أيضا فى هذه الصفة بعض أنواع العناكب) ، فى حين أن ذلك لا يمكن أن يحدث فى الحيوان، لأن « عصمة » الجنس بيد الانثى ، وليس للذكر فى ذلك حيلة، فهى التى تحركه وتثيره ، وهى التى تجمعه وتطرده ، وهى التى تسعده وتشقيه ، وهو بالنسبة لها ليس الا بمثابة آلة حية تضغط الانثى على زرارها فى الوقت المناسب ، فتدور لتنكح ، ثم تتوقف وتنام عن الجنس أسابيع طويلة ، وشهورا عديدة ، أو ربما العام كله .. وصحيح أننا معشر ذكور البشر نتصرف مع الانثى بوازع من ضميرنا وديننا وخلقنا وقوانيننا التى قد تبعث بنا الى غياهب السجن فيما لو ادعت علينا أنثى (مجرد ادعاء) أننا تهجمنا عليها وأردنا بها اعتداء ، وعندئذ لن تنفعنا عضلاتنا ولا مراكزنا .. اذ لو كان الامر أمر عضلات ، لاصبح الفيل والحمار والاسد والنمر والحصان سيد الانسان .. لكن السيادة لا تنبع من العضلات ، بل مردها غالبا الى العقل ، ومن أجل هذا يسيطر الانسان على الحيوان ، وتسيطر المرأة على الرجل ، لانها تعرف مكامن الضعف فينا ، وفى قصة دليلة مع شمشون الجبار رمز عظيم لهذه الظاهرة المحيرة .. والظاهرة المحيرة هى المرأة .. وفى المرأة سلاح مكين ، وسر دفين ، وسحر مبين .. ولا شك أن لديها ــ بجوار كل هذا ــ حاسة عجيبة تقف معها

(*) تتلخص هذه العادة فى إصرار العريس على إنزال عروسه من مركبتها ، ثم حملها بين ذراعيه، والانطلاق بها جريا إلى حيث عش الزوجية ، وهناك يتركها ، ثم يعود إلى أصحابه ، وبعد ذلك يأتى اليها حلالا طيبا بعقد نكاح شرعى .

لتعوضها عن قوة العضلات التى افتقدتها ، ومن أجل ذلك كان عندها حق عندما تقف شامخة واثقة مما تقول وهى تقول « الرجل طفل كبير » .. بداية من آدم عليه السلام ، الى كاتب هذا الكلام عليه الامان ! (منهن طبعا) ! ..

لكن .. لماذا تنظر الينا الانثى مثل هذه النظرة « العيالى » ؟ أى لماذا تعتبرنا أطفالا أو عيالا كبارا ؟

لانها تدرسنا فى ساعات ضعفنا .. اى أنها قد ترمقنا بحسرة كما يرمق الاستاذ تلاميذه الذين لا يريدون أن يكبروا فى معلوماتهم ، أو يتطوروا فى مفهومهم ، فلو أننا درسنا الذكور فى ساعات الرضا والحبور والملذات الانثوية كما ندرس مثلا سلوك خنازير غينيا (وهى حيوانات تستخدم فى كثير من التجارب البيولوجية والطبية) ، لتبين لنا أن الرجل الغضنفر ـ بعد أن ينتهى من مهامه الهرمونية ـ ينام بين ذراعى الانثى كما ينام الطفل الوديع بين ذراعى أمه ، وقد يناجى نفسه وقتها هامسا « عجبى .. لقد تبخر كل شىء فى لحظات .. النار الى رماد .. والحب الى برود ، والقوة الى ضعف ، والرجولة الى طفولة .. عجبى .. عجبى » ! . ثم قد ترمقه الانثى ـ باشفاق ـ وهو واجم ساهم صامت بعد ان كان كالبركان المتفجر بالطاقات والكلمات والآهات .. واضيفوا الى ذلك ما تشاءون من معلومات ، لتكتمل الصورة ، ونصل الى الحقيقة ، وما نحن اليها بواصلين ، لكن الذى سنصل اليه حتما أن انتاجنا من « اللحوم » البشرية ـ نتيجة لتمسكنا بالعملية الجنسية دون ضابط ولا رابط ـ أكبر من انتاجنا من اللحوم الحيوانية .. ومن هنا انخفضت قيمة الانسان وزادت أسعار الحيوان .. نعنى لحم الماشية والطير وما شابه ذلك !

ورائع حقا عالم النساء .. ومسكين عالم الذكور ـ ذكور الانسان !

لكن مما لاشك فيه أننا فى الانثى نتكون . ومنها نخرج . وعلى صدرها نترعرع ، ومن ثديها نرضع ، وتحت رعايتها ننمو ونكبر ونلف وندور ، واليها نعود ، ولكن بادراك جديد ، حيث نعيش فى دنياها الى يوم معلوم !

يعنى هذا أن فى حياة كل ذكر منا ــ بالتأكيد ــ أنثى .. قد تكون أما أو أختا او زوجة او حبيبة .. المهم ان هنــاك انثى يتأثر الذكر بها فى حياته ، وقد تدفعه الى الامام ، وتجعل منه عظيما من العظمــاء ، أو بطلا من الابطال ، أو قد تشــده الى الخلف ، فتخرب الدار ، وتيتم الاطفـــال ، او ما بين ذلك تكون أقدار النساء !

ومن هنا تبزغ روعة الانثى . وتبرز خطورتها ، فيكون تأثيرها عظيما فى الوحى الذى قد يهبط على المفكرين والفنانين والفلاسفة والكتــاب والشعراء .. ثم أن بركاتهن لا شك فيها فى توزيع الكتب والمجلات الجنسية التى تبرز مفاتنهن (الرجل ضعيف حتى أمام الصور .. ومن هذا الضعف تنبع قوة التوزيع) .. كما أن مشـاركتهن فى أدوار الاغراء لمن العوامل « الاستراتيجية » الهامة فى انجاح التمثيليات والافلام ، وبها يصعدون الى « قمم » المجـد بمساعدة مؤهلات المجـد التى تتفـوق فى عائدها على المؤهلات العقلية وارقاها .. ومع أن « المجد لله فى الأعالى ، وعلى الارض السلام . وبالنــــاس المسرة » .. الا انه مع المسرة أيضـــا تبـرز المـراة . . والى المـراة . . انطلق روح الله ، ومنها خرجت على هيئـة السـيد المسيح . ليؤدى دوره بين الناس . وليكون من المنقذين للبشرية . والداعين للسلام .

والمراة تحفظ دين الرجل . لكن الرجل لا يستطيع أن يحفظ دين المرأة ، فاذا أحس الرجل بضعفه ، واذا شعر بعدم القدرة على الاعتماد على نفسـه ، سعى الى الارتباط بزوجة لتدير لــه

شئونه (والمرأة بمفردها تستطيع أن تدير شئونها بنفسها) ، ولتكمل له نصف دينه .. أى ان الرجـل بدون زواج ناقص الدين .. وربما يكون ناقص العقل .. لسنا فى الواقع ندرى ، ولكن الذى ندريه اننا لم نسمع أن امرأة تزوجت لتكمل نصف دينها برجل ، ومع ذلك فقد تكمل له أحيانا دينه ، وقد تعريه من النصف الذى به قد دخل !

وكثيرا ما تروق فى عقولنا سيرة عظيم من العظماء ، أو انتـاج مفكر من المفكرين ، أو أديب من الادباء ، وقد ترسم لهم هالة من القدسية والاجـلال ، ومـع ذلك فبمقدور المرأة ان تلعب بعواطفهم فى الشيخوخة والشباب على حد سواء .. وغالبـا ما يعرى هؤلاء أنفسهم فى سيرة حياتهم عندما يصـدقون فيما يكتبون ، فزكى نجيب محمود يذكر بعض ذكرياته فى « قصـة نفس » كيف كان شعوره فى أيام شبابه عندما تقابل مع فتـاة فى مثل عمره وهو صائم فى شهر رمضان فى منزل أسرة يعرفها « وقد جلست الى ماكينة الخياطة تهز قاعدتها بقدميها ، وتمسك الثوب المخيط بيديها ، فيكون لجسمها بهذه الحركة شىء من التوقيع والنغم ، اما انا فقد حييت وجلست الى منضدة قريبة وفتحت القرآن ــ وكنت أحمله معى ــ وأخذت أقرأ فى همس ، وكأن كيانى كله عندئذ كان هو ذلك القرآن .. أخذت أتلو فى همس ، مدخلا نفسى فى عالمه ، ومازجا معانيه ــ بقدر ادراكى لها ــ بشغاف قلبى ، ودخل عم الفتاة يسألها ، ان كان لديها شىء يلف فيه ثوبا جديد على ذراعه ، وأجابت بالنفى ، وخرج العم ، وعلقت الفتاة بعبارة تشير بها الى معنى خفى ، وقرنت العبارة بابتسامة تنادى ، وبنظرة تدعو ، فاذا كنت قد رأيت شرارة النار ماذا تفعل بكومة من الدريس الجاف ، فقد رأيت ماذا فعلت تلك الشيطانة بجسدى الذى كان الصوم قد جففه . لقـد أشعلت فى احشائه نارا ــ على سبيل الحقيقة لا على سبيل

المجاز ــ لاننى احسست عندئذ لهب النار يأكل جوفى أكلا ، ويعلو الى وجهى فيشويه ، وتحول كيـانى المتلهب الى عينين ذاهلتين تنظر الى الشيطان وقد تجسد فى انسانة من البشر ، لكن لسانى لم ينطق بحرف ، وتسمر بدنى كله على مقعدى ، وعيناها مازالتا تدعوان ، وابتسامتها مازالت تنادى » * !

ويذكر عبـاس محمود العقاد فى « أنا » * « ليس الحب بالغريزة الجنسية ، لان الغريزة الجنسية تعم الذكور والاناث، ولا يكون الحب بغير تخصيص وتمييز ، وليس الحب بالشهوة ، لان الانسان قد يشتهى ولا يحب ، وقد يحب وتقضى الشهوة على حبه ، وليس الحب بالصداقة ، لان الصداقة أقوى ماتكون بين اثنين من جنس واحد ، والحب أقوى ما يكون بين اثنين من جنسين مختلفين » .

ويقول عن حبه للمرأة « انها لتثير فى الرجل شعور القـوة وشعور الجمال وشعور اللذة ، وشعور الالم ، وشعور الجموح والانطلاق من قيود المنطق والحكمة ، وشـعور الانسان كله ، وشعور الحيوان كله .. بل تثير فيه الشعور بما وراء الطبيعة من أسرار مرهوبة ، ومن اغوار لا يسبر مداها فى النور والظلام »!

ويقول العقاد أيضا « منذ الازل وقفت الفتنة الى جانب ، ووقف الى الجانب المقابل لها حكماء الارض وهداتها ومشرعوها ، وأصحاب النظم والدساتير فيها .. قالت هـذه كلمتها ، وقال الحكماء والهداة كلمتهم ، ونظرت ونظروا ، ووعدت وأوعدت ، ووعـدوا وأوعدوا ، وأمامك الناس اجمعون فاسألهم واحـدا

(*) عن دراسة نشرت بالهلال لعلى بركات فى «المرأة والجنس فى المجتمع العربى المعاصر» بعنوان أدباؤنا والاعترافات الجنسية .

واحدا : كم مرة سمعتم هذه ، وكم سمعتم هؤلاء ، وأنا الضمين لك أن فى تاريخ كل انسان مرة واحدة على الاقل سمع فيها لهذه الفتنة ، ولم يسمع معها لحكمة الحكماء ، ولا شىء من الاشياء » .

والاعترافات كثيرة ، ولو جمعت من صدور البشر ، لملأت خزائن من الكتب ، ولأجمعت كلها على أن كل واحد ممن جمعته الظروف بالفتنة المجسدة ، لابد وأن يكون قد ضعف امامها .. اذ مما لاشك فيه أن الانثى قد تركت بصماتها على جلد كل منا، وكثيرا ما كان تأثيرها فوق ارادتنا ، وغالبا ما يتغلب نداؤها على صوت العقل فينا ، ورغم ذلك ـ ولذكائها العظيم ـ توحى لنا « بغمزة » عين حلوة اننا لازلنا سادة هذا الكوكب بعلومنا وفلسفاتنا ودياناتنا واختراعاتنا وغرورنا .. ثم تأتى بعد ذلك بفتنتها لتسود على هؤلاء السادة دون أن يدروا أو يدروا لست أدرى !

ولا شك أن الانسان يختلف عن الحيوان فى أمور جوهرية وهامة .. فحيث تتحكم الهرمونات فى الحيوانات ، فتجعل منها دمى جنسية حية ، وتدفعها دفعا لاشباع غرائزها ، لتأتى من وراء ذلك ذرية ، نجد أن الانسان هو المخوق الوحيد على هذا الكوكب الذى بزغ فيه نور العقلوالحكمة والجمال والادراك والمثل والمعرفة .. الخ . وبجوار ذلك تلعب الهرمونات لعبتها ، ويقع الانسان أحيانا فى صراع جبار بين غريزته وعقله .. وقد تتغلب الهرمونات على العقل والارادة ، فيسلك سلوك الحيوان، وقد يحدث العكس ،فيصير على طبيعة الانسان .

ويختلف الانسان ايضا ـ والى حد ما ـ عن القرد فى نظرته للانثى .. فحيث تنصب عينا القرد على ردفى انثاه ، نجد أن عيوننا قد سمت وارتقت وتطلعت أولا الى وجود الجنس

الآخر .. والواقع أن العين لم ترتق حقا ، ولكن الاساس يتركز في أمخاخنا التى تطورت فأدركت معنى الجمال . . فالانسان هو أيضا المخلوق الوحيد الذى يستطيع أن يقرأ ما قد يظهر على وجوه الآخرين من انفعالات ، ويستشف ما يبدو عليها من عواطف ، ويعرف ماقد يرتسم فى العيون من لغات .. لاهى مقروءة ولا هى مكتوبة ، ومع ذلك فأثرها يغنى عن أى شىء عداها .. وكأنما وجوه البشر وعيونهم بمثابة لوحات حية رائعة يبزغ منها الشعور بالرضا والطمأنينة والاستسلاموالصرامة والبراءة والخبث والمكر والدهاء والدعوة الى الحب والحنين الى الجنس .. الخ ، أى ان لانسان هو الكائن الوحيد ذو الوجه المعبر دون ما ثرثرة أو غلبة أو ضوضاه .. ولا يعرف وجه الحيوان عن ذلك شيئا مذكورا .

وعندما تطور العقل ، واستقام الجسم وانتصب فى تناسق على ساقين وقدمين ، وأصبح للوجه ــ بتعبيراته المختلفة ــ المقام الاول فى جذب انتباهنا ، ثم يأتى الجسد بعد ذلك فى المرتبة الثانية .. عندما حدث هذا ، كان الانسان أيضا هو المخلوق الوحيد الذى أصبح بمقدوره أن يجتمع جنسيا مع الجنس الآخر وجها لوجه .. ربما يستثنى من ذلك الاسد واللبؤة ، اذ يقال أن اللبؤة تستلقى على ظهرها كما تفعل نساء البشر ، ويقال أيضا انها تأتى بأصوات تشبه التأوهات التى تنطلق من البشر عند ممارسة النكاح ، لكن الاسد بالتأكيد لا يرى فى وجه اللبؤة شيئا يستحق أن يتطلع اليه ، أو يتأمل فيه ، فى حين أن ذلك من الأمور الهامة التى قد تشد من أزر الانسان وهو يؤدى مهامه الجنسية فى قبلة يذوب فيها ، أو لمسة تثيره ، أو نظرة تلهب مشاعره ، أو تطويقا بالذراع او بالذراعين ، أو وضع الخد على الخد ، أو اى امر آخر يشعل فيه الجذوة ، ويؤجج النيران ، ويمنح الطاقة ، أو قد يصاب بالقرف والغثيان

والضمور .. كل هذا يتوقف على تعبيرات الوجه الذى نتطلع اليـــه ..

والانسان ايضا هو المخلوق الوحيـد الذى يستطيع أن يأتى انثاه فى مائة وضع ووضع ، أو أكثر من ذلك او اقل ؛ فى حين ان الحيوان لايعـرف من ذلك الا وضـعا يتيما يؤديه بطريقة اوتوماتيكية أشبه ماتكون بوضع مفتاح فى ثقب البـاب فيشعر باللذة . وبعدها ينتهى الامر ؛ ويحدث الحمل .

الا ان مافات من امور الحب والغـزل والودد والاستعراض والحب والجنس والضنى والآهات والعـذاب والسعادة والهيام والأحـلام والخيال الذى يحلق بصـاحبه أو صاحبته فى دنيـا الورود والعطور والجمال .. كل هذا ليس الا فقرة صغيرة فى مقدمة متواضعة فى كتاب مخلوق جديد سيتشكل جنينا ليجىء الى الحياة .. وهنـا تبرز أمام الانثى الأم اصعب واعظم واروع واسمى رسالة يمكن أن يقوم بها مخلوق على ظهر هذا الكوكب . فعليها الحمل والوضع والرضـاعة والسهر والعنـاية بمملكتها الصغيرة فى فترة تعتبر من أغلى واعز فترات حيـاتها ؛ وليس للزوج فى كل هذه الاعباء الخطيرة والثقيلة نصيب كبير . اذ عليـه أن ينطلق ويسعى ليمول ويمون ثم ينطلق من جـديد .. فاذا أضفنا الى المرأة اعبـاء العمل الخارجى ــ بجوار اعبـائها الاساسية ــ فان ذلك يوضح لنـا قـوة احتمالها وصبرها . ولاشك أن الحياة قد أمدتها بطاقات خفية حتى لا تنهار كمـا ينهار الرجال .

ونحن ــ بلا شك ــ ابناء امهاتنا فى المقـام الاول . كمـا اننا ننتسب اليها أكثر مما ننتسب الى آبائنا . فلقـد كانت علاقتنا بها أقوى (من حمل الى رضاعة الى طفولة وصبا) ؛ ولقد قضينا معها أوقاتا أطول بكثير مما قضيناه مع آبائنا ؛ وكان ارتبـاط

الابناء بالامهات أقوى من ارتباطهم بالاباء ، وحتى التجارب التى أجريت على هذه الظاهرة تؤكد ذلك ، فاذا رأت سيدة صورة فوتوغرافية لسيدة أخرى تحمل طفلا ، فان حدقة العين تتسع بنسبة ١٧٪ ، فى حين ان الرجل لا يهمه هذا المنظر كثيرا[1] ، انما تتسع حدقته اذا وقعت عيناه على صورة فاضحة ، أو انثى فى وضع من أوضاع الاغراء ، أو منظر من المناظر الطبيعية الخلابة . وهذا يعنى أن الاهتمام فى الانثى ينصب على الامومة ، وفى الذكر على الجنس والطبيعة الحيـة ، والذى يتحكم فى اتساع انسان العين منطقة صغيرة فى المخ تقع فى مراكز الابصـار .. ونحن فى حل من التعرض لسرد المزيد ، فليس لمثل هذه التجارب هنـا مجال ، لكن يكفى أن نذكر اننا نتأثر كثيرا بأمهاتنا أكثر مما نتأثر بآبائنا ، فالأم هى المربية الحقيقية للاجيـال ، وهى الاساس فى بناء الدول ، وقد تكون أيضا المعول الذى يهدمها .. وما أروع ما عبر عن ذلك الحديث الشريف عندما يشير الى حقيقة هامة فيقول « تخيروا لنطفكم ، فان العرق دساس » .. وما أصدق الرسول الكريم عندما نسب نفسه الى أمه ، لا الى أبيـه فقال « أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد » .. وما قاله أمير الشعراء أحمـد شوقى شعـرا :

الأم مدرسة اذا اعددتها أعددت شعبا طيب الاعراق

وأحيانا ما تخرج الحكمة أيضا من أفواه العامة ، فتراهم يعبرون عن ذلك بطريقة فجة ، لكنها تحمل بذور الواقعية .. « اكفى القدرة على فمها ، تطلع البنت لأمها » .. والعلم أيضا يؤكد كل هـذا بيولوجيا ووراثيا ونفسيا .. ومن هنا يبرز دور المرأة الخطـير ، ورسالتها الجليـلة .. فهى الاساس ، ونحن عجينة فى يدها ، وهى التى تشكلنا منـذ الصغر .. ان خـيرا فخيرا ، وان شرا فشرا ، ولهذا يقولون انه « من وراء كل رجل عظيم امرأة » .. ونضيف أيضا أن من وراء كل مجـرم خطير

امراة أخرى .. لكننا لا نقصد « وراء » بمعناها الحرفى الذى قد تشدقت به يوما واحدة من المتحذلقات المناديات بالمساواة عن غير دراية أو فهم ، (ولو شئنا العدل نحن معشر الذكور لطالبنا مساواتنا بالنساء) واعترضت هى على أن تكون المراة وراء الرجل ، وتساءلت : ولماذا لا تكون هى بجواره بدلا من ورائه ؟. ورغم أن كلمة وراء هنا تعنى أنها هى صانعته الحقيقية ، وهى التى تدفعه وتعينه وتشجعه وتهيىء له المناخ المناسب للصعود الى عظمته « الفانية » ، ومع ان هذا الصنف من السيدات لا يهتم الا بالمظاهر ــ مظاهر اللفظ والحياة دون دراية بالباطن .. مع ذلك فلا يهم ان كانت المراة وراء الرجل أو امامه أو بجواره أو فوقه او تحته .. كل مايهم انها قد صنعته صغيرا ، ولم تتركه كبيرا ، فاما ان نكون له من الرافعين أو من الخافضين !

والواقع أن هناك فرقا هائلا بين الأم المتعلمة والأم الجاهلة .. لان الأولى تدرك مالا تدركه الثانية ، ومع أن ثمرات التعليم يجب أن تنصب على تربية الاجيال ، وعلى العناية بتنشئة الاطفال ، الا أن ذلك قد شغل المراةعن أقدس واعظم رسالة يمكن ان يحملها مخلوق على ظهر هذا الكوكب .. فمواطن صالح ، خير من الف شهادة ، اذ ماذا يفيدنا فى الشهادات والعلوم اذا لم تكن بغير خلق ولا ضمير ..

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت
فان همو ذهبت اخلاقهم ذهبوا

ولسنا هنا من دعاة النصيحة ، ولا الموعظة الحسنة ، فلقد جاء الانسان بعقل مدرك ، وهو بلاشك يعرف الفضيلة من الرذيلة ، والطيب من الخبيث ، والصدق من الكذب . . « فالحلال بين ، والحرام بين » .. وما يعيب معروف ، ومالا يعيب معروف .. ورحم الله أمى وطيب ثراها ، فلقد كانت تجهل القراءة والكتابة ، ولكنها لم تكن تجهل ما يضر الناس

وما ينفعهم ، ولا ما يعيبهم أو يسمو بهم ، ولقد تعلمنا على يديها صلة الرحم ، والبر بالناس ، والصدق فى القول والعمل الى آخر هذه الخصال الحميدة التى لايختلف عليها اثنان : جاهل أو متعلم .. انما الجهل أن تنصرف الأم عن أقدس وأهم وأعظم رسالة .. فاذا أولتها حقها ، وأرضت بها ربها ، فلاشك أنها ستكون أروع نساء العالمين .. وهذا هو المراد ، من رب العباد !

ولنختتم موضوعنا بهذا الحديث الشريف .. « من أولى الناس بحسن صحابتى يا رسول الله ؟ .. قال : أمك قال . ثم من ؟ .. قال : ثم أمك ؟ .. قال : ثم من ؟ .. قال ثم أمك ؟. قال : ثم من ؟ .. قال : أبوك » !

ولقد كرمها الرسول ثلاثا وكرمناها .. فهل تكرمنا بثمرات بديعة من صنع يديها .. فتكون مجدا للوطن ، وذخرا للمجتمع ؟ .. لست أدرى ، ولعلها تدرى .. فلست أدرى أنها تدرى !

« ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين » !

الفهرس

كتب صـــدرت للمؤلف

	الناشر
١ ــ الميكروبات والحيــاة	دار القلم للطبع والنشر
٢ ــ دورات الحيــاة	» » » »
٣ ــ الفطريات والحيــاه	» » » »
٤ ــ أسرار المخلوقات المضيئة	» » » »
٥ ــ الفيروس والحيــاة	» » » »
٦ ــ لمــاذا نموت ؟	الهيئة العامة للكتــاب
٧ ــ معارك وخطوط دفاعية فى جسمك	» » »
٨ ــ الانسان والنسبية والكون	» » »
٩ ــ زوجات مفترسات	دار الهلال ــ كتاب الهلال
١٠ ــ أنت .. كم تساوى ؟ !	» » » »
١١ ــ مذكرات ذرة	دار المعارف ــ سلسلة اقرا
١٢ ــ هل لك فى الكون نقيض ؟ (لغز الكون والكون المضاد)	الهيئة العــامة للكتاب

رقم الإيداع : ٨٧/٥٤٧١
الترقيم الدولى : ٩ - ١١٦ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق
القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا: شروق - تلكس 93091 SHROK UN
بيروت ص.ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ برقيا داشروق - تلكس SHOROK 20175 LE

هذا الكتاب

بدون تحيز أو تعصب لبنى جنسه ، ومستندا إلى الحقائق العلمية ، يجىء هذا الكتاب كصفعة لغرور الذكور ، فيضع فيه الإناث «فوق العين والرأس» !

فأساس الأنثى عريض ، وأساس الذكر هزيل ، ولقد جاءت أقوى منا وراثيا ، وأعقد بيولوجيا ، ولهذا سادت على الذكر باطنا – لا ظاهرا – أو ربما باطنا وظاهرا ، فكل هذا – كما يشير المؤلف – متروك لذكائك وتقديرك ، إذ أنه فى مواقف كثيرة يكتفى بالتلميح دون التصريح .

ويذكر المؤلف – بأسلوب مرح ساخر ، وبعبارات وجمل راقصة – أمورا تدعو إلى الهم والفكر لنا معشر الذكور ، فأعصاب الإناث أقوى ، وأمراضهن أقل ، واحتمالهن أشد ، وأعمارهن أطول ، وهن بالنسبة للحياة أثمن وأهم !

ومؤلف هذا الكتاب من محافظة بنى سويف ، وقد تخرج فى كلية العلوم – جامعة القاهرة ، ويشغل الآن وظيفة أستاذ الميكروبيولوجيا (علم الكائنات الدقيقة) بكلية الهندسة – جامعة الاسكندرية ، وله – بجوار بحوثه الكثيرة المنشورة فى المجلات العالمية المتخصصة – كتب عديدة ، ودراسات طويلة ، ومقالات كثيرة فى الاذاعة والصحف والمجلات تتناول قضايا العلم والحياة بأسلوب سلس يغرى بالقراءة ، ويدعو إلى التأمل الواعى فى هذا الوجود المثير .